

سلسلة تهذيب كتب الإمام ابن قيم الجوزيّة (٥)

تهذيب طريق الهجرتين وباب السعادتين

للإمام العلّامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزيّة

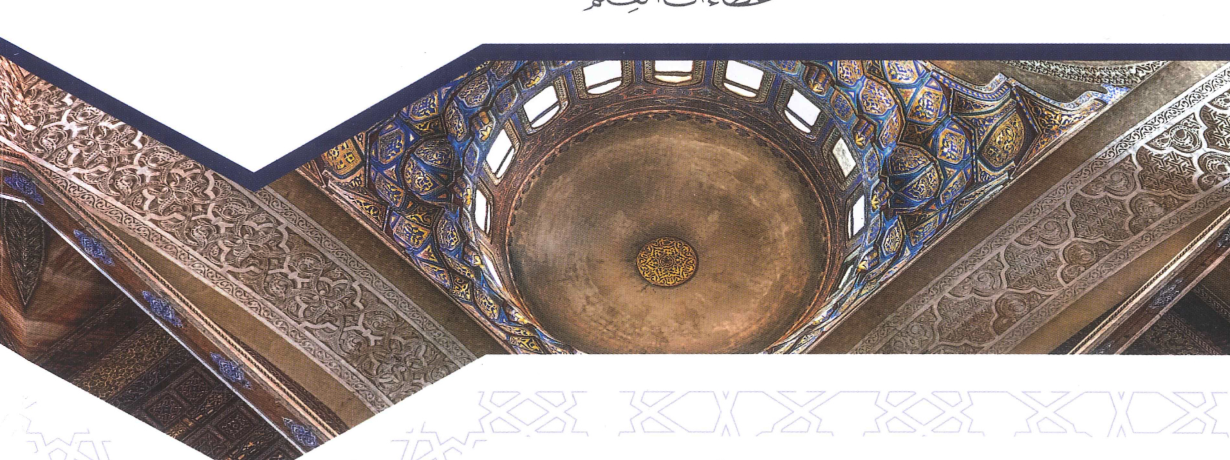
(٦٩١ - ٧٥١هـ)

إعداد

د. سلطان بن ناصر النّاصر د. تركي بن عبدالله الميمان

إشراف

عطاءات العلم



دار عطاءات العلم



سلسلة تهذيب كتب الإمام ابن قيم الجوزية (٥)

تهذيب

طريق الهجرتين وباب السعادتين

للإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١هـ)

إعداد

د. سلطان بن ناصر الناصر د. تركي بن عبد الله الميمان

إشراف

عطاءات العلم

ح مؤسسة عطاءات العلم للنشر، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الناصر، سلطان بن ناصر
تهذيب طريق الهجرتين وباب السعادتين/ سلطان بن ناصر الناصر،
تركي بن عبدالله الميمان.- الرياض ١٤٤٢هـ
ص؛ ..سم
ردمك: ٧-٢٢-٨٣١٤-٦٠٣-٩٧٨
١- التصوف الإسلامي أ- الميمان، تركي بن عبدالله (مؤلف مشارك) ب- العنوان
ديوي ٢٦١ ١٤٤٢/١٠٢٠٩

أحد مشاريع

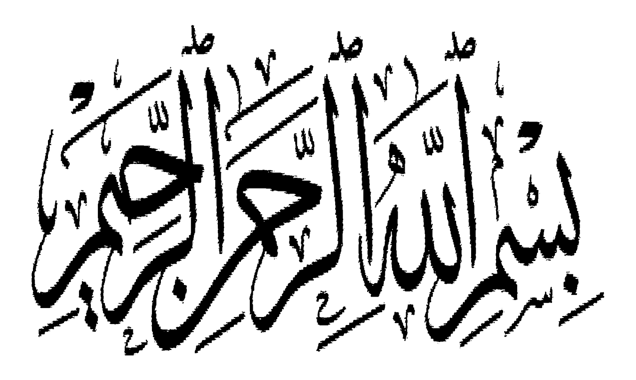


هاتف: ٩٦٦١١٤٩١٦٥٣٣+
فاكس: ٩٦٦١١٤٩١٦٣٧٨+
info@ataat.com.sa

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م



المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد : 920000908 الفاكس : 2702719 - 011
0551523173 @daralhadarah
زوروا متجر الحضارة
daralhadarah.net


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ فإن «عطاءات العلم» بيت خبرة في تطوير البرامج العلمية الشرعية ورعايتها، وتمكين العاملين فيها، وهي تسعىٰ إلىٰ الارتقاء بالجهات والبرامج العلمية الشرعية بطريقة منهجية، وصولاً لتحقيق مقاصد الشريعة، وترسيخ القيم الإسلامية.

+منهجية احترافية صممتها خصيصًا لصناعة المشاريع العلمية الشرعية، بين دراسات علمية محكّمة، ونصوص تراثية محققة، وبرامج تطويرية متخصصة، وموسوعات علمية إلكترونية متميزة، وسلسلة إصدارات كوكبة من الأئمة الأعلام، وغيرها من المشاريع والبرامج ذات الأثر العظيم والنفع العميم.

ولما كانت خدمة العلم الشرعي ونشره وتوريثه للأجيال المتعاقبة مما يجدر بأهل الإسلام الحرص عليه أولته «عطاءات العلم» عنايتها واهتمامها، فاحتضنت لأجله أحد مشروعاتها النوعية وهو مشروع تحقيق آثار العلماء ونشرها، ومنها آثار الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله، وذلك بطباعتها وتحقيقها تحقيقًا علميًا لائقًا؛ بتوفير أفضل نسخها الخطية في العالم، ومقابلة نصوصها، وتحريرها، والتعليق عليها بما يخدمها ويوضّح مقاصدها، وكتابة مقدمات تعرّف بكل كتاب وتكشف مزاياه، وصُنْع فهارس كاشفة مفصلة لعلومه

وخباياه، في عمل علمي مبارك ابتدأ منتصف عام ١٤٢١هـ بإشراف الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، وتمويل مؤسسة الشيخ سليمان الراجحي الخيرية، واستمر نحو عشرين عامًا حتىٰ سنة ١٤٤١هـ، ونفع الله به من شاء من عباده في مختلف بلدان العالم.

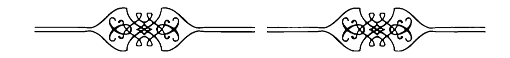
وحين انتهىٰ العمل من نشر هذه الكتب العلمية النافعة باتت الحاجة ماسة إلىٰ تقريب عيون هذه الكتب وتهذيبها واختصارها بمنهج علمي محكم يسهم في توسيع دائرة الاستفادة من علومها وفوائدها لعموم القراء الذين قد يحول بينهم وبين الانتفاع بها استطراد المؤلف وإسهابه في تقرير المسائل والرد علىٰ المخالفين ونحو ذلك، كما يستفيد منها المتخصصون في العلوم الشرعية الراغبون في خلاصات جامعة لأفكار الكتب لغرض المراجعة والاستذكار.

ويطيب اليوم لـ«عطاءات العلم» أن تقدم لأهل العلم وطلابه والحريصين علىٰ تراثه هذا المشروع العلمي الجديد في تهذيب نخبة من مؤلفات الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله، وهو مشروعٌ علمي مبارك نهض به فكرةً وإعدادًا فضيلة الشيخ الدكتور سلطان بن ناصر الناصر (عضو المجلس الإشرافي لعطاءات العلم)، وتولت «عطاءات العلم» الإشراف عليه تتميمًا ومراجعةً وتوثيقًا وصفًّا وإخراجًا.

نسأل الله عز وجل أن ينفع بهذه الإصدارات العلمية المهذبة كما نفع بأصولها، وأن يبارك فيها وينفع بها الأمة، ويجزل الأجر ويعظم المثوبة للشيخ سليمان بن عبد العزيز الراجحي ومؤسسته الخيرية علىٰ رعايتها المباركة التي أثمرت هذا المشروع وأصله، ولفضيلة الشيخ الدكتور سلطان بن ناصر الناصر وجميع

المشاركين فيه، ويجعله من العلم النافع الذي يستمر ثوابه ولا ينقطع، والحمد لله أوَّلًا وآخرًا، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

عطاءات العلم



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، ومن تبع هداهم واقتفىٰ سننهم إلىٰ يوم الدين.

أما بعد، فإن الإمام الحافظ أبا عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية المولود سنة ٦٩١ والمتوفىٰ سنة ٧٥١ هـ رحمه الله من أعلىٰ أهل العلم مرتبة في جودة التصنيف وكثرة التأليف، وقد أسبغ الله علىٰ كتبه من النضارة وجمال العبارة ما بهر عقول العلماء؛ لما فيها من استقصاء أصول المسائل وآثارها، وإبراز مقاصد الشريعة وأسرارها، فصار لها من القبول والانتشار والأثر، ما هو لائق بتلك العلوم والفوائد والدرر.

ولما كانت مؤلفات هذا الإمام الجليل زاخرة بالتحقيقات العلمية والتجليات الإيمانية التي تعظم حاجة الناس إلىٰ مداومة النظر فيها علىٰ اختلاف مستوياتهم المعرفية، فضلا عن طلاب العلوم الشرعية، والتي قد يحول دون قراءتها ورودها بين أمواج بحر تقريراته وردوده ذات النفس الطويل، ظهرت الحاجة لتقريب مصنفاته بتقديم تهذيبات علمية مركزة لمباحثها وأفكارها دون ما فيها من الاستطرادات التي لا تكون محل اهتمام لدىٰ غير المختصين بموضوعاتها، فجاء هذا العمل محققًا لتلك الغاية الشريفة، خدمةً لعموم المسلمين وخاصتهم، سواء منهم من لم يتسنَّ له قراءة الأصل، أو من أراد تكرار النظر في زبدة ذلك الأصل، وجاريًا علىٰ طريقة أهل العلم في

اختصار التصانيف وتهذيبها، وذلك من أغراض التأليف ومقاصده المشهورة، كما عبَّر عنه ابن خلدون في مقدمته بقوله: «أن يكون الشيء من التآليف التي هي أمهات للفنون مطولًا مسهبًا، فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر إن وقع».

وقد جرىٰ العمل في التهذيب وفق منهج يتلخص فيما يلي:

١- إثبات ألفاظ المؤلف بدون تصرف فيها، ولا زيادة عليها.

٢- المحافظة علىٰ ترتيب ورود النصوص في الأصل بدون تقديم أو تأخير.

٣- الاقتصار علىٰ صلب الفكرة المقصودة، وحذف الاستطرادات، مع الحرص علىٰ إظهار السياق علىٰ نحوٍ متسق.

٤- الاختصار في عرض الأقوال والأدلة والنقاشات والتعريفات ونحوها.

٥- إثبات جميع عناوين الأبواب والفصول ولو كان المحذوف فيها كثيرًا.

٦- إبراز بعض الفوائد والعبارات الصالحة للانتقاء والاقتباس، وذلك بتحبيرها باللون الأحمر.

٧- وضع قائمة في آخر التهذيب بالفوائد والعبارات المنتقاة التي وردت في الأصل ولم تثبت في التهذيب نظرًا لعدم ملاءمتها للسياق، لورودها في نصٍّ لم يطابق شرط التهذيب.

٨- الاعتماد علىٰ النص المحقق في الإصدارات العلمية المتقنة التي تولت نشرها والإشراف عليها «عطاءات العلم».

وقد تكرمت «عطاءات العلم» جزاها الله خيرًا بخدمة التهذيب بما يلي:

١- تخريج الأحاديث تخريجًا مختصرًا من حواشي الأصل.

٢- شرح الألفاظ الغريبة شرحًا مختصرًا مستفادًا من حواشي الأصل.

٣- وضع عناوين جانبية للموضوعات في بداية الفصول.

٤- وضع أرقام صفحات الأصل علىٰ هامش الصفحات الأيمن والأيسر.

٥- وضع فهرس للفوائد والعبارات الصالحة للاقتباس في نص التهذيب أو النصوص المحذوفة من الأصول.

٦- وضع فهرس مفصل للكتاب.

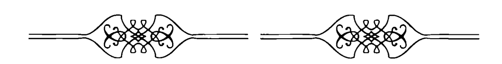
٧- مراجعة التهذيب وتحكيمه علميًّا.

٨- التجهيز للطباعة.

وأجزل الشكر وأوفاه للمؤسسة العلمية الرائدة «عطاءات العلم» لجهودها في خدمة هذا المشروع، ولكل من أسهم في إنجازه بسهم، تحقيقًا لأصوله، ومراجعة لنصوصه، وتنسيقًا لها وإخراجًا، تقبل الله من الجميع أعمالهم وبارك فيها وجعلها خالصة لوجهه، إنه سميع مجيب.

وكتب

د. سلطان بن ناصر الناصر



١/ ٥
المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نَصَبَ الكائناتِ علىٰ ربوبيَّته ووحدانيَّته حُجَجًا، وحَجَبَ العقولَ والأبصارَ أن تجد إلىٰ تكييفه منهجًا، وأوجب الفوزَ بالنجاة لمن شهد له بالوحدانية شهادةً لم يبغِ لها عوجًا، وجعل لمن لاذ به واتَّقاه مِن كلِّ ضائقةٍ مخرجًا، وأعقبَ مِن ضيقِ الشدائدِ وضَنْكِ الأوابدِ لمن توكَّل عليه فرجًا، وجعل قلوبَ أوليائه متنقلةً في منازل عبوديته من الصبر والتوكُّل والإنابة والتفويض والمحبَّة والخوف والرَّجا.

فسبحان من أفاض علىٰ خلقه النعمة، وكتَب علىٰ نفسه الرحمة، وضمَّن الكتابَ الذي كتَبه أنَّ رحمتَه تغلِبُ غضبَه. أسبغ علىٰ عباده نِعَمه الفُرادىٰ والتُّؤام. وسخَّر لهم البرَّ والبحر، والشمس والقمر، والليل والنهار، والعيون والأنهار، والضياءَ والظلام. وأرسل إليهم رُسُله، وأنزل عليهم كُتُبه، يدعوهم إلىٰ جواره في دار السلام. ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فسبحان من أنْزَلَ علىٰ عبدِه الكتابَ ولم يَجْعَلْ له عِوَجًا. ورفع لمن ائتمَّ به، فَأحلَّ حلالَهُ، وحرَّمَ حرامَهُ، وعمل بمحكمه. وآمن بمتشابهه، في مراقي السعادة درجًا. ووضع مَن أعرض عنه، ولم يرفع به رأسًا، ونبذه وراءَ ظهره، وابتغىٰ الهدىٰ من غيره، وجعله في دَرَكاتِ الجحيمِ متولِّجًا. فإنَّه الذكر الحكيم، والصراط المستقيم، والنبأ العظيم، وحبلُ الله المتينُ المديدُ بينه وبين خلقه، وعهدُه الذي مَن استَمْسَكَ به فاز ونجا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا سميَّ له، ولا كفو له، ولا صاحبة له، ولا ولد، ولا شبيه له؛ ولا يحصي أحدٌ ثناءً عليه، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، وفوق ما يثني عليه خلقُه، شهادةَ مَن أصبحَ قلبُه بالإيمان بالله وأسمائه وصفاته مبتهِجًا، ولم يزغْ عنه إلىٰ شُبَهِ الجاحدين المعطّلين مُعَرِّجًا.

وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، وخيرتُه من خلقه، وأمينُه علىٰ وحيه، وسفيرُه بينه وبين عباده. أرسله الله رحمةً للعالمين، وقدوةً للعاملين، ومحجَّةً للسالكين، وحجَّةً علىٰ العباد أجمعين. أرسله علىٰ حين فترةٍ من الرسل، فهدىٰ به إلىٰ أقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض علىٰ العباد طاعتَه ومحبتَه وتعزيرَه وتوقيرَه والقيامَ بحقوقه، وسدَّ إلىٰ جنَّته جميعَ الطرق فلم يفتح لأحد إلّا مِن طريقه. فشرح له صدرَه، ورفع له ذكرَه، ووضع عنه وزرَه وجعل الذلّة والصغارَ علىٰ من خالف أمره.

فهدىٰ به من الضلالة، وعلَّم به من الجهالة. وكثَّر به بعدَ القلَّة، وأعزَّ به بعدَ الذلَّة، وأغنىٰ به بعدَ العَيْلة. وبصَّر به من العمىٰ، وأرشد به من الغيّ، وفتح برسالته أعينًا عُمْيًا وآذانًا صُمًّا وقلوبًا غُلْفًا. فبلَّغ الرسالة، وأدَّىٰ الأَمانة، ونصح الأُمّة، وجاهدَ في الله حقَّ جهاده، وعَبَدَ الله حتىٰ أتاه اليقين. فلم يدع خيرًا إلّا دلَّ أمَّتَه عليه، ولا شرًّا إلّا حذّر منه، ونهىٰ عن سلوك الطريق الموصلة إليه. ففتح القلوب بالإيمان والقرآن، وجاهد أعداءَ الله باليد والقلب واللسان.

فدعا إلىٰ الله علىٰ بصيرة، وسار في الأُمة -بالعدل والإحسان وخلقه العظيم- أحسنَ سيرة، إلىٰ أن أشرقتْ برسالته الأرضُ بعد ظلماتها، وتألّفتْ به القلوب بعد شتاتها. وسارت دعوتُه مسيرَ الشمس في الأقطار وبلغ دينُه القيِّم

ما بلغ الليل والنهار. واستجابت القلوب لدعوة الحق طوعًا وإذعانًا، وامتلأت بعد خوفها وكفرها أمنًا وإيمانًا. فجزاه الله عن أمته أفضَل الجزاءِ، وصلّىٰ عليه صلاةً تملأُ أقطارَ الأرض والسماءِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمّا بعد: فإنَّ الله سبحانه غَرَسَ شجرةَ محبتِه ومعرفتِه وتوحيدِه في قلوبِ مَن اختارهم مِن بريَّته، واختصَّهم بنعمته، وفضَّلهم علىٰ سائر خليقته. فهي ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥]. وكذلِكَ شَجَرَةُ الإيمان أصلُها ثابتٌ في القلب، وفروعُها من الكلام الطيِّب والعمل الصالح في السماءِ، فلا تزال هذه الشجرةُ تُخرِجُ ثمرَها كلَّ وقتٍ بإِذن ربِّها من طيّب القول وصالح العمل ممَّا تَقَرُّ به عينُ صاحب الأصل وعيونُ حفظته وعيونُ أهله وأصحابه ومَن قرُبَ منه. فإنَّ من قرَّت عينُه بالله قرَّت به كلُّ عين، وأَنِسَ به كلُّ مستوحش، وطاب به كلُّ خبيث، وفرِحَ به كلُّ حزين، وأمِنَ به كلُّ خائف، وشهد به كلُّ غائب، وذكَّرتْ رؤيتُه بالله، فإذا رُئِيَ ذُكِرَ الله.

قد اطمأنَّ قلبُه بالله، وسكنت نفسُه إلىٰ الله، وخلصتْ محبته لله، وقصَرَ خوفَه من الله[1]، وجعل رجاءَه كلَّه لله. فإن سمع سمع بالله، وإن أبصرَ أبصرَ بالله، وإن بطش بطش بالله، وإن مشىٰ مشىٰ بالله. فبه يسمع، وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي. فإذا أحبَّ أحبَّ الله، وإذا أبغضَ أبغض لله، وإذا أعطىٰ فللّه، وإذا منع فللّه.

قد اتخذ الله وحدَه معبودَه ومرجوَّه ومَخُوفَه وغايةَ قَصْدِهِ ومنتهىٰ طلبِه، واتخذ رسولَه وحدَه دليلَه وإمامَه وقائدَه وسائقه. فوحَّد الله بعبادته ومحبته

(١) أي: جعل خوفَه مقصورًا علىٰ أن يكون من الله دون ما سواه.

وخوفه ورجائه وأفرَدَ رسوله بمتابعته والاقتداء به والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه.

فله في كلِّ وقتٍ هجرتان:

- **هجرةٌ إلىٰ الله** بالطلب والمحبة، والعبودية والتوكل والإنابة، والتسليم والتفويض، والخوف والرجاء، والإقبال عليه، وصدق اللَّجأ والافتقار في كلِّ نفس إليه.

- **وهجرةٌ إلىٰ رسوله** في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة، بحيث تكون موافقةً لشرعه الذي هو تفصيلُ محابِّ الله ومرضاته، ولا يقبل الله من أحد دينًا سواه، وكلُّ عملٍ سواهُ فعيشُ النفس وحظُّها لا زادُ المعاد.

وقال شيخ الطريقة وإمام الطائفة الجُنَيد بن محمد قدَّس الله روحه: الطرق كلها مسدودة إلا طريقَ من اقتفىٰ آثارَ النبي ﷺ، فإنَّ الله عزّ وجلَّ يقول: «وعزَّتي وجلالي لو أتوني من كلِّ طريقٍ، واستفتحوا من كل بابٍ، لما فتحتُ لَهُمْ حتَّىٰ يدخلوا خلفك»[١].

وقال بعض العارفين: «كلُّ عملٍ بلا متابعة فهو عيش النفس»[٢].

ولمَّا كانت السعادة دائرةً - نفيًا وإثباتًا - مع ما جاءَ به كان جديرًا بمن نصح نفسه أن يجعل لحظاتِ عمره وقفًا علىٰ معرفته، وإرادتَه مقصورةً علىٰ محابِّه، وهذا أعلىٰ همَّة شمَّرَ إليها السابقون، وتنافسَ فيها المتنافسون. فلا جرمَ ضمَّنَّا هذا الكتابَ قواعدَ من سلوك طريق الهجرة المحمدية. وسمَّيناه «**طريق الهجرتين، وباب السعادتين**»، وابتدأناه بباب الفقر والعبودية، إذ هو

(١) انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (١٥٩).

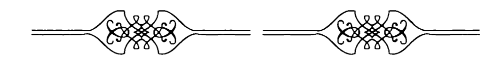
(٢) «الرسال القشيرية» (٤٠١).

باب السعادة الأعظم وطريقُها الأقوَم الذي لا سبيل إلىٰ دخولها إلا منه. وختمناه بذكر طبقات المكلَّفين من الجن والإنس في الآخرة ومراتبهم في دار السعادة والشقاء. فجاء الكتاب غريبًا في معناه، عجيبًا في مغزاه، لكلِّ قومٍ منه نصيب، ولكلِّ واردٍ منه شِرْب. وما كان فيه من حقٍّ وصوابٍ فمن الله، هو المانُّ به، فإنَّما التوفيق بيده. وما كان فيه من خطأ وزللٍ فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريء.

فيا أيها القارئ له والناظر فيه، هذه بضاعةُ صاحبه المزجاةُ مَسُوقةٌ إليك، وهذا فهمه وعقلُه معروضٌ عليك، لك غُنْمُه وعلىٰ مؤلفه غُرْمُه؛ ولك ثمرتُه، وعليه عائدته. فإنْ عدِمَ منك حمدًا وشكرًا، فلا يعدَمْ منك مغفرةً وعذرًا، وإنْ أبيتَ إلا الملامَ فبابُه مفتوحٌ، وقد:

استأثرَ اللهُ بالثناء وبالـ ... ـحَمْدِ وولَّىٰ الملامةَ الرَّجُلا[1]

والله المسؤول أن يجعله لوجهه خالصًا، وأن ينفع به مؤلفه وقارئه وكاتبه في الدنيا والآخرة. إنَّه سميع الدعاء. وأهل الرجاء. وهو حسبنا ونعم الوكيل.



(١) للأعشىٰ في «ديوانه» (٢٨٣).

١/ ١٢

في أن الله هو الغني وأن الخلق فقراء إليه

فصل

قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

بيَّن سبحانه في هذه الآية أنَّ فقرَ العباد إليه أمرٌ ذاتيٌّ لهم لا ينفك عنهم، كما أنَّ كونَه غنيًّا حميدًا أمرٌ ذاتيٌّ له. فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمرٍ أوجبه، وفقرُ من سواه إليه أمرٌ ثابت لذاته لا لأمرٍ أوجبه. فلا يعلَّل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل هو ذاتي للفقير، فحاجةُ العبد إلىٰ ربِّه لذاته، لا لعلَّةٍ أوجبت تلك الحاجة؛ كما أنَّ غنىٰ الرب ﷻ لذاته، لا لأمرٍ أوجبَ غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]:

والفقرُ لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا ... كما الغنىٰ أبدًا وصفٌ له ذاتي

فالخلق فقير محتاج إلىٰ ربه بالذَّات لا بعلَّة، وكلُّ ما يُذكَرُ ويُقدَّر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلَّة علىٰ الفقر والحاجة، لا عِلَلٌ لذلك؛ إذ ما بالذات لا يعلَّل. فالفقير بذاته محتاج إلىٰ الغني بذاته، فما يُذكَر من إمكانٍ وحدوثٍ واحتياجٍ فهي أدلَّةٌ علىٰ الفقر، لا أسبابٌ له.

والمقصود أنَّه سبحانه أخبرَ عن حقيقة العباد وذواتهم بأنَّها فقيرة إليه عزَّ وجلّ، كما أخبر عن ذاته المقدَّسة وحقيقتِه أنَّه غنيٌّ حميد. فالفقرُ المطلقُ من كلِّ وجهٍ ثابتٌ لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنىٰ المطلق من كل وجهٍ ثابتٌ لذاته تعالىٰ وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبدُ إلا فقيرًا،

(١) انظر: «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص ٤٥١).

ويستحيل أن يكون الربُّ تعالىٰ إلا غنيًّا، كما أنَّهُ يستحيل أن يكون العبدُ إلا عبدًا والربُّ إلا ربًّا.

إذا عُرِف هذا، فالفقرُ فقران: فقرُ اضطرارٍ، وهو فقرٌ عامٌّ لا خروج لِبَرٍّ ولا فاجر عنه. وهذا الفقر لا يقتضي مدحًا ولا ذمًّا ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا.

والفقر الثاني: فقرٌ اختياريٌ هو نتيجة علمين شريفين: أحدهما: معرفة العبد بربه، والثاني: معرفته بنفسه؛ فمتىٰ حصلت له هاتان المعرفتان أنتجا له فقرًا هو عينُ غناه وعنوانُ فلاحه وسعادته.

وتفاوتُ النَّاسِ في هذا الفقرِ بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين، فمن عرف ربه بالغنىٰ المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامَّة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعزِّ التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل.

فالله سبحانه أخرج العبدَ من بطن أُمه لا يعلم شيئًا، ولا يقدر علىٰ شيءٍ، ولا يملك شيئًا، ولا يقدر علىٰ عطاءٍ ولا منعٍ، ولا ضرٍّ ولا نفع ولا شيء البتة؛ فكان فقرُه في تلك الحال إلىٰ ما به كمالُه أمرًا مشهودًا محسوسًا لكلِّ أحد، ومعلوم أنَّ هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها، وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلىٰ رتبة الربوبية والغنىٰ، بل لم يزل عبدًا فقيرًا بذاته إلىٰ بارئه وفاطره.

فلمَّا أسبغ عليه نعمته، وأفاض عليه رحمته، وساق إليه أسبابَ كمال وجوده ظاهرًا وباطنًا، وخلع عليه ملابس إنعامه، وجعل له السمع والبصر

والفؤاد، وعلَّمه، وأقدره، وحرَّكه، وصرَّفه، ومكَّنه من استخدام بني جنسه، وسخَّر له الخيل والإبل، وسلَّطه علىٰ دواب الماءِ، واستنزال الطير من الهواء، وقهرِ الوحش العادية، وحفر الأنهار، وغرس الأشجار، وشقِّ الأرضِ، وتعلية البناءِ، والتحيّل علىٰ جميع مصالحه، والتحرز والتحفظ ممَّا يؤذيه= ظن المسكينُ أنَّ له نصيبًا من الملك، وادَّعىٰ لنفسه ملكةً مع الله، ورأىٰ نفسه بغير تلك العين الأولىٰ، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة، حتَّىٰ كأنَّه لم يكن هو ذلك الفقيرَ المحتاجَ المضطرَّ، بل كان ذلك شخصًا آخر غيرَه؛ كما روىٰ الإمام أحمد في «مسنده» من حديث بُسْر بن جِحَاش القرشي أنَّ رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفِّه فوضع عليها إصبعه ثمَّ قال: «**قال الله ﷻ: بُنَيَّ آدم، أنَّىٰ تعجزني! وقد خلقتك من مثل هذه، حتىٰ إذا سويتُك وعدلتك مشيت بين بُردَين، وللأرض منك وَئيد**[(١)]**، فجمعتَ ومنعتَ حتىٰ إذا بلغتِ التراقي، قلتَ: أتصدَّق، وأنَّىٰ أوانُ الصدقة!**»[(٢)].

ومن هاهنا خُذِلَ مَن خُذِلَ ووُفِّقَ مَنْ وُفِّقَ، فحُجِبَ المخذول عن حقيقته وأُنسيَ نفسه، فنسي فقره وحاجته وضرورته إلىٰ ربه، فطغىٰ وبغىٰ وعتا، فحقَّت عليه الشِّقْوة. قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

فأكملُ الخلقِ أكملُهم عبودية وأعظمهم شهودًا لفقره وحاجته وضرورته

---

(١) الوئيد: صوت شدّة الوطء علىٰ الأرض، يُسمع كالدويّ من بُعد.

(٢) «المسند» (١٧٨٤٢)، وأخرجه أيضا ابن ماجه (٢٧٠٧). وصححه الحاكم (٢/ ٤٥٤)، والبوصيري في «المصباح الزجاجة» (٣/ ١٤٣).

إلىٰ ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين. ولهذا كان من دعائه ﷺ: «**أصلِحْ لي شأني كلَّه، ولا تكِلْني إلىٰ نفسىٰ طرفةَ عين، ولا إلىٰ أحدٍ مِن خَلْقِك**»[١].

وكان يدعو: «**يا مُقلِّب القلوب ثبِّت قلبي علىٰ دينك**»[٢]. يعلم ﷺ أنَّ قلبه بيد الرحمن ﷻ لا يملك هو منه شيئًا، وأنَّ الله ﷻ يصرفه كما يشاء، كيف وهو يتلو قوله ﷻ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

فضرورته ﷺ إلىٰ ربه وفاقته إليه بحَسَب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده، وهذا أمر إنَّما لِمَن بعده منه ما يرشح من ظاهر الوعاءِ. ولهذا كان أقربَ الخلق إلىٰ الله وسيلةً، وأعظمهم عنده جاهًا، وأرفعهم عنده منزلةً، لتكميله مقام العبودية والفقر إلىٰ ربه ﷻ.

وكان يقولُ لهم: «**أيها النَّاس، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي، إنَّما أنا عبد**»[٣]، وكان يقول: «**لا تُطْروني كما أطرت النصارىٰ المسيحَ ابن مريم، إنَّما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[٤].

وذكره الله ﷻ بسِمَة العبودية في أشرف مقاماته: مقام الإسراء ومقام الدعوة، ومقام التحدي. فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]. وفي حديث الشفاعة: «**إنَّ المسيح يقول لهم: اذهبوا إلىٰ محمدٍ**

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، بدون «ولا إلىٰ أحد من خلقك»، وصححه ابن حبان (٩٧٠)، وحسّنه ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٢/ ٣٦٩).
(٢) أخرجه ابن ماجه (١٩٩)، وصححه ابن حبان (٩٤٣)، والحاكم (١/ ٧٠٦).
(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/ ١٣٨ - ١٣٩) بنحوه، وصححه الحاكم (٣/ ١٩٧).
(٤) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[(١)] . فنالَ ذلك المقام بكمال عبوديته لله وبكمال مغفرة الله له.

وتأمَّل قوله في الآية: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]، فعلَّق الفقر إليه باسمه «الله» دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعي الفقر، فإنَّه -كما تقدم- نوعان: فقرٌ إلىٰ ربوبيته، وهو فقر المخلوقات بأسرها؛ وفقرٌ إلىٰ إلهيَّته، وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، وهذا هو الفقر النافع. والذي يشير إليه القوم، ويتكلمون عليه، ويشمرون إليه، هو الفقر الخاص لا العام. وقد اختلفت عباراتهم عنه ووصفهم له، وكلٌّ أخبر عنه بقدر ذوقه وقدرته علىٰ التعبير.

قال شيخ الإسلام الأنصاري: «الفقر اسم للبراءة من رؤية المَلَكة، وهو علىٰ ثلاث درجات:

تعريف الفقر ودرجاته

الدرجة الأولىٰ: فقر الزهاد، وهو نفضُ اليدين من الدنيا ضبطًا أو طلبًا، وإسكات اللسان عنها ذمًّا أو مدحًا، والسلامةُ منها طلبًا أو تركًا، وهذا هو الفقر الذي تكلَّموا في شرفه.

الدرجة الثانية: الرجوعُ إلىٰ السبق بمطالعة الفضل، وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال، ويقطع شهود الأحوال، ويُمحِّص من أدناس مطالعات المقامات.

الدرجة الثالثة: صحة الاضطرار، والوقوعُ في يد التقطع الوحداني، والاحتباس في قيد التجريد، وهذا فقر الصوفية»[(٢)] .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦).

(٢) «منازل السائرين» (٥٦).

فقولـه: «الفقرُ اسمٌ للبراءة من رؤية الملكة» يعني أنَّ الفقير هو الذي يجرِّد رؤية الملك لمالكه الحقّ، فيرىٰ نفسَه مملوكةً لله، لا يرىٰ نفسه مالكًا بوجه من الوجوه، ويرىٰ أعماله مستحَقَّة عليه بمقتضىٰ كونه مملوكًا عبدًا مستعمَلًا فيما أمره به سيّده. فنفسه مملوكة، وأعماله مستحَقَّة بموجب العبودية، فليس مالكًا لنفسه ولا لشيء من ذرَّاته ولا لشيء من أعماله، بل كلُّ ذلك مملوك عليه مستحق عليه؛ كرجل اشترىٰ عبدًا بخالص ماله ثم علّمه بعض الصنائع، فلما تعلَّمها قال له: اعمل وأدِّ إليَّ، فليس لك في نفسك ولا في كسبك شيء. فلو حصل بيد هذا العبد من الأموال والأسباب ما حصل لم ير له فيها شيئًا، بل يراه كالوديعة في يده، وأنَّها أموالُ أُستاذه وخزائنُه ونعمُه، بيد عبده مستودعها، متصرّفًا فيها لسيّده لا لنفسه، كما قال عبد الله ورسوله وخيرته من خلقه: «**والله إني لا أعطي أحدًا، ولا أمنع أحدًا، وإنما أنا قاسم أضع حيث أُمِرتُ**»[(١)].

فهو متصرّف في تلك الخزائن بالأمر المحض تصرُّفَ العبد المحض الذي وظيفته تنفيذُ أوامر سيّده، فالله هو المالك الحق، وكلُّ ما بيد خلقِه هو من أمواله وأملاكه وخزائنه، أفاضها عليهم ليمتحنهم في البذل والإمساك، وهل يكون ذلك منهم علىٰ شاهد العبودية لله عزّ وجلّ، فيبذل أحدهم الشيء رغبةً في ثواب الله، ورهبةً من عقابه، وتقرّبًا إليه، وطلبًا لمرضاته؟ أم يكون البذل والإمساك منهم صادرًا عن مراد النفس، وغلبة الهوىٰ، وموجب الطبع، فيعطىٰ لهواه ويمنع لهواه؟ فيكون متصرّفًا تصرُّفَ المالك لا المملوك، فيكون مصدرُ تصرُّفه الهوىٰ ومرادَ النفس، وغايتُه الرغبةَ فيما عند الخلق من جاه أو رفعة أو منزلة أو مدح أو حظّ من الحظوظ، أو الرهبةَ من فوت شيء من هذه الأشياءِ. وإذا كان مصدر

(١) أخرجه البخاري (٣١١٧).

تصرُّفِه وغايتُه هو هذه الرغبة والرهبة رأىٰ نفسه لا محالة مالكًا، فادعىٰ الملكة وخرج عن حدِّ العبودية، ونسي فقره. ولو عرف نفسه حقَّ المعرفة لعلم أنما هو مملوك ممتحَن في صورة مالك متصرِّف، كما قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤].

وحقيق بهذا الممتحَن أن يُوكَل إلىٰ ما ادَّعَتْه نفسُه من الحالات والمَلَكات مع المالك الحقّ سبحانه، فإنَّ من ادَّعىٰ لنفسه حالةً مع الله وُكِلَ إليها. ومن وُكِل إلىٰ شيءٍ غيرِ الله فقد أتيح له بابُ الهلاك والعطَب، وأغلق عنه بابُ الفوز والسعادة؛ فإنّ كل شيء ما سوىٰ الله باطل، ومن وُكِل إلىٰ الباطل بطل عمله، وضلَّ سعيُه، ولم يحصل إلّا علىٰ الحرمان.

فكلُّ من تعلَّق بشيء غير الله انقطع به أحوجَ ما كان إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٦]، فالأسباب التي تقطّعت بهم هي العلائق التي كانت بغير الله ولغير الله، قُطِعت بهم أحوجَ ما كانوا إليها، وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلّت وبطلت اضمحلّت أسبابها وبطلت، فإن الأسباب تَبطُل ببطلان غاياتها وتضمحلُّ باضمحلالها. وكلُّ شيء هالكٌ إلّا وجهه سبحانه، فكلُّ عمل باطلٌ إلّا ما أريد به وجهه، وكلّ سعىٰ لغيره باطل ومضمحلّ.

وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا من اضمحلال السعي والعمل والكدِّ والخدمة التي يفعلها العبدُ لِمُتَوَلٍّ أو أميرٍ أو صاحب منصب أو مال، فإذا زال ذلك الذي عمل له وعُدِمَ ضلّ ذلك العمل، وبطل ذلك السعي، ولم يبق في يده سوىٰ الحرمان.

ولهذا يقول الله تعالىٰ يوم القيامة: «**أليس عدلًا منّي أن أُولِّيَ كلَّ رجلٍ منكم ما كان يتولّىٰ في الدنيا**»[1]، فيتولَّىٰ عُبَّاد الأصنام والأوثان أصنامَهم وأوثانَهم، فتتساقط بهم في النار. ويتولّىٰ عابدو الشمس والقمر آلهتهم، فإذا كُوِّرت الشمس وانتثرت النجوم، اضمحلَّت تلك العبادة وبطلت، وصارت حسرةً عليهم ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقةً وأغبَنِهم يوم معاده، فإنه يُحال علىٰ مفلس كلَّ الإفلاس بل علىٰ عدم، والموحِّدُ حوالته علىٰ المليء الكريم، فيا بُعدَ ما بين الحوالتين!

وقوله: «البراءةَ من رؤية المَلَكة». ولم يقل «من الملكة» لأنَّ الإنسان قد يكون فقيرًا لا ملكة له في الظاهر، وهو عريٌّ عن التحقُّق بنعت الفقر الممدوحِ أهلُه الذين لا يرون مَلَكةً إلّا لمالكها الحقّ ذي الملك والملكوت. وقد يكون العبد قد فُوِّض إليه من ذلك شيءٌ وجُعِلَ كالخازن فيه، كما كان سليمان بن داود ﷺ أوتي مُلْكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وكذلك الخليل وشعيب والأغنياءُ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكذلك أغنياءُ الصحابة. فهؤلاءِ لم يكونوا بريئين من الملكة في الظاهر، وهم بريئون من رؤية الملكة لنفوسهم، فلا يرون لها ملكًا حقيقيًا، بل يرون ما في أيديهم لله عاريةً ووديعةً في أيديهم، ابتلاهم به لينظر هل يتصرَّفون فيه تصرُّفَ العبيد أو تصرّفَ الملّاك الذين يعطون لهواهم ويمنعون لهواهم.

---

(١) أخرجه عبد الله في «السنة» (١٢٠٣)، وصححه الحاكم (٢/ ٤٠٨).

فوجود المال في يد الفقير ليس يقدح في فقره، إنّما يقدح في فقره رؤيته لملكته. فمن عوفي من رؤية الملكة لم يتلوَّث باطنُه بأوساخ المال وتعبه وتدبيره واختياره، وكان كالخازن لسيِّده الذي يُنفِّذ أوامرَه في ماله، فهذا لو كان بيده من المال مثل جبال الدنيا لم يضرَّه.

ومن لم يُعافَ من ذلك ادَّعَتْ نفسُه الملكة، فتعلَّقت به النفس تعلُّقَها بالشيء المحبوب المعشوق، فهو أكبر همِّه ومبلغ علمه، إن أعطي رضي، وإن مُنع سخط. فهو عبد الدينار والدرهم، يصبح مهمومًا به، ويمسي كذلك، فيبيت مضاجعًا له. تفرح نفسُه إذا ازداد، وتحزن وتأسف إذا فات منه شيء، بل يكاد يتلف إذا توهَّمَتْ نفسُه الفقر، وقد يؤثر الموت علىٰ الفقر.

والأول مستغنٍ بمولاه المالك الحيّ الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وإذا أصاب المالَ الذي في يده نائبةٌ رأىٰ أنَّ المالك الحقَّ هو الذي أصاب مالَ نفسه، فما للعبد وما للجزع والهلع؟ وإنّما تصرَّفَ مالكُ المال في ملكه الذي هو وديعة في يد مملوكه، فله الحكم في ماله: إن شاءَ أبقاه، وإن شاءَ ذهب به وأفناه، فلا يتّهم مولاه في تصرُّفه في ملكه، ويرىٰ تدبيره هو موجب الحكمة. فليس لقلبه بالمال تعلُّق، ولا له به اكتراث، لصعوده عنه وارتفاع همَّته إلىٰ المالك الحقّ، فهو غنيٌّ به وبحبِّه ومعرفته وقربه منه عن كل ما سواه، وهو فقير إليه دون ما سواه. فهذا هو البريء عن رؤية الملكة الموجبة للطغيان، كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]، ولم يقل: «أن استغنىٰ»، بل جعل الطغيان ناشئًا عن رؤية غنىٰ نفسه.

ولم يذكر هذه الرؤية في سورة الليل بل قال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٨، ٩]. وهذا -والله أعلم- لأنَّه ذكر موجِب طغيانه وهو

رؤية غنىٰ نفسه، وذكر في سورة الليل موجِب هلاكه وعدم تيسيره لليسرىٰ، وهو استغناؤه عن ربّه بترك طاعته وعبوديته، فإنه لو افتقر إليه لتقرَّب إليه بما أمره من طاعته، فعلَ المملوك الذي لا غنىٰ له عن مولاه طرفةَ عين ولا يجد بدًّا من امتثال أوامره. ولذلك ذكر معه بخله، وهو تركُه إعطاءَ ما وجب عليه من الأقوال والأعمال وأداءِ المال، وجَمَع إلىٰ ذلك تكذيبَه بالحسنىٰ، وهي التي وعد بها أهل الإحسان بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

ومن فسَّرها بشهادة أن لا إله إلّا الله فلأنها أصل الإحسان، وبها تنال الحسنىٰ. ومن فسَّرها بالخلَف في الإنفاق فقد هضم المعنىٰ حقَّه، وهو أكبر من ذلك، وإن كان الخلَف جُزءًا من أجزاءِ الحسنىٰ.

والمقصود أنَّ الاستغناءَ عن الله سببُ هلاك العبد وتيسيرِه لكلّ عسرىٰ، ورؤيتُه غنىٰ نفسه سببُ طغيانه، وكلاهما منافٍ للفقر والعبودية.

تفسير الدرجة الأولىٰ من الفقر

قوله: «الدرجة الأولىٰ فقر الزهاد، وهو نفض اليدين من الدنيا ضبطًا أَو طلبًا، وإسكات اللسان عنها ذمًّا أَو مدحًا، والسلامة منها طلبًا أو تركًا، وهذا هو الفقر الذي تكلّموا في شرفه».

فحاصلُ هذه الدرجة فراغُ اليد والقلب من الدنيا، والذهولُ عن الفقرِ منها والزهدِ فيها. وعلامةُ فراغ اليد نفضُ اليدين من الدنيا ضبطًا أَو طلبًا: فهو لا يَضبِطُ يده[1] مع وجودها شحًّا وضنًّا بها، ولا يطلبها مع فقدها سؤالاً وإلحافًا وحرصًا. فهذا الإعراض والنفض دالٌّ علىٰ سقوط منزلتها من القلب، إذ لو كان لها في القلب منزلة لكان الأمر بضدِّ ذلك، وكان يكون حاله الضبطَ مع الوجود لغناه بها، ولكان يطلبها مع فقدها لفقره إليها.

---

(١) أي: لا يُمسك يده عن الإنفاق.

وأيضًا من أقسام الفراغ إسكات اللسان عنها ذمًّا ومدحًا لأن من اهتمَّ بأمر وكان له في قلبه موقعٌ اشتغل اللسان بما فاض علىٰ القلب من أمره مدحًا أو ذمًّا، فإنَّه إن حصلتْ له مدَحَها، وإن فاتته ومُنِعَها ذمَّها. وذمُّها علامةُ موضعِها من القلب، لأنّ الشيء إنّما يُذمُّ علىٰ قدر الاهتمام به، والاعتناءِ بشفاء الغيظ منه بالذم.

وكذلك تعظيم الزهد فيها إنَّما هو علىٰ قدر خطرها[1] في القلب، إذ لولا خطرُها وقدرُها لما صار للزهد فيها خطر. وكذلك مدحُها دليل علىٰ خطرها وموقعها من قلبه، فإنَّ من أحبَّ شيئًا أكثر من ذكرِه.

فصاحب هذه الدرجة لا يضبطها مع وجودها ولا يطلبها مع عدمها، ولا يفيض من قلبه علىٰ لسانه مدح لها يدلُّ علىٰ محبتها، ولا يفيض من القلب علىٰ اللسان ذم يدلُّ علىٰ موقعها وخطرها؛ فإنَّ الشيء إذا صغر أعرض القلب عنه ذمًّا أو مدحًا.

وكذلك صاحب هذه الدرجة فانٍ عن النظرِ إلىٰ تركها، وهو الذي تقدَّم من ذكر خطر الزهد فيها؛ لأنَّ نظرَ العبد إلىٰ كونه تاركًا لها زاهدًا فيها، تتشرف نفسه بالترك وتتلذَّذ به= دليلٌ علىٰ شغله بها، ولو علىٰ وجه الترك؛ وذلك من خطرها وقدرها. ولو صَغُرتْ في القلب لصغر تركُها والزهد فيها، ولو اهتمَّ القلب بمهمٍّ من المهمات المطلوبة التي هي فاقات أهل القلوب والأرواح لذهل عن النظر إلىٰ نفسه بالترك والزهد. فصاحب هذه الدرجة معافىً من هذه الأمراض كلّها: من مرض الضبط، والطلب، والذم، والمدح، والترك. فهي بأسرها -وإن كان بعضُها ممدوحًا في العلم مقصودًا يستحق المتحقق به

(١) أي: علىٰ قدر منزلتها وشرفها.

الثواب والمدح، لكنَّها- آثارٌ وأشكال مشعرة بأنَّ صاحبها لم يذُقْ حال الخلوّ والتجريد الباطن، فضلًا عن أن يتحقق بشيءٍ من الحقائق المتوقعة المتنافس فيها.

فصاحب هذه الدرجة متوسط بين درجتي الداخل بكليته في الدنيا قد ركن إليها، واطمأنَّ إليها، واتخذها وطنًا، وجعلها له سكنًا؛ وبين من نفضها بالكلية من قلبه ولسانه، وتخلَّص من قيودها ورعوناتها وآثارها، وارتقىٰ إلىٰ ما يسبي القلبَ ويُحييه ويُفرحه ويُبهجه من جذَبات العزَّة. فهو في البرزخ كالحامل المُقْرِب، ينتظر ولادة الروح والقلب صباحًا ومساءً، فإنَّ من لم تُولَدْ روحُه وقلبُه، ويخرجْ من مشيمة نفسه، ويتخلّصْ من ظلمات طبعه وهواه وإرادته، فهو كالجنين في بطن أمه الذي لم ير الدنيا وما فيها. فهكذا هذا الذي بعدُ في مَشِيمة النفس، والظلمات الثلاث التي هي: ظلمة النفس، وظلمة الطبع، وظلمة الهوىٰ. فلا بدَّ من الولادة مرَّتين كما قال المسيح للحواريين: «إنَّكم لن تلِجوا ملكوتَ السماء حتىٰ تُولَدوا مرَّتين»[1].

ولذلك كان النبي ﷺ أبًا للمؤمنين كما في قراءة أُبيّ: «النبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم». ولهذا تفرَّع علىٰ هذه الأبوة أن جُعِلت أزواجه أمَّهاتِهم، فإنَّ أرواحهم وقلوبهم وُلِدت به ولادةً أخرىٰ غيرَ ولادة الأُمهات، فإنّه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغيّ إلىٰ نور العلم والإيمان وفضاء المعرفة والتوحيد، فشاهدتْ حقائق أُخر وأمورًا لم يكن لها بها شعور قبله.

قال تعالىٰ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

(١) انظر: «إنجيل يوحنا» (٣: ٣).

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١].

وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

والمقصود أنَّ القلوب في هذه الولادة ثلاثة:

قلبٌ لم يولد ولم يأنِ له، بل هو جنين في بطن الشهوات والغيّ والجهل والضلال.

وقلبٌ قد وُلِد وخرج إلىٰ فضاءِ التوحيد والمعرفة، وتخلّص من مشيمة الطباع وظلمات النفس والهوىٰ، فقرّتْ عينه بالله، وقرَّتْ عيونٌ به وقلوب، وأنِستْ بقربه الأرواح، وذكَّرت رؤيتُه بالله؛ فاطمأنّ بالله، وسكن إليه، وعكف بهمّته عليه، وسافرت هممه وعزائمه إلىٰ الرفيق الأعلىٰ. لا يقَرّ بشيء غير الله، ولا يسكن إلىٰ شيء سواه، ولا يطمئنّ بغيره. يجد من كلّ شيء سوىٰ الله عوضًا، ولا يجد من الله عوضًا أبدًا. فذكرُه حياةُ قلبه، ورضاه نهايةُ مطلبه، ومحبّتُه قوتُه، ومعرفتُه أنيسُه، عدوُّه مَن جَذب قلبَه عن الله «وإن كان القريبَ المصافيا»، ووليُّه من ردَّه إلىٰ الله وجَمَع قلبَه عليه «وإن كان البعيدَ المناويا».

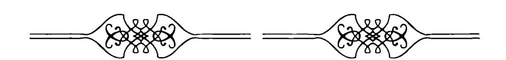
فهذان قلبان متباينان غاية التباين.

وقلبٌ ثالثٌ في البرزخ ينتظر الولادة صباحًا ومساءً، قد أشرف علىٰ فضاءِ التجريد، وآنس من خلال الديار أشعَّةَ التوحيد. تأبىٰ غلَباتُ الحبّ والشوق

إلّا تقرُّبًا إلىٰ مَن السعادةُ كلُّها بقربه، والحظُّ كلُّ الحظ في طاعته وحبّه؛ وتأبىٰ غلباتُ الطباع إلّا جذبَه وإيقافَه وتعويقَه، فهو بين الدّاعيين تارةً وتارةً، قد قطع عقباتٍ وآفات، وبقي عليه مفاوز وفلوات.

والمقصود أنّ صاحب هذا المقام إذا تحقّق به ظاهرًا وباطنًا، وسلِم عن نظر نفسه إلىٰ مقامه واشتغاله به ووقوفه عنده، فهو فقير حقيقي، وليس فيه قادح من القوادح التي تحطّه عن درجة الفقر.

واعلم أنّه يحسن إعمالُ اللسان في ذمّ الدنيا في موضعين: أحدهما: موضع التزهيد فيها للراغب، والثاني: عندما يرجع به داعي الطبع والنفس إلىٰ طلبها، ولا يأمن إجابةَ الداعي، فيستحضر في نفسه قلّة وفائها، وكثرة جفائها، وخِسّة شركائها، فإنّه إن تمَّ عقلُه وحضر رشدُه زهِدَ فيها ولا بدّ.



فصل

١/ ٣١ الدرجة الثانية من الفقر

وقوله: «الدرجة الثانية: الرجوع إلىٰ السبق بمطالعة الفضل. وهو يُورث الخلاصَ من رؤية الأعمال، ويقطع شهودَ الأحوال، ويمحّص من أدناس مطالعات المقامات».

فهذه الدرجة أرفع من الأولىٰ وأعلىٰ، والأولىٰ كالوسيلة إليها؛ لأنَّ في الدرجة الأولىٰ يتخلَّىٰ بفقره عن أن يتألَّه غيرَ مولاه الحق، وأن يضيّع أنفاسَه في غير مرضاته، وأن يفرق همومَه في غير محابّه، وأن يؤثر عليه غيرَه في حالٍ من الأحوال. فيوجبُ له هذا الخلوُّ وهذه المعاملةُ صفاءَ العبودية، وعمارة السرِّ بينه وبين الله، وخلوص الوداد والمحبة. فيصبح ويمسي، ولا همَّ له غير ربه، قد قطع همُّه بربِّه عنه جميعَ الهموم، وعطَّلت إرادته جميع الإرادات، ونسخت محبتُه له من قلبه كل محبةٍ لسواه، كما قيل[1]:

لقد كان يسبي القلبَ في كلِّ ليلة	ثمانون بل تسعون نفسًا وأرجحُ
يهيمُ بهذا ثمَّ يألفُ غيرَه	ويسلوهُمُ من فورِه حينَ يُصْبِحُ
وقد كان قلبي ضائعًا قبل حبِّكم	فكان بحبِّ الخلقِ يلهو ويمرَحُ
فلمَّا دعا قلبي هواكَ أجابه	فلستُ أُراهُ عن جَنابِكَ ينزَحُ
حُرِمْتُ مُنَايَ منكَ إن كنتُ كاذبًا	وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرحُ
وإنْ كان شيءٌ في الوجود سواكمُ	يقِرُّ به القلبُ الجريحُ ويفرحُ

(١) الأبيات لسمنون بن حمزة. انظر: «الزهرة» (٦٢)، و«طبقات الصوفية» (١٩٨)، و«تاريخ بغداد» (٩/ ٢٣٦)، و«صفة الصفوة» (١/ ٤٨٥).

وإنْ لعبتْ أيدي الهوىٰ بمُحِبِّكم   فليس له عن بابكم مُتَزَحْزَحُ
فإنْ أدركتْه غربةٌ عن دياركم   فحبكم بين الحشا ليس يبرَحُ
وكم مشترٍ في الخلق قد سام قلبَه   فلم يره إلا لحبِّك يصلُحُ
هوىٰ غيرِكم نارٌ تلظَّىٰ ومحبِسٌ   وحبُّكم الفردوس أو هو أفسَحُ
فيا ضيمَ قلبٍ قد تعلَّق غيرَكم   ويا رحمتا ممَّا يجولُ ويكدَحُ

والله ﷻ لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه، فبقدر ما يدخل القلبَ من همٍّ وإرادةٍ وحبٍّ، يخرج منه همٌّ وإرادةٌ وحبٌّ يقابله، فهو إناءٌ واحد والأشربة متعددة، فأي شراب ملأه لم يبق فيه موضع لغيره، وإنَّما يمتلئ الإناءُ بأعلىٰ الأشربة إذا صادفه خاليًا، فأمَّا إذا صادفه ممتلئًا من غيره لم يساكنه حتَّىٰ يخرج ما فيه، ثمَّ يسكن موضعه، كما قال[1]:

أتاني هواها قبلَ أنْ أعرفَ الهوىٰ   فصادفَ قلبًا خاليًا فتمكنا

ففقرُ صاحب هذه الدرجة تفريغُه إناءَه من كلِّ شرابٍ مسكرٍ، وكلُّ شرابٍ غير شراب المحبة والمعرفة فمسكرٌ ولا بد، و«**ما أسكر كثيره فقليله حرام**»[2]، وأين سكر الهوىٰ والدنيا من سكر الخمر! وكيف يوضع شرابُ التسنيم الذي هو أعلىٰ أشربة المحبين في إناءٍ ملآن بخمر الدنيا والهوىٰ، لا يفيق من سكره ولا يستفيق! ولو فارق هذا السكرُ القلبَ لطار بأجنحة الشوق إلىٰ الله والدار الآخرة، ولكن رضيَ المسكين بالدون، وباع حظه من قرب الله ومعرفته وكرامته بأخسِّ الثمن صفقةَ خاسرٍ مغبونٍ، فسيعلم أيَّ حظٍّ أضاع إذا فاز المحبون، وخسر المبطلون.

---

(١) قائله قيس بن الملوّح. انظر: «ديوانه» (٢١٩).
(٢) أخرجه النسائي (٨/ ٣٠٠)، وابن ماجه (٣٣٩٤)، وسنده حسن.

١/ ٣٥

فصل

حقيقة الفقر توجه العبد بجميع أحواله إلىٰ الله

وإذا كان التلوُّث بالأَعراض قيدًا يُقيِّد القلوبَ عن سفرها إلىٰ بلد حياتها ونعيمها الذي لا سكن لها غيره، ولا راحة لها إلا فيه، ولا سرور لها إلا في منازله، ولا أمن لها إلا بين أهله، فكذلك الذي قد باشر قلبُه روحَ التأله، وذاق طعمَ المحبة، وآنسَ نارَ المعرفة، له أعراضٌ دقيقة حاليَّة تقيد قلبَه عن مكافحة صريح الحقِّ[1]، وصحة الاضطرار إليه، والفناء التام به، والبقاء الدائم بنوره الذي هو المطلوب من السير والسلوك، وهو الغاية التي شمَّر إليها السالكون، والعلَم الذي أمَّه العابدون، ودندن حوله العارفون. فجميع ما يحجب عنه أو يقيد القلبَ نظرُه وهمُّه= يكون حجابًا يحجب الواصلَ، ويوقف السالك، وينكس الطالب. فالزهد فيه علىٰ أصحاب الهمم العلية متعيِّن تعيُّنَ الواجب المعيَّن الذي لا بدَّ منه، وهو كزهد السالك إلىٰ الحج في الظلال والمياه التي يمر بها في المنازل.

فالأوَّل مقيَّد عن الحقائق برؤية الأعراض، والثاني مقيد عن النهايات برؤية الأحوال، فتقيَّد كلٌّ منهما عن الغاية المطلوبة، وترتَّب علىٰ هذا القيد عدمُ النفوذ، وذلك مؤخِّر مُخلِّف.

وإذا عَرَفَ العبدُ هذا وانكشف له علمُه تعيَّن عليه الزهدُ في الأحوال والفقرُ منها، كما تعيَّن عليه الزهدُ في المال والشرف وخلوُّ قلبه منهما. ولما كان موجَبُ الدرجة الأولىٰ من الفقرِ الرجوعَ إلىٰ الآخرة، فأوجب الاستغراقُ

---

(١) أي: مواجهة صريح الحق واستقباله وتلقِّيه وجهًا بوجه.

في هـمِّ الآخرة نفْضَ اليدين من الدنيا ضبطًا أو طلبًا، وإسكاتَ اللسان عنها مدحًا أو ذمًّا؛ فكذلك كان موجَبُ هذه الدرجة الثانية الرجوعَ إلىٰ فضل الله ﷻ، ومطالعةَ سبقِه الأسباب والوسائط. فبفضل الله ورحمته وُجِدتْ منهم الأحوال الشريفة، والمقامات العلية، وبفضله ورحمته وصلوا إلىٰ رضاه ورحمته وقربه وكرامته وموالاته.

وكان سبحانه هو الأوَّل في ذلك كلِّه، كما أنَّهُ الأوَّل في كلِّ شيء؛ وكان هو الآخر في ذلك، كما هو الآخر في كلِّ شيء. فمن عبده باسمه «الأوَّل الآخر» حصل له حقيقة هذا الفقر، فإن انضاف إلىٰ ذلك عبوديته باسمه «الظاهر الباطن» فهذا هو العارف الجامع لمتفرقات التعبد ظاهرًا وباطنًا.

فعبوديته باسمه «الأوَّل» تقتضي التجردَ من مطالعة الأسباب والوقوف عندها والالتفات إليها، وتجريدَ النظرِ إلىٰ مجرد سبق فضله ورحمته، وأنَّه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ لا وسيلةَ له في العدم قبل وجوده، وأيُّ وسيلة كانت هناك؟! وإنَّما هو عدم محض، وقد أتىٰ عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا. فمنه الإعداد، ومنه الإمداد، وفضله سابق علىٰ الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجوده لم تكن بوسائل أخرىٰ، فمن نزَّل اسمه «الأوَّل» علىٰ هذا المعنىٰ أوجبَ له ذلك فقرًا خاصًّا وعبودية خاصَّة.

وعبوديته باسمه «الآخر» تقتضي أيضًا عدمَ ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنَّها تُعدَم لا محالة، وتنقضي بالآخِرية، ويبقىٰ الدائم الباقي بعدها. فالتعلق بها تعلُّقٌ بما يُعدَم وينقضي، والتعلق بالآخِر سبحانه تعلقٌ بالحي الذي لا يموتُ ولا يزول، فالتعلُّق به حقيق أن لا يزول ولا ينقطع،

بخلاف التعلّق بغيره مما له آخِرٌ يفنىٰ به. كذا نظرُ العارفِ إليه بسَبْقِ الأوليَّة حيث كان قبل الأسباب كلِّها، فكذلك نظرُه إليه ببقاءِ الآخريَّة حيث يبقىٰ بعد الأسباب كلها. فكان اللهُ ولم يكن شيءٌ غيره، وكلّ شيءٍ هالك إلّا وجهه.

فتأمَّلْ عبوديَّةَ هذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار إلىٰ الله وحده ودوام الفقر إليه دون كلّ شيءٍ سواه، وأن الأمر ابتدأ منه وإليه يرجع، فهو المبتدئ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة، وإليه ينتهي الأمر حيث تنتهي الأسباب والوسائل، فهو أول كل شيءٍ وآخره. وكما أنَّه ربُّ كل شيءٍ وفاعله وخالقه وبارئه، فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلّا بأن يكون هو غايته وحده. كما أنَّه لا وجود له إلّا بكونه وحده هو ربّه وخالقه، وكذلك لا كمال له ولا صلاح إلّا بكونه تعالىٰ وحده هو غايته وحده ونهاية مقصوده.

فهو الأول الذي ابتدأَتْ منه المخلوقات، والآخر الذي انتهَتْ إليه عبوديتُها وإرادتُها ومحبتُها، فليس وراءَ الله شيءٌ يُقصَد ويُعبَد ويُتألّه، كما أنه ليس قبلَه شيءٌ يَخلُق ويَبرأ، فكما كان واحدًا في إيجادك، فاجعله واحدًا في تألُّهك وعبوديتك. وكما ابتدأ وجودَك وخلقَك منه فاجعَلْ نهايةَ حبك وإرادتك وتألّهك إليه لتصحَّ لك عبوديتُه باسمه الأول والآخر. وأكثر الخلق تعبَّدُوا له باسمه «الأول»، وإنَّما الشأن في التعبد له باسمه «الآخر»، فهذه عبودية الرسل وأتباعهم، فهو ربُّ العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده.

وأما عبوديته باسمه «الظاهر» فكما فسَّره النبي ﷺ بقوله: «**وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[(١)]. فإذا تحقق العبدُ علوَّه

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

المطلق علىٰ كلِّ شيءٍ بذاته، وأنَّه ليس شيءٌ فوقه البتة، وأنَّه قاهرٌ فوقَ عباده، يُدبّر الأمرَ من السماءِ إلىٰ الأرض ثم يعرج إليه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، صار لقلبه أَمَمًا يقصده، وربًّا يعبده، وإلهًا يتوجَّه إليه؛ بخلاف من لا يدري أين ربه، فإنَّه ضائع مشتَّت القلب، ليس لقلبه قِبلةٌ يتوجه نحوها، ولا معبودَ يتوجه إليه قصده.

والمقصود أنَّ التعبد باسم «الظاهر» يجمع القلبَ علىٰ المعبود، ويجعل له ربًّا يقصده، وصمدًا يصمُد إليه في حوائجه، وملجأً يلجأ إليه. فإذا استقرَّ ذلك في قلبه، وعرف ربه باسمه «الظاهر» استقامت له عبوديته، وصار له معقل وموئل يلجأ إليه، ويهرب إليه، ويفرُّ كل وقتٍ إليه.

وأمَّا تعبده باسمه «الباطن» فأمرٌ يضيق نطاقُ التعبير عن حقيقته، ويكِلّ اللسانُ عن وصفه، وتصطلم الإشارةُ إليه، وتجفو العبارة عنه؛ فإنَّه يستلزمُ معرفةً بريئةً من شوائب التعطيل، مُخلَصةً من فرْث التشبيه، منزَّهةً عن رجس الحلول والاتحاد؛ وعبارةً مؤدية للمعنىٰ كاشفةً عنه، وذوقًا صحيحًا، سليمًا من أذواق أهل الانحراف. فمن رُزِقَ هذا فهِمَ معنىٰ اسمه «الباطن»، وصحَّ له التعبد به.

وسبحان الله كم زلَّت في هذا المقام أقدام، وضلَّت فيه أفهام! وتكلَّم فيه الزنديق بلسان الصدِّيق، فاشتبه فيه إخوان النصارىٰ بالحنفاء المخلصين، لِنُبُوِّ الأفهام عنه، وعزَّةِ تخلّص الحقِّ من الباطل فيه، والتباس ما في الذهن بما في الخارج إلا علىٰ من رزقه الله بصيرةً في الحقِّ، ونورًا يميِّز به بين الهدىٰ والضلال، وفرقانًا يفرِّق به بين الحقِّ والباطل، ورُزِقَ مع ذلك اطلاعًا علىٰ

أسباب الخطأ، وتفرُّق الطرق، ومثار الغلط؛ فكان له بصيرة في الحقِّ والباطل. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفةُ إحاطة الرب تبارك وتعالىٰ بالعالم وعظمته، وأنَّ العوالم كلها في قبضته، وأنَّ السماوات السبع والأرضين السبع في يده كخردلةٍ في يد العبد، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ﴾ [البروج: ٢٠].

ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالّين علىٰ هذين المعنيين: اسم العلوِّ الدالِّ علىٰ أنَّهُ الظاهر وأنَّهُ لا شيء فوقه، واسم العظمة الدالّ علىٰ الإحاطة وأنَّهُ لا شيء دونه، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] [الشورىٰ: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥].

وهو تبارك وتعالىٰ كما أنَّه العالي علىٰ خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء، بل ظهَرَ علىٰ كلِّ شيء وكان فوقه، وبطَنَ فكان أقربَ إلىٰ كلِّ شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكل شيء في قبضته، وليس في قبضة نفسه، فهذا **قرب الإحاطة العامة**.

وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقربٌ خاصٌّ من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه «الباطن». قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فهذا قربه من داعيه.

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]،

فذكَّر الخبر -وهو «قريب»- عن لفظ «الرحمة» وهي مؤنثة إيذانًا بقربه تعالىٰ من المحسن، فكأنَّهُ قال: إنَّ الله برحمته قريبٌ من المحسنين.

وفي «الصحيح»[1] عن النبي ﷺ قال: **«أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد»**، و**«أقربُ ما يكون الربُّ من عبده في جوف الليل»**[2]، فهذا قربٌ خاصٌّ غير قرب الإحاطة وقرب البطون.

وفي «الصحيح»[3] من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه أنَّهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر، فارتفعت أصواتُهم بالتكبير فقال: **«أيها النَّاس ارْبَعُوا علىٰ أنفسكم، فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنَّ الذي تدعونه سميعٌ قريبٌ، أقرب إلىٰ أحدكم من عُنُق راحلته»**، فهذا قُربه من داعيه وذاكره، يعني: فأيُّ حاجةٍ بكم إلىٰ رفع الأصوات، وهو لقربه يسمعها وإن خفضت، كما يسمعها إذا رُفِعت، فإنَّه سميع قريب.

وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلَّما كان الحبُّ أعظمَ كان القربُ أكثر. وقد يستولي محبة المحبوب علىٰ قلب محبه بحيث يفنىٰ بها عن غيره، ويغلب محبوبه علىٰ قلبه حتَّىٰ كأنَّهُ يراه ويشاهده. فإنْ لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له ويستحيل عليه، وإلا طرق بابَ الحلول إن لم يلِجْه، وسببُه ضعفُ تمييزه، وقوةُ سلطان المحبة، واستيلاءُ المحبوب علىٰ قلبه بحيث يغيب عن ملاحظة سواه. وفي مثل هذه الحال يقول: «سبحاني»، أو

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢).
(٢) أخرجه النسائي (٥٧٢)، والترمذي (٣٥٧٩)، وصححه الترمذي، وابن خزيمة (١١٤٧)، والحاكم (١١٦٢).
(٣) أخرجه البخاري (٢٩٩٢).

«ما في الجبة إلا الله»، ونحو هذا من الشَّطحات التي نهايتها أن تُغفرَ له ويُعذر لسكره وعدم تمييزه في تلك الحال.

فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفو الوداد، وأن يكون الإله سبحانه أقربَ إليه من كلِّ شيء وأقربَ إليه من نفسه، مع كونه ظاهرًا ليس فوقه شيء.

ومن كثُفَ ذهنُه وغلُظ طبعُه عن فهمِ هذا فليضرِبْ عنه صفحًا إلىٰ ما هو أولىٰ به، فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوِزْه إلىٰ ما تستطيع(١)

فمن لم يكن له ذوقٌ مِن قرب المحبة، ومعرفةٌ بقرب المحبوب من مُحبِّه غايةَ القرب وإنْ كان بينهما غايةُ المسافة، ولا سيما إذا كانت المحبة من الطرفين، وهي محبة بريئة من العلل والشوائب والأَعراض القادحة فيها؛ فإنَّ المحبَّ كثيرًا ما يستولي محبوبُه علىٰ قلبه وذكره، ويفنىٰ عن غيره، ويرِقّ قلبه وتتجرَّد نفسه، فيشاهد محبوبَه كالحاضر معه القريب إليه، وبينهما من البعد ما بينهما. وفي هذه الحال يكون في قلبه وجودُه العلمي، وفي لسانه وجودُه اللفظي، فيستولي هذا الشهودُ عليه ويغيبُ به، فيظن أنَّ في عينه وجودَه الخارجي، لغلبة حكم القلب والروح، كما قيل:

خيالُك في عيني، وذكرُكَ في فمي ومثواكَ في قلبي، فأين تغيب!(٢)

هذا، ويكون ذلك المحبوب بعينه بينه وبين عدوه من البعد وما

---

(١) قائله عمرو بن معدِيكَرِب كما في «مجموع شعره» (١٤٥).

(٢) قائله الحكم ابن غَلِندو الإشبيلي الطبيب الشاعر. انظر: «معجم الأدباء» (١١٩٤).

بينهما، وإن قربت الأبدانُ وتلاصقت الديارُ. والمقصودُ أنَّ المثال العلمي غير الحقيقة الخارجية وإن كان مطابقًا لها، لكنَّ المثال العلميَّ محلُّه القلبُ والحقيقة الخارجيَّة محلُّها الخارج.

فمعرفة هذه الأسماء الأربعة -وهي: الأوَّل، والآخر، والظاهر، والباطن- هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلىٰ حيث ينتهي به قواه وفهمُه.

واعلم أنَّ لك أنت أوَّلًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، بل كلُّ شيء فله أوَّل وآخر وظاهر وباطن، حتَّىٰ الخطرة واللحظة والنفس، وأدنىٰ من ذلك وأكبر. فأوَّلية الله ﷻ سابقةٌ علىٰ أولية كلِّ ما سواه، وآخريته ثابتةٌ بعد آخريةِ كلِّ ما سواه. فأوليته سبقُه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كلِّ شيء. وظاهريتُه سبحانه فوقيته وعلوُّه علىٰ كلِّ شيء، ومعنىٰ الظهور يقتضىٰ العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه. وبطونُه سبحانه إحاطته بكلِّ شيء، وبحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قربٌ غيرُ قربِ المحب من حبيبه. هذا لون، وهذا لون.

فمدار هذه الأسماء الأربعة علىٰ الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية ومكانية، فأحاطت أوليتُه وآخريتُه بالقبل والبعد، فكلُّ سابقٍ انتهىٰ إلىٰ أوليته، وكلُّ آخِرٍ انتهىٰ إلىٰ آخريته؛ فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر. وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكلِّ ظاهر وباطن، فما مِن ظاهر إلا اللهُ فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما مِن أوَّلَ إلا والله قبله، وما من آخرٍ إلا والله بعده: فالأوَّل قِدَمه، والآخِر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه.

فسبق كلَّ شيء بأوليته، وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا علىٰ كلِّ شيء

بظهوره، ودنا من كلِّ شيء ببطونه. فلا تواري منه سماءٌ سماءً، ولا أرضٌ أرضًا، ولا يحجب عنه ظاهرٌ باطنًا، بل الباطنُ له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسرُّ عنده علانية.

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل علىٰ أركان التوحيد، فهو الأوَّل في آخريته والآخِر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أوَّلًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

والتعبد بهذه الأسماء له رتبتان:

الرتبة الأولىٰ: أن يَشهدَ الأوليةَ منه تعالىٰ في كل شيء، والآخريةَ بعد كل شيء، والعلوَّ والفوقية فوق كل شيء، والقربَ والدنوَّ دون كل شيء. فالمخلوق يحجبه مثلُه عمَّا هو دونه، فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب؛ والربُّ جلَّ جلاله ليس دونه شيء أقرب إلىٰ الخلق منه.

والمرتبة الثانية من التعبد: أن يعامل كلَّ اسم بمقتضاه، فيعامل سبقه تعالىٰ بأوليته لكل شيء، وسَبْقَه بفضله وإحسانه الأسبابَ كلَّها، بما يقتضيه ذلك من إفراده، وعدم الالتفات إلىٰ غيره، والوثوق بسواه والتوكل علىٰ غيره. فمن ذا الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئًا مذكورًا حتَّىٰ سمَّاك باسم الإسلام، ووسمك بسمة الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين، وأقطعك في ذلك الغيب عِمالاتِ[1] المؤمنين، فعصمك عن العبادة للعبيد، وأعتقك عن التزام الرق لمن له شكل ونديد؟ ثمَّ وجَّه وِجهةَ قلبِك إليه تبارك وتعالىٰ دون ما سواه.

---

(١) العِمالة: أجرة العامل، والإمارة والولاية.

فاضرَعْ إلىٰ الذي عصمك من السجود للصنم، وقضىٰ لك بقدم الصدق في القِدَم، أن يُتِمَّ عليك نعمةً هو ابتدأها، وكانت أوليتُها منه بلا سبب منك. واسْمُ بِهِمَّتك عن ملاحظة الأغيار، ولا تركَنْ إلىٰ الرسوم والآثار، ولا تقنع بالخسيس الدون. وعليك بالمطالب العالية والمراتب السامية التي لا تنال إلا بطاعة الله. فإنَّ الله ﷻ قضىٰ أن لا ينالَ ما عنده إلا بطاعته. ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمن أقبل إليه تلقَّاه من بعيد، ومن تصرّف بحوله وقوَّته ألان له الحديد، ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد مراده الديني أراد ما يريد.

ثمَّ اسمُ بسرِّك إلىٰ المطلب الأعلىٰ، واقصُرْ حبَّك وتقرُّبك علىٰ من سبق فضلُه وإحسانُه إليك كلَّ سبب منك، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب، وهيَّأها لك، وصرف عنك موانعها، وأوصلك بها إلىٰ غايتك المحمودة. فتوكَّلْ عليه وحدَه، وعامِلْه وحده، وآثِرْ مرضاتَه وحده. وأجعل حُبَّه ومرضاته هو كعبةَ قلبِك التي لا تزال طائفًا بها، مستلمًا لأركانها، واقفًا بملتزمها. فيا فوزَك ويا سعادتك إن اطَّلع سبحانه علىٰ ذلك من قلبك، ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه وخِلَع أفضاله! «اللهم لا مانعَ لما أعطيتَ ولا معطي لما منعتَ، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»[(١)]، سبحانَك وبحمدِك.

ثم تعبَّدْ له باسمه «الآخر» بأن تجعله وحده غايتك التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءَه. فكما انتهَتْ إليه الأواخر، وكان بعدَ كل آخِر، فكذلك اجعَلْ نهايتَك إليه، فإنَّ إلىٰ ربِّك المنتهىٰ، إليه انتهت الأسبابُ والغايات،

(١) جزء من ذكر النبي ﷺ بعد الركوع، كما في حديث أبي سعيد، وابن عباس عند مسلم (٤٧٧، ٤٧٨). وهو أيضًا جزء من ذكره ﷺ عقب الصلاة كما في حديث المغيرة عند البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

فليس وراءه مرمًىٰ يُنتهىٰ إليه. وقد تقدم التنبيه علىٰ ذلك وعلىٰ التعبد باسمه «الظاهر».

وأمَّا التعبد باسمه «الباطن»، فإذا شهدتَ إحاطته بالعوالم، وقربَ البعيد منه، وظهورَ البواطن له، وبُدُوَّ السرائر له، وأنَّه لا شيء بينه وبينها، فعامِلْه بمقتضىٰ هذا الشهود، وطهِّر له سريرتَك، فإنَّها عنده علانية؛ وأصلِحْ له غيبَك، فإنَّه عنده شهادة؛ وزكِّ له باطنك، فإنَّه عنده ظاهر.

فانظر كيف كانت هذه الأسماء الأربعةُ جِماعَ المعرفة بالله، وجِماع العبودية له. فهنا وقفَتْ شهادةُ العبدِ مع فضل خالقه ومنَّته، فلا يرىٰ لغيره شيئًا إلا به وبحوله وقوَّته، وغاب بفضل مولاه الحق عن جميع ما منه هو، ممَّا كان يستند إليه، أو يتحلَّىٰ به، أو يتخذه عُقدةً،[1] أو يراه ليوم فاقته، أو يعتمد عليه في مهمَّة من مهمَّاته. فكلُّ ذلك من قصورِ نظرِه وانعكاسِه عن الحقائق والأصول إلىٰ الأسباب والفروع، كما هو شأن الطبيعة والهوىٰ، وموجَب الظلم والجهل، والإنسان ظلومٌ جهول.

فمن جلَّىٰ اللهُ سبحانه صدأ بصيرتِه، وكمَّل فطرته، وأوقفه علىٰ مبادئ الأمور وغاياتها ومناطها ومصادرها ومواردها، أصبح كالمفلس حقًّا من علومه وأعماله وأحواله وأذواقه. يقول: أستغفر الله من علمي ومن عملي، أي: من انتسابي إليهما وغيبتي بهما عن فضل من ذكَرني بهما، وابتدأني بإعطائهما، من غير تقدُّم سببٍ منِّي يُوجبُ ذلك. فهو لا يشهد غيرَ فضل مولاه وسبقِ مِنَّته ودوامها، فيثيبه مولاه علىٰ هذه الشهادة العالية بحقيقة الفقر الأوسط بين

(١) العقدة هي المال الذي يقتنيه المرء.

الفقرين الأدنىٰ والأعلىٰ ثوابَين:

أحدهما: الخلاصُ من رؤية الأعمال حيث كان يراها، ويمتدح بها، ويستكثرها؛ فيستغرق بمطالعة الفضل غائبًا عنها، ذاهبًا عنها، فانيًا عن رؤيتها.

الثواب الثاني: أن يقطعه عن شهود الأحوال، أي: عن شهود نفسه فيها متكثرةً بها؛ فإنَّ الحالَ محلُّه الصدر، والصدر بيت القلب والنفس، فإذا نزل العطاءُ في الصدر للقلب وَثَبَتْ النفسُ لتأخذَ نصيبها من العطاء، فتتمدح به، وتُدِلُّ به، وتزهو، وتستطيل، وتقرِّر إنِّيَّتها[1]، لأنَّها جاهلة ظالمة، وهذا مقتضىٰ الجهل والظلم. فإذا وصلَ إلىٰ القلبِ نورُ صفة المِنَّة، وشهد معنىٰ اسمه «المنَّان»، وتجلَّىٰ سبحانه علىٰ قلب عبده بهذا الاسم مع اسمه «الأوَّل»، ذَهَلَ القلبُ والنفسُ به، وصار العبدُ فقيرًا إلىٰ مولاه بمطالعة سبق فضله الأوَّل، فصارَ مقطوعًا عن شهود أمرٍ أو حالٍ ينسبه إلىٰ نفسه، بحيث يكون بشهادته لحاله مفصومًا مقطوعًا عن رؤية عزةِ مولاه وفاطِره وملاحظة صفاته. فصاحب شهود الأحوال منقطع عن رؤية منَّة خالقِه وفضلِه، ومشاهدةِ سبق الأولية للأسباب كلها؛ وغائبٌ بمشاهدة عزَّة نفسه عن عزَّة مولاه. فينعكس هذا الأمر في حقِّ هذا العبد الفقير، وتَشْغَلُه رؤيةُ عزَّةِ مولاه ومنّته ومشاهدةُ سبقِه بالأولية عن حالٍ يعتزُّ بها العبد أو يشرُف بها.

وكذلك الرجوعُ إلىٰ السبق بمطالعة الفضل يمحِّصُ من أدناس مطالعات المقامات، فـ«المقام» ما كان راسخًا فيه، و«الحال» ما كان عارضًا لا يدوم. فمطالعاتُ المقامات، وتشرُّفُه بها، وكونُه يرىٰ نفسَه صاحبَ مقام قد حقَّقه وكمَّله، فاستحقَّ أن ينسب إليه، ويوصف به، مثل أن يقال: زاهدٌ صابرٌ خائفٌ

(١) إنِّيَّة الشيء: ثبوت كونه ووجوده.

راجٍ محبٌّ راضٍ؛ فكونُه يرىٰ نفسَه مستحقًّا بأن تضاف المقاماتُ إليه وبأن يوصَف بها علىٰ وجه الاستحقاق لها= خروجٌ عن الفقر إلىٰ الغنىٰ، وتعدٍّ لطور العبودية، وجَهلٌ بحقِّ الربوبية.

فالرجوع إلىٰ السبق بمطالعة الفضل يستغرقُ همةَ العبد، ويمحِّصُه، ويُطهِّره من مثل هذه الأدناس، فيصير مصفًّىٰ بنور الله عن رذائل هذه الأرجاس.

الدرجة الثالثة من درجات الفقر

قوله: «والدرجة الثالثة صحةُ الاضطرار، والوقوعُ في يدِ التقطع الوحداني، والاحتباسُ في قيد التجريد، وهذا فقر الصوفية».

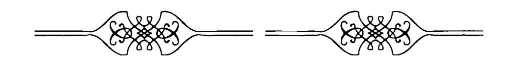
هذه الدرجة فوق الدرجتين السابقتين عند أرباب السلوك، وهي الغاية التي شمَّروا إليها وحاموا حولها. فإنَّ الفقر الأوَّل فقرٌ عن الأعراض الدنياوية، والفقر الثاني فقرٌ عن رؤية المقامات والأحوال، وهذا الفقر الثالث فقرٌ عن ملاحظة الوجود الساتر للعبد عن مشاهدة الموجود، فيبقىٰ الوجودُ الحادثُ في قبضة الحق ﷻ كالهباء المنثور في الهواءِ، يتقلَّب بتقليبه إيَّاهُ، ويصير في شاهد العبد كما هو في الخارج. فتمحو رؤيةُ التوحيد عن العبد شواهدَ استبدادِه واستقلاله بأمر من الأمور، ولو في النفس واللمحة والطرفة والهمة والخاطر والوسوسة، إلا بإرادة المريد الحق سبحانه وتدبيره وتقديره ومشيئته. فيبقىٰ العبد كالكُرة الملقاة بين صَولَجَانات القضاء والقدر[1]، تُقلِّبها كيف شاءَت، بصحةِ شهادة قيومية من له الخلقُ والأمرُ، وتفرّدِه بذلك دون ما سواه.

وهذا الأمر لا يُدْرَك بمجرَّد العلمِ، ولا يعرفه إلا من تحقَّق به، أو لاح له منه بارِق. وربما ذَهَل صاحبُ هذا المشهد عن الشعور بوجوده لِغلبة شهود وجود القيوم عليه، فهناك يصحُّ من مثل هذا العبد الاضطرارُ إلىٰ الحيِّ القيوم،

(١) الصولجان: العصا المعقفة التي تُضرب بها الكرة.

ويشـهد في كلِّ ذرَّة مـن ذراتـه الظاهـرة والباطنـة فقـرًا تامًّـا إليـه، من جهة كونـه ربًّا، ومن جهـة كونـه إلهًـا معبـودًا لا غنىٰ لـه عنه، كما لا وجـود لـه بغيره. فهـذا هـو الفقـر الأعلىٰ الـذي دارت عليه رحىٰ القـوم، بل هـو قطب تلك الرحىٰ.

وإنَّما يصحُّ لـه هـذا بمعرفتين لا بد منهما: معرفة حقيقـة الربوبيـة والإلهية، ومعرفة حقيقـة النفس والعبودية، فهنالـك تتم لـه معرفـة هـذا الفقر. فإن أعطىٰ هاتين المعرفتين حقَّهما من العبودية اتَّصف بهذا الفقر حالًا، فما أغناهُ حينئذٍ من فقير! وما أعزَّه من ذليل! وما أقواهُ من ضعيف! وما آنسه من وحيد! فهو الغنيُّ بلا مال، القوي بلا سلطان، العزيز بلا عشيرة، المكفيُّ بلا عتاد! قد قرَّت عينه بالله، فقرَّت به كلُّ عين؛ واستغنىٰ بالله، فافتقر إليه الأغنياء والملوك.



١/ ٦٥

فصل

انقسام الغنىٰ إلىٰ عال وسافل

ولمَّـا كان الفقرُ إلىٰ الله ﷻ هـو عيـنَ الغنـىٰ بـه، فأفقرُ النَّاسِ إلىٰ الله أغناهم بـه، وأذلُّهـم لـه أعزُّهـم، وأضعفهم بين يديه أقواهم، وأجهلُهم عند نفسه أعلمُهم بـالله، وأمقتهـم لنفسه أقربُهـم إلىٰ مرضـاة الله= كان ذكـرُ الغنىٰ بالله مـع الفقر إليه متلازمَيـن متناسبَين، فنذكـر فصلًا نافعًـا في الغنىٰ العالي.

واعلـم أنَّ الغنـىٰ علىٰ الحقيقـة لا يكـون إلا لله الغني بذاته عن كلِّ ما سـواه، وكلُّ ما سـواه فموسـومٌ بسِـمَةِ الفقرِ، كما هو موسـوم بسـمة الخلق والصنع. فكما أنَّ كونـه مخلوقًـا أمرٌ ذاتيٌ لـه، فكونـه فقيرًا أمرٌ ذاتيٌ له، كمـا تقدم بيانـه. وغناهُ أمرٌ نسبيٌّ إضـافيٌّ عـارض لـه، فإنَّه إنَّما استغنىٰ بأمر خـارج عن ذاته، فهو غني به فقير إليـه. ولا يُوصَـف بالغنىٰ علىٰ الإطلاق إلا مَن غنـاهُ مـن لـوازم ذاتـه، فهـو الغني بذاتـه عمَّا سـواه، وهو الأحـد الصمد الغني الحميد.

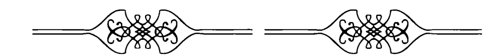
والغنـىٰ قسـمان: غنـىٰ سـافل، وغنـىٰ عـال، فالغنىٰ السـافل: الغنـىٰ بالعواريِّ المستـرَدَّة مـن النسـاء والبنيـن والقناطيـر المقنطـرة مـن الذهـب والفضـة والخيـل المسـوَّمة والأنعـام والحـرث، وهـذا أضعـف الغنـىٰ، فإنَّـه غنًىٰ بظـلٍّ زائـلٍ وعاريَّةٍ ترجـع عـن قريـب إلىٰ أربابها، فإذا الفقـرُ بأجمعه بعـد ذهابهـا، وكأنَّ الغنىٰ بها كان حُلْمًـا فانقضـىٰ. ولا همَّـةَ أضعـفُ مـن همَّـةِ مـن رضـي بهـذا الغنـىٰ الـذي هـو ظلٌّ زائلٌ.

وهـذا غنـىٰ أربـاب الدنيـا الـذي فيـه يتنافسـون، وإيَّـاه يطلبـون، وحولـه يحومـون، ولا أحـبَّ إلىٰ الشيطان وأبعـدَ عن الرحمن مـن قلـبٍ مـلآنَ بحبِّ هذا

الغنىٰ والخوف من فقده.

قال بعض السلف: إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيءٍ كفرحهم بثلاثة أشياء: مؤمن قتل مؤمنًا، ورجل يموت علىٰ الكفر، وقلب فيه خوف الفقر.

وهذا الغنىٰ محفوفٌ بفقرَين: فقرٍ قبله، وفقرٍ بعده، وهو كالغفوة بينهما، فحقيق بمن نصح نفسه أن لا يغترَّ به ولا يجعله نهايةَ مطلبه، بل إذا حصلَ له جعله سببًا لغناهُ الأكبر وسيلةً إليه، ويجعله خادمًا من خدمه لا مخدومًا له، وتكون نفسه أعزَّ عليه من أن يعبِّدها لغير مولاه الحق، أو يجعلها خادمةً لغيره.



فصل

١/ ٦٦

الغنىٰ العالي

وأمَّا الغنىٰ العالي فقال شيخ الإسلام[١]:

«هو علىٰ ثلاث درجات: الدرجة الأولىٰ: غنىٰ القلب، وهو سلامته من السبب، ومسالمتُه للحكم، وخلاصُه من الخصومة. والدرجة الثانية: غنىٰ النفس، وهو استقامتها علىٰ المرغوب، وسلامتُها من المسخوط، وبراءتها من المُراياة. والدرجة الثالثة: الغنىٰ بالحقِّ، وهو ثلاث مراتب: الأولىٰ: شهود ذكره إيَّاك، والثانية: دوام مطالعة أوليته، والثالثة: الفوز بوجوده».

قلتُ: ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**ليس الغنىٰ عن كثرة العَرَض، ولكن الغنىٰ غنىٰ النفس**»[٢]. ومتىٰ استغنت النفس استغنىٰ القلب. ولكن الشيخ قسَّم الغنىٰ إلىٰ هذه الدرجات بحسب متعلَّقة فقال: «غنىٰ القلب سلامته من السبب، ومسالمته للحكم، وخلاصه من الخصومة». ومعلومٌ أنَّ هذا شرط في الغنىٰ، لا أنَّهُ نفس الغنىٰ، بل وجود المنازعة والمخاصمة وعدم المسالمة مانع من الغنىٰ. فهذه السلامة والمسالمة دليل علىٰ غنىٰ القلب، لا أنَّ غناه بها نفسِها، وإنَّما غنىٰ القلب بالدرجة الثالثة فقط، كما سيأتي بيانه إن شاء الله. فإنَّ الغنيَّ إنَّما يصير غنيًّا بحصول ما يسدُّ فاقته ويدفع حاجته. وفي القلبِ فاقة عظيمة وضرورة تامة وحاجة شديدة لا يسدُّها إلا فوزُه بحصول الغني الحميد الذي إن حصل للعبد حصل له كلُّ شيء، وإن فاته فاته كلُّ شيء. فكما أنَّه سبحانه الغنيُّ علىٰ الحقيقة

(١) المراد به أبو إسماعيل الهروي، وكلامه في «منازل السائرين» (٥٧).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

ولا غنيَّ سواه، فالغنىٰ به هو الغنىٰ في الحقيقة ولا غِنىٰ بغيره البتة. فمن لم يستغنِ به عمَّا سواه تقطَّعت نفسُه علىٰ السوىٰ حسراتٍ، ومن استغنىٰ به زالت عنه كلُّ حسرة، وحضره كلُّ سرور وفرح، والله المستعان.

وإنَّما قدَّم الشيخُ الكلامَ علىٰ «غنىٰ القلب» علىٰ الكلام علىٰ «غنىٰ النفس»؛ لأنَّ كمال صلاح النفس، وغناها بالاستقامة من جميع الوجوه، وبلوغَها إلىٰ درجة الطمأنينة لا يكون إلا بعد صلاح القلب؛ وإصلاحُ النفس متقدمٌ علىٰ إصلاح القلب. هكذا قيل! وفيه ما فيه، لأنَّ صلاحَ كلٍّ واحد منهما مقارنٌ لصلاح الآخر، ولكن لمَّا كان القلب هو الملِك وكان صلاحه صلاحَ جميع رعيته كان أولىٰ بالتقديم.

وقد قال النبي ﷺ: «**إنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلَحَتْ صلَحَ لها سائر الجسد، وإذا فسدَتْ فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب**»[1].

والقلبُ إذا استغنىٰ بما فاض عليه من مواهب ربِّه وعطاياه السنية خلَعَ علىٰ الأمراءِ والرعية خِلَعًا تناسبها: فخلعَ علىٰ النفس خِلَع الطمأنينة والسكينة والرضا والإخبات، فأدَّت الحقوقَ سماحةً لا كظمًا بل بانشراحٍ ورضًا ومبادرة. وذلك لأنَّها جانسَتْ القلبَ حينئذٍ، ووافقَتْه في أكثر أموره، واتَّحد مرادهما غالبًا، فصارت له وزير صدق، بعد أن كانت عدوًّا مبارزًا بالعداوة. فلا تسأل عمَّا أحدثت هذه المؤازرة والموافقة من طمأنينة ولذَّة عيش ونعيم هو رقيقة[2] من نعيم أهل الجنَّة! هذا، ولم تضع الحرب أوزارها فيما بينهما، بل عُدَّتها وسلاحها كامِنٌ متوارٍ، لولا قوةُ سلطان القلب وقهرُه لحاربت بكلِّ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٢) أي: جزء يسير جدًّا.

سلاح؛ فالمرابطة علىٰ ثغري الظاهر والباطن فرضٌ معيَّن مدَّة أنفاس الحياة:

وتنقضي الحربُ، محمودٌ عواقبُها للصابرين، وحظُّ الهاربِ الندمُ

وخَلَعَ علىٰ الجوارح خِلَع الخشوع والوقار، وعلىٰ الوجه خلعةَ المهابة والنور والبهاء، وعلىٰ اللسان خلعةَ الصدق والقول السديد الثابت والحكمة النافعة، وعلىٰ العين خلعةَ الاعتبار في النظر والغضّ عن المحارم، وعلىٰ الأذن خلعةَ استماع النصيحة واستماع القول النافع استماعُه للعبد في معاشه ومعاده، وعلىٰ اليدين والرجلين خلعةَ البطش في الطاعات أين كانت بقوَّة وأيدٍ، وعلىٰ الفرج خلعةَ العفَّة والحفظ؛ فغدا العبدُ وراح يرفُلُ في هذه الخِلَع، ويجرُّ لها في النَّاس أذيالًا وأردانًا.

فغنىٰ النفس مشتقٌّ من غنىٰ القلب وفرعٌ عليه، فإذا استغنىٰ سرىٰ الغنىٰ منه إلىٰ النفس. وغنىٰ القلب ما يناسبه مِن تحقُّقه بالعبودية المحضة التي هي أعظم خلعة تُخلع عليه، فيستغني حينئذٍ بما توجبه هذه العبودية له من المعرفة الخاصة والمحبة الناصحة الخالصة، وبما يحصل له من آثار الصفات المقدسة وما تقتضيه من الأحكام والعبوديات المتعلقة بكلِّ صفةٍ صفةٍ علىٰ الانفراد ومجموعِها قائمةً بالذَّات. وهذا أمرٌ تضيق عن شرحه عدَّةُ أسفار، بل حظُّ العبد منه علمًا وإرادةً كما يُدخل إصبعه في اليم، بل الأمر أعظم من ذلك، والله عزَّ وجلّ ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: ١٧].

فإذا استغنىٰ القلبُ بهذا الغنىٰ الذي هو غاية فقره استغنت النفسُ غنًىٰ يناسبها، وذهبت عنها البرودة التي توجبُ ثقلَها وكسلَها وإخلادَها إلىٰ الأرضِ، وصارت لها حرارةٌ توجِبُ حركتَها وخفّتَها في الأوامر وطلبَها الرفيق الأعلىٰ، وصارت

برودتُها في شهواتها وحظوظها ورعوناتها. وذهبت أيضًا عنها اليبوسةُ المضادَّةُ للينها وسرعةِ انفعالها وقبولها؛ فإنَّها إذا كانت يابسةً قاسيةً كانت بطيئة الانفعال، بعيدة القبول، لا تكاد تنقاد. فإذا صارت برودتها حرارةً، ويبوستها رطوبةً وسُقيَت بماءِ الحياة الذي أنزله الله علىٰ قلوب أنبيائه، وجعلها قرارًا ومعينًا له، ففاض منها علىٰ قلوب أتباعهم، فأنبتت من كلِّ زوجٍ كريم= فحينئذ انقادت بزمام المحبة إلىٰ مولاها الحقِّ مؤديةً لحقوقه، قائمةً بأوامره، راضيةً عنه، مرضية له بكمال طمأنينتها ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧- ٢٨].

فلنرجع إلىٰ كلامه.

تفسير الدرجة الثانية وهي غنىٰ النفس

فقوله في الدرجة الأولىٰ -وهي غنىٰ القلب-: أنَّهُ «سلامته من السبب» أي من الفقر إلىٰ السبب، وشهودِه، والاعتماد عليه، والركون إليه، والثقة به. فمن كان معتمدًا علىٰ سببٍ غنيًّا به واثقًا به لم يطلق عليه اسم «الغني»، لأنَّه فقير إلىٰ الوسائط، بل لا يسمَّىٰ صاحبُه غنيًّا إلا إذا سلِم من علَّة السبب استغناءً بالمسبب، بعد الوقوف علىٰ رحمته وحكمته وتصرفه وحسن تدبيره، فلذلك يصير صاحبه غنيًّا بتدبير الله ﷻ.

فمن كملت له السلامة من علَّة الأسباب، ومن علَّة المنازعة للحكم، بالاستسلام له والمسالمة، أي بالانقياد لحكمه الذي حصَّل الغنىٰ للقلب بوقوفه علىٰ حسن تدبيره ورحمته وحكمته. فإذا وقف العبدُ علىٰ حسن تدبيره واستغنىٰ القلبُ به لم يتم له الاستغناء بمجرد هذا الوقوف، إن لم ينضمَّ إليه المسالمةُ للحكم -وهو الانقياد له- فإنَّ المنازعة للحكم إلىٰ حكم آخر دليلُ علىٰ وجود رعونة الاختيار، وذلك دالٌّ علىٰ فقر صاحب الاختيار إلىٰ ذلك الشيء المختار، ومن كان فقيرًا إلىٰ شيء لم يُرِده الله ﷻ لم يُطلَق عليه اسمُ

الغني بتدبير الله ﷻ. فلا يتمُّ الغنىٰ بتدبير الربِّ ﷻ لعبده إلا بالمسالمة لحكمه بعد الوقوف علىٰ حسن تدبيره.

ثمَّ يبقىٰ عليه الخلاصُ من معنىٰ آخر، وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من مخاصمة الربِّ. فإنَّ مخاصمة الخلق دليلٌ علىٰ فقره إلىٰ الأمرِ الذي وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة، ومن كان فقيرًا إلىٰ حظٍّ من الحظوظ، يسخَط لفوته ويخاصم الخلقَ عليه، لا يطلق عليه اسم الغني حتَّىٰ يسلم الخلقُ من خصومته لكمال تفويضه إلىٰ وليِّه وقيُّومه ومتولي تدبيره.

فمتىٰ سلم العبدُ من علة فقره إلىٰ السبب، ومن علَّة منازعته لأحكام الله ﷻ، ومن علة مخاصمته للخلق علىٰ حظوظ= استحقَّ أن يكون غنيًّا بتدبير مولاه، مفوِّضًا إليه، لا يفتقر قلبُه إلىٰ غيره، ولا يسخط شيئًا من أحكامه، ولا يخاصم عبادَه إلا في حقوق ربه؛ فتكون مخاصمته لله وبالله، ومحاكمته إلىٰ الله، كما كان النبي ﷺ يقول في استفتاح صلاة الليل: «**اللهُمَّ لكَ أسلمتُ وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ**»[١].

فتكون مخاصمةُ هذا العبدِ لله، لا لهواه وحظِّه؛ ومحاكمتُه خصمَه إلىٰ أمر الله وشرعه، لا إلىٰ شيءٍ سواه. فمن خاصم لنفسه فهو ممن اتَّبع هواه، وانتصر لنفسه. وقد قالت عائشة ﵂: «**ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط**»[٢]، وهذا لتكميل عبوديته. ومن حاكم خصمَه إلىٰ غيرِ الله ورسوله فقد حاكم إلىٰ الطاغوت، وقد أُمِر أن يكفر به، ولا يكفر العبد بالطاغوت حتَّىٰ يجعل الحُكمَ لله وحده، كما هو كذلك في نفس الأمر.

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).
(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

فصل

١/ ٨٠

تفسير الدرجة الأولىٰ وهي غنىٰ القلب

قوله في غنىٰ النفس إنَّه: «استقامتها علىٰ المرغوب، وسلامتها من المسخوط، وبراءتها من المُرايَاة»؛ يريد به استقامتَها علىٰ الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه، وتجنُّبَها لمناهيه التي يسخطها ويُبغضها، وأن تكون هذه الاستقامةُ علىٰ الفعل والترك تعظيمًا لله وأمره، وإيمانًا به، واحتسابًا لثوابه، وخشيةً من عقابه؛ لا طلبًا لتعظيم المخلوقين له ومدحهم، وهربًا من ذمهم وازدرائهم، وطلبًا للجاه والمنزلة عندهم. فإنَّ هذا دليل علىٰ غاية الفقر من الله، والبعد منه، وأنَّه أفقر شيء إلىٰ المخلوق.

فسلامةُ النفس من ذلك واتصافُها بضده دليلُ غناها؛ لأنَّها إذا أذعنت منقادةً لأمر الله طوعًا واختيارًا ومحبةً وإيمانًا واحتسابًا، بحيث تصير لذَّتُها وراحتُها ونعيمُها وسرورُها في القيام بعبوديته، كما كان النبي ﷺ يقول: «**يا بلالُ أرحْنا بالصلاة**»[(١)]، وقال ﷺ: «**حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النِّساءُ والطِّيبُ، وجُعِلَت قُرَّةُ عَيْني في الصلاةِ**»[(٢)].

وقُرَّة العين فوق المحبة، فجعل النساءَ والطِّيب مما يحبه، وأخبر أنَّ قرَّة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها، ومحض لذتُه وفرحُه وسرورُه وبهجتُه= إنَّما هو في الصلاة التي هي صلةٌ بالله وحضورٌ بين يديه، ومناجاةٌ له واقترابٌ منه، فكيف لا تكون قرَّةَ العين، وكيف تقَرُّ عينُ المحبِّ بسواها؟ فإذا حصل للنفس

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥)، وأعلّه الدارقطني في «علله» (٤/ ١٢٠- ١٢٢)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/ ٤٤٣) بالإرسال.

(٢) أخرجه النسائي (٣٩٤٠)، واختاره الضياء في «الأحاديث المختارة» (٥/ ١١٣).

هذا الحظُّ الجليلُ فأيَّ فقرٍ تَخشَىٰ معه، وأيُّ غنًىٰ فاتها حتَّىٰ تلتفتَ إليه؟

ولا يحصل لها هذا حتَّىٰ ينقلبَ طبعُها ويصيرَ مجانسًا لطبيعة القلب، فتصير بذلك مطمئنةً بعد أن كانت لوَّامة. وإنَّما تصير مطمئنة بعد تبدُّل صفاتها وانقلاب طبعها، لاستغناء القلب بما وصل إليه من نور الحقِّ جلَّ جلاله، فجرىٰ أثرُ ذلك النور في سمعه وبصرِه، وشعرِه وبَشرِه، وعَظْمِه ولَحْمِه، ودمه وسائرِ مفاصله؛ وأحاطَ بجهاته من فوقه وتحته، ويمينه ويساره، وخلفه وأمامه، وصارت ذاتُه نورًا فصارَ عملُه نورًا، وقولُه نورًا، ومدخلُه نورًا، ومخرجُه نورًا؛ وكان في مبعثه ممن أُتِمَّ له نورُه، فقطَع به الجسر.

وإذا وصلت النفسُ إلىٰ هذه الحال استغنت بها عن التطاول إلىٰ الشهوات التي توجب اقتحام الحدود المسخوطة، والتقاعدَ عن الأمور المطلوبة المرغوبة، فإنَّ فقرَها إلىٰ الشهوات هو الموجِبُ لها التقاعدَ عن المرغوب المطلوب، وأيضًا فتقاعدُها عن المطلوب منها موجِبٌ لفقرها إلىٰ الشهوات؛ فكلٌّ منهما موجِب للآخر. وتركُ الأوامر أقوىٰ لها في افتقارها إلىٰ الشهوات، فإنَّهُ بحسب قيام العبد بالأمر تُدفَع عنه جيوشُ الشهوة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

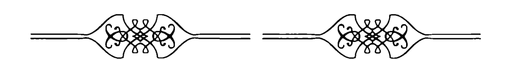
وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]، وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿يَدْفَعُ﴾[1]، فكمال الدفع والمدافعة بحسب قوَّة الإيمان وضعفه.

فإذا صارت النفس حرَّةً مطمئنةً غنيةً بما أغناها به مالكها وفاطرها من النور الذي وقع في القلب، ففاض منه إليها= استقامت بذلك الغنىٰ علىٰ الأمر

---

(١) الأولىٰ قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، ويعقوب، والثانية قراءة الباقين. انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٢٦).

المرغوب، وسلِمتْ به عن الأمر المسخوط، وبرئت من المُراياة. ومدار ذلك كله علىٰ الاستقامة باطنًا وظاهرًا، ولهذا كان الدِّين كلُّه في قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود: ١١٢]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣].



١/ ٨٣

الدرجة الثالثة وهي الغنىٰ بالحق سبحانه

فصل

وهذه الاستقامة تُرَقِّيها إلىٰ الدرجة الثالثة من الغنىٰ، وهو الغنىٰ بالحق تبارك وتعالىٰ عن كلِّ ما سواه، وهي أعلىٰ درجات الغنىٰ.

فأوَّل هذه الدرجة أن تشهد ذكرَ الله ﷻ إيَّاك قبلَ ذكرك له، وأنَّه تعالىٰ ذَكَرَك فيمن ذكَره من مخلوقاته ابتداءً قبلَ وجودِك وطاعتِك وذكرِك، فقدَّر خلقَك ورزقَك وعملَكَ وإحسانَه إليك ونِعمَه عليك حيث لم تكن شيئًا البتة.

وذكَرك سبحانه بالإسلام، فوفَّقك له، واختارك له دون من خذله، قال تعالىٰ: ﴿**هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ**﴾ [الحج: ٧٨]، فجعلك أهلًا لما لم تكن أهلًا له قطّ، وإنَّما هو الذي أهَّلَك بسابق ذكره، فلولا ذكرُه لك بكلِّ جميلٍ أولاكَه لم يكن لكَ إليه سبيل.

ومن الذي ذكَرك باليقظة، حتَّىٰ استيقظتَ، وغيرُك في رقدة الغفلة مع النُّوَّام؟

ومَن الذي ذكرك سواه بالتوبة حتَّىٰ وفَّقك لها، وأوقعَها في قلبك، وبعث دواعيك عليها، وأحيا عزَماتِك الصادقةَ عليها، حتَّىٰ تُبْتَ إليه، وأقبلتَ عليه، فذقتَ حلاوة التوبة وبردَها ولذَّتَها؟

ومَن الذي ذكرك سواه بمحبَّته حتَّىٰ هاجت من قلبك لواعجُها، وتوجَّهتْ نحوَه سبحانه ركائبُها، وعمرَ قلبَك بمحبَّته بعد طول الخراب، وآنسَك بقربه بعد طول الوحشة والاغتراب؟

ومن تقرَّب إليك أوَّلًا حتَّىٰ تقرَّبت إليه، ثمَّ أثابك علىٰ هذا التقرب تقرُّبًا

آخر فصار التقرُّبُ منك محفوفًا بتقرُّبَين منه تعالىٰ: تقرُّبٍ قبله، وتقرُّبٍ بعده؛ والحبُّ منك محفوفًا بحبَّينِ منه: حبٍّ قبله، وحُبٍّ بعده؛ والذكرُ منك محفوفًا بذكرَين: ذكرٍ قبله، وذكرٍ بعده؟

فلولا سابقُ ذكره إيَّاك لم يكن من ذلك كلِّه شيء، ولا وصل إلىٰ قلبك ذرّةٌ مما وصل إليه من معرفته وتوحيده ومحبَّته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والتقرب إليه. فهذه كلُّها آثارُ ذكره لك.

ثمَّ إنَّه سبحانه ذَكَرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس، فله عليك في كلِّ طرفة عينٍ ونفَسٍ نعمٌ عديدةٌ ذكَرك بها قبلَ وجودك، وتعرَّف بها إليك، وتحبَّب بها إليك، مع غناه التامّ عنك وعن كل شيء. وإنَّما ذلك مجرَّد إحسانه وفضله وجوده، إذ هو الجوادُ المحسنُ لذاته، لا لمعاوضةٍ، ولا لطلب جزاءٍ منك، ولا لحاجةٍ دعته إلىٰ ذلك، كيف وهو الغني الحميد؟ فإذا وصل إليك أدنىٰ نعمةٍ منه فاعلم أنَّه ذكرك بها، فَلْتعظُمْ عندك لِذكره لك بها، فإنَّه ما حقَّرك مَن ذكَرك بإحسانه، وابتدأك بمعروفه، وتحبَّب إليك بنعمته؛ هذا كلّه مع غناه عنك.

فإذا شهد العبدُ ذكرَ ربِّه له، ووصل شاهدُه إلىٰ قلبه شَغَلَه ذلك عمَّا سواه، وحصل لقلبه به غنًىٰ عالٍ لا يشبهه شيء. وهذا كما يحصل للمملوك الذي لا يزال أستاذُه وسيِّدُه يَذكُره ولا ينساه، فهو يحصل له -بشعوره بذكر أستاذه له- غنىٰ زائد علىٰ إنعام سيِّده عليه وعطاياه السَّنِيَّة له؛ فهذا هو غنىٰ ذكر الله للعبد.

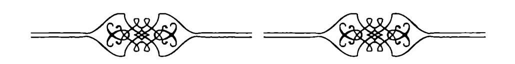
وقد قال ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالىٰ: «**مَن ذكَرَني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومَن ذكرني في مَلَأٍ ذكرتُه في مَلَأٍ خيرٍ منهم**»[1]. فهذا ذكرٌ ثانٍ بعد ذكر العبد لربِّه غيرُ الذكر الأوَّل الذي ذكره به حتىٰ جعله ذاكرًا، وشعورُ العبد بكلا

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

الذكرَين يُوجب له غنىٰ زائدًا علىٰ إنعام ربِّه عليه وعطاياه له.

وقد ذكرنا في كتاب «**الكلم الطيب والعمل الصالح**»[(١)] من فوائد الذكر: استجلابَ ذكرِ الله سبحانه لعبده. وذكرنا قريبًا من مائة فائدة تتعلَّق بالذكر، كلُّ فائدةٍ منها لا خطَر لها[(٢)]. وهو كتاب عظيم النفع جدًّا.

والمقصودُ أنَّ شعور العبد وشهودَه لذكر الله له يُغني قلبه ويَسدُّ فاقته، وهذا بخلاف مَن نسوا الله فنسيَهم، فإنَّ الفقرَ من كُلّ خير حاصلٌ لهم، وما يظنون أنَّه حاصل لهم من الغنىٰ فهو من أكبر أسباب فقرهم.



(١) «الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب» (ص٩٦).
(٢) أي: لا نظير لها، ولا عوض عنها.

فصل

١/ ٨٧

الدرجة الثانية من درجات الغنىٰ بالله ﷻ

الدرجة الثانية من درجات الغنىٰ بالله ﷻ: دوامُ شهودِ أوَّليته تعالىٰ، وهذا الشهود عند أرباب السلوك أعلىٰ ممَّا قبله، والغنىٰ به أتمُّ من الغنىٰ المذكور؛ لأنَّه من مبادئ الغنىٰ بالحقيقة؛ لأنَّ العبد إذا فتح اللهُ لقلبه شهود أوليته سبحانه حيث كان ولا شيءَ غيرُه، وهو الإله الحقُّ الكامل في أسمائه وصفاته، الغنيُّ بذاته عمَّا سواه، الحميد المجيد بذاته قبل أن يخلق مَن يحمده ويعبده ويمجِّده، فهو معبود محمود حيٌّ قيُّوم، له الملك وله الحمد في الأزل والأبد، لم يزل ولا يزال موصوفًا بصفات الجلال، منعوتًا بنعوت الكمال، وكلُّ شيء سواه فإنَّما كان به؛ وهو تعالىٰ بنفسه ليس بغيره، فهو القيوم الذي قيامُ كلِّ شيءٍ به، ولا حاجةَ به في قيوميته إلىٰ غيره بوجه من الوجوه؛ فإذا شهد العبدُ سَبْقَه تعالىٰ بالأوَّلية ودوامَ وجوده الحقّ، وغاب بهذا عمَّا سواه من المحدَثات= فني في وجوده من لم يكن، كأنَّه لم يكن، وبقي من لم يزل. واضمحلَّت الممكنات في وجوده الأزليّ الدائم، بحيث صارت كالظلال التي يبسطُها ويمدُّها ويقبِضُها، فيستغني العبدُ بهذا المشهد العظيم، ويتغذَّىٰ به عن فاقاته وحاجاته.

وإنَّما كان أفضلَ عندهم ممَّا قبله لأنَّ الشهود الذي قبله فيه شائبةٌ مشيرةٌ إلىٰ وجود العبد. وهذا الشهود الثاني ساترٌ للموجودات كلِّها سوىٰ الأوَّل تعالىٰ، قد اضمحَّلتْ وفنيتْ فيه، وصارَتْ كأوليتها، وهو العدم. فأفنتها أوَّليةُ الحقّ تبارك وتعالىٰ، فبقي العبد محوًا صرفًا وعدمًا محضًا، وإن كانت إنِّيَّتُه متشخصةً مشارًا إليها، لكنَّها لمَّا نُسِبتْ إلىٰ أوَّلية الحقّ عزَّ وجلّ اضمحلَّتْ

وفنيتْ، وبقي الواحد الحق الذي لم يزل باقيًا. فاضمحلَّ ما دون الحقّ تعالىٰ في شهود العبد، كما هو مضمحلّ في نفسه. وشهِد العبدُ حينئذٍ أنَّ كل شيء سوىٰ الله باطل، وأنَّ الحقَّ المبين هو الله وحده. ولا ريب أنَّ الغنىٰ بهذا الشهود أتمُّ من الغنىٰ بالذي قبله.

وليس هذا مختصًّا بشهود أوَّليته تعالىٰ فقط، بل جميعُ ما يبدو للقلوب من صفات الربِّ جلَّ جلالُه يستغني العبدُ بها بقدر حظّه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديّتها.

فمَن شهد مشهدَ علوِّ الله علىٰ خلقه وفوقيَّته لعباده واستوائه علىٰ عرشه، كما أخبر به أعرَفُ الخلق وأعلَمُهم به الصادقُ المصدوقُ؛ وتعبَّد بمقتضىٰ هذه الصفة، بحيث يصيرُ لقلبه صَمَدٌ يعرج القلبُ إليه مناجيًا له مطرقًا واقفًا بين يديه وقوفَ العبد الذليل بين يدي الملك العزيز، فيشعر بأنَّ كلِمَه وعملَه صاعدٌ إليه معروضٌ عليه بين خاصَّته وأوليائه، فيستحيي أن يصعد إليه مِن كلمه وعمله ما يُخزيه ويفضحه هناك؛ ويشهدُ نزولَ الأمر والمراسيم الإلهية إلىٰ أقطار العوالم كلَّ وقت بأنواع التدبير والتصرف من الإماتة والإحياء، والتولية والعزل، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، وكشف البلاءِ وإرساله، وتقلُّبِ الدول ومداولةِ الأيام بين النَّاس، إلىٰ غير ذلك من التصرُّف في المملكة التي لا يتصرّف فيها سواه، فمراسيمُه نافذةٌ فيها كما يشاء ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥]= فمن أعطىٰ هذا المشهد حقَّه معرفةً وعبوديةً استغنىٰ به.

وكذلك من شهِد مشهدَ العلم المحيط الذي لا يعزُب عنه مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماوات ولا في قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال؛ بل أحاط

بذلك كلِّه علمًا تفصيليًّا، ثمَّ تعبَّد بمقتضىٰ هذا الشهود من حراسة خواطره، وإراداته، وعزماته، وجوارحه علمًا أن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطرَه وإراداتِه وجميعَ أحواله ظاهرةٌ مكشوفةٌ لديه، علانيةٌ له، باديةٌ له لا يخفىٰ عليه منها شيء.

وكذلك إذا أشعرَ قلبَه صفةَ سمعِه تبارك وتعالىٰ لأصوات عباده علىٰ اختلافها وجهرها وخفائها، وسواءٌ عنده من أسرَّ القولَ ومن جهرَ به، لا يَشْغَلُه جَهْرُ من جَهَرَ عن سمعه لِصوت مَن أسرَّ، ولا يشغله سمعٌ عن سمعٍ، ولا تُغلِّطه الأصواتُ علىٰ كثرتها واختلافها واجتماعها، بل هي عنده كلها كصوت واحد؛ كما أنَّ خلقَ الخلق جميعِهم وبعثَهم عنده بمنزلة نفس واحدة.

وكذلك إذا شهد معنىٰ اسمه «البصير» جلَّ جلاله الذي يرىٰ دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصمَّاءِ في حِنْدِس الظلماء، ويرىٰ تفاصيلَ خلقِ الذرَّة الصغيرة ومُخِّها وعروقها ولحمها وحركتها، ويرىٰ مدَّ البعوضة جناحها في ظلمة الليل؛ وأعطىٰ هذا المشهد حقَّه من العبودية، فحرَسَ حركاتِه وسكناتِه، وتيقَّن أنَّها بمرأىٰ منه تبارك وتعالىٰ ومشاهدةٍ لا يغيب عنه منها شيء.

وكذلك إذا شهد مشهدَ القيومية الجامع لصفات الأفعال، وأنَّه قائم علىٰ كل شيء، وقائم علىٰ كل نفس بما كسبت، وأنَّه تعالىٰ هو القائم بنفسه، المقيمُ لغيره، القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاءِ المحسن إليه وجزاءِ المسيء إليه، وأنَّه لكمال قيوميَّته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفَع إليه عملُ الليل قبل النَّهار، وعملُ النَّهار قبل الليل، لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم، ولا يضلّ ولا ينسىٰ. وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين، وهو مشهد الربوبية.

وأعلىٰ منه مشهد الإلهية الذي هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاءِ، وهو شهادة أن لا إله إلا هو، وأنَّ إلهية ما سواه باطل ومُحال، كما أنَّ ربوبية ما سواه كذلك، فلا أحد سواه يستحقُّ أن يؤلَّه ويُعبَد، ويُصلَّىٰ له ويُسجَد. ويستحقُّ نهاية الحبِّ مع نهاية الذلّ لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاعُ وحده علىٰ الحقيقة، والمألوه وحده، وله الحكم وحده. فكلُّ عبوديةٍ لغيره باطلةٌ وعناءٌ وضلال، وكلُّ محبةٍ لغيره عذابٌ لصاحبها، وكلُّ غنًىٰ بغيره فقرٌ وفاقة، وكلُّ عزٍّ بغيره ذلّ وصغار، وكلُّ تكثُّر بغيره قلَّة وذلَّة. فكما استحال أن يكون للخلق ربٌّ غيره، فكذلك يستحيل أن يكون لهم إله غيره، فهو الذي انتهَتْ إليه الرغبات، وتوجهَتْ نحوه الطلبات.

ويستحيل أن يكون معه إله آخر، فإنَّ الإله علىٰ الحقيقة هو الغنيّ الصمَد الكامل في أسمائه وصفاته، الذي حاجةُ كل أحدٍ إليه، ولا حاجة به إلىٰ أحد؛ وقيامُ كلِّ شيءٍ به، وليس قيامُه بغيره. ومن المحال أن يحصل في الوجود اثنان كذلك، ولو كان في الوجود إلٰهان لفسد نظامه أعظمَ فساد واختلّ أعظمَ اختلال، كما يستحيل أن يكون له فاعلان متساويان كلٌّ منهما مستقلٌّ بالفعل، فإنَّ استقلالَهما ينافي استقلالَهما، واستقلالَ أحدهما يمنع ربوبيّةَ الآخر، فتوحيد الربوبيّة أعظم دليل علىٰ توحيد الإلهية.

ولذلك وقع الاحتجاج به في القرآن أكثر مما وقع بغيره، لصحَّة دلالته وظهورها، وقبول العقول والفطَر لها، ولاعتراف أهل الأرض بتوحيد الربوبيّة. ولذلك كان عُبَّادُ الأصنام يُقِرُّون به، وينكرون توحيد الإلهية، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، مع اعترافهم بأنّ الله وحده هو الخالق لهم وللسماوات والأرض وما بينهما، وأنَّه المتفرِّد بملك ذلك كله. فأرسل الله

تعالىٰ الرسلَ تذكِّرهم بما في فطَرهم الإقرارُ به من توحيده وحده لا شريك له، وأنَّهم لو رجعوا إلىٰ فِطَرهم وعقولهم لدلَّتهم علىٰ امتناع إلهٍ آخر معه واستحالته وبطلانه.

فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاءِ، وهو مشهد جامع للأسماء والصفات، وحظُّ العباد منه بحسب حظّهم من معرفة الأسماء والصفات. ولذلك كان أكملُ الخلق فيه أعرفَهم بالله وأسمائه وصفاته، ولذلك كان الاسم الدَّالّ علىٰ هذا المعنىٰ هو اسم الله جلَّ جلاله، فإنَّ هذا الاسم هو الجامع، ولهذا تضاف الأسماء الحسنىٰ كلُّها إليه، فيقال: الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء الرحمن، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهدُ كلُّها، وكلُّ مشهد سواه فإنَّما هو مشهدٌ لصفة من صفاته. فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهيَّة، وقام بحقّه من التعبُّد الذي هو كمالُ الحبّ بكمالِ الذلّ والتعظيم والقيام بوظائف العبودية، فقد تمَّ له غناه بالإله الحقّ، وصار من أغنىٰ العباد، ولسانُ حالِ مثلِ هذا يقول:

غنِيتُ بلا مالٍ عن النَّاس كلِّهم ... وإنَّ الغنىٰ العالي عن الشيء لا بِهِ[1]

فيا لَه من غنًىٰ ما أعظمَ خطرَه، وأجلَّ قدرَه! تضاءَلتْ دونه الممالكُ فما دونها، وصارت بالنسبة إليه كالظلِّ من الحامل له، والطيف الموافي في المنام الذي يأتي به حديثُ النفس، ويطرده الانتباهُ من النوم.

---

(١) منسوب إلىٰ الإمام الشافعي في «المستطرف» (٢/ ٤٣)، ومنسوب أيضا إلىٰ القهستاني في «معجم الأدباء» (١٦٨٠).

فصل

١/ ٩٤

الدرجة الثالثة من درجات الغنىٰ بالرب جل جلاله: الفوز بوجوده.

هذا الغنىٰ أعلىٰ درجات الغنىٰ؛ لأنَّ الغنىٰ الأوَّل والثاني كانا من آثار ذكر الله والتوجُّه، ففاض علىٰ القلب في صدق توجهه أنوارُ الصفات المقدَّسة، فاستغنىٰ القلبُ بذلك، وحصل له أيضًا أنوارُ الشعور بكفالته وكفايته لعبده، وحسن وكالته له، وقيوميته بتدبيره، وحسن تدبيره، فاستغنت النفس بذلك أيضًا.

وأمَّا هذا الغنىٰ الثالث الذي هو «الغنىٰ بالحق» فهو من آثار وجود الحقيقة، وهو إنَّما يكون بعد ترقِّيه من آثار الصفات إلىٰ آثار وجود الذَّات. وإنَّما يكون هذا الوجود بعد مكاشفة عينِ اليقين عندما يطلع فجرُ التوحيد، فهذا أوَّله. وكمالُه عند طلوع شمسه، فيتقطع ضَبابُ الوجود الفاني، وتُشرق شمسُ الوجود الباقي، فيتقطَّع لها كلُّ ضباب. وهذا عبارة عن نور يُقذَف في القلبِ يُكشفَ له بذلك النور عن عظَمةِ الذَّات كما كُشِف له بالنور الذي قبله عن عظمة الصفات.

فإذا كان أثرٌ من آثار صفات الذَّات أو صفات الأفعال يُغني القلبَ والنفسَ، فما ظنُّك بما تُكاشَفُ به الأرواحُ من أنوار قدسِ الذَّات المتَّصفة بالجلال والإكرام. فهذا غنًىٰ لا يناله الوصفُ، ولا يدخل تحت الشرح، فيستغني العبدُ الفقير بوجود سيِّده العزيز الرَّحيم.

فيا لكَ من فَقْرٍ تَقَضَّىٰ، ومِن غِنَىٰ   يدومُ، ومِن عيشٍ ألذَّ من المُنىٰ!

فلا تستعجِزْ نفسَك عن البلوغ إلىٰ هذا المقام، فبينك وبينه صدقُ الطلب، فإنَّما هي عزمةٌ صادقةٌ، ونهضةُ حُرٍّ لنفسه عنده قدرٌ وقيمةٌ، يغار عليها أن يبيعَها بالدون.

وقد جاءَ في أثرٍ إلهي: «يقول الله ﷻ: ابْنَ آدمَ خَلَقتُكَ لنفسي فلا تلعَبْ، وتَكَفَّلتُ برزقك فلا تتعَبْ، ابنَ آدمَ اطْلُبْني تَجِدْني، فَإن وجدتَني وجدتَ كلَّ شيءٍ، وإن فُتُّكَ فاتَكَ كلُّ شيءٍ، وأنا أَحَبُّ إليكَ مِن كُلِّ شيءٍ»[1].

فمن طلَب الله بصدقٍ وجده، ومن وجده أغناه وجودُه عن كلِّ شيءٍ.

فأصبحَ حُرًّا في غنًىٰ ومهابةٍ علىٰ وجهه أنوارهُ وضياؤه
وإن فاتَهُ مولاه جلَّ جلالُه تباعدَ ما يرجو، وطال عناؤه

ومن وصل إلىٰ هذا الغنىٰ قرَّت به كلُّ عين لأنَّه قد قرَّت عينُه بالله والفوز بوجوده، ومن لم يَصِل إليه تقطَّعتْ نفسُه علىٰ الدنيا حسرات، وقد قال ﷺ: **«مَن أصبح والدُّنيا أكبرُ همِّه جعل اللهُ فقرَه بين عينيه، وشَتَّتَ عليه شَمْلَه، ولم يأتِه من الدُّنيا إلا ما قُدِّرَ له. ومَن أصبحَ والآخِرَةُ أكبرُ هَمِّه جعل اللهُ غناه في قلبِه، وجَمَع عليه شَمْلَه، وأَتَتْه الدُّنيا وهي راغمةٌ، وكان اللهُ بِكُلِّ خيرٍ إليه أَسْرَعَ»**[2].

فهذا هو الفقر الحقيقي والغنىٰ الحقيقي، وإذا كان هذا غنىٰ من كانت الآخرةُ أكبرَ همِّه، فكيف من كان الله ﷻ أكبرَ همِّه، فهذا من باب التنبيه والأَولىٰ.

---

(١) أثر إسرائيلي، كما نص عليه شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٥٢).
(٢) أخرجه أبو داود مختصرا (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٤١٠٥)، والحديث حسّنه الترمذي، وصححه ابن حبان (٦٧). وليس عندهم لفظ: «وكان الله بكل خير إليه أسرع».

فصل

١/ ١٠٥

تحقيق نعت الفقير

فجملة نعت الفقير حقًّا أنَّه المتخلي من الدنيا تظرُّفًا، والمتجافي عنها تعفُّفًا، لا يستغني بها تكثُّرًا، ولا يستكثر منها تملُّكًا. وإن كان مالكًا لها بهذا الشرط لم تضرَّه، بل هو فقيرٌ غناه في فقره، وغني فقرُه في غناه.

ومن نعته أيضًا أن يكون فقيرًا من حاله، وهو خروجه عن الحال تبرِّيًا، وتركُ الالتفات إليه تسلِّيًا، وتركُ مساكنة الأحوال، والرجوعُ عن موافقتها؛ فلا يستغني بها اعتمادًا عليها، ولا يفتقرُ إليها مساكنةً لها.

ومن نعته أنَّه يعمل علىٰ موافقة الله في الصبر والرضا والتوكل والإنابة، فهو عاملٌ علىٰ مراد الله منه لا علىٰ موافقة هواه، وهو تحصيل مراده من الله. فالفقيرُ خالص بكلِّيته لله ﷻ، ليس لنفسه ولا لهواه في أحواله حظٌّ ولا نصيب، بل عملُه بقيام شاهدِ الحقِّ وفناءِ شاهد نفسه. قد غيَّبه شاهدُ الحقِّ عن شاهد نفسه، فهو يريد الله بمراد الله، فمُعوَّله علىٰ الله، وهمَّته لا تقف دون شيءٍ سواه. قد فني بحبِّه عن حبِّ ما سواه، وبأمره عن هواه، وبحسن اختياره له عن اختياره لنفسه. فهو في وادٍ، والنَّاسُ في واد!

خاضع، متواضع، سليم القلب، سلِس القيادة للحقِّ، سريع القلب إلىٰ ذكر الله، بريء من الدعاوىٰ، لا يدعي بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله، زاهدٌ في كلِّ ما سوىٰ الله، راغبٌ في كلِّ ما يقرِّب إلىٰ الله، قريبٌ من النَّاسِ، أبعد شيءٍ منهم، يأنس بما يستوحشون منه، ويستوحش ممَّا يأنسون به، متفرد في طريق طلبه، لا تُقيِّده الرسوم، ولا تملكه العوائد، ولا يفرح بموجود، ولا يأسف علىٰ مفقود.

من جالسه قرَّت عينُه به، ومن رآهُ ذكَّرته رؤيتُه بالله. قد حملَ كَلَّه ومُؤنته عن النَّاسِ، واحتمل أذاهم، وكفَّ أذاه عنهم. وبذلَ لهم نصيحته، وسبَّل لهم عِرْضَه ونفسَه لا لمعاوضةٍ ولا لذلَّةٍ وعجز. لا يدخلُ فيما لا يعنيه، ولا يبخلُ بما لا ينقصه.

وصفه الصدق والعفَّة والإيثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال. لا يتوقع لما يبذله للنَّاسِ منهم عوضًا، ولا مِدحة. لا يعاتِب، ولا يخاصم، ولا يطالِب، ولا يرىٰ له علىٰ أحدٍ حقًّا، ولا يرىٰ له علىٰ أحدٍ فضلًا.

مقبلٌ علىٰ شأنه، مكرمٌ لإخوانه، بخيل بزمانه، حافظ للسانه، مسافرٌ في ليله ونهاره، ويقظتِه ومنامِه، لا يضع عصا السيرِ عن عاتقه حتَّىٰ يصل إلىٰ مطلبه.

قد رُفِعَ له عَلَمُ الحبِّ، فشمَّرَ إليه، وناداهُ داعي الاشتياق فأقبل بكلّيته عليه. أجابَ مُنادي المحبة إذ دعاه: حيَّ علىٰ الفلاح، وواصل السُّرىٰ[1] في بيداءِ الطلب، فحَمِد عند الوصول مسراه، وإنَّما يحمد القومُ السُّرىٰ عند الصباح:

فحيَّ علىٰ جنَّاتِ عدنٍ فإنَّها	منازلُكَ الأولىٰ وفيها المخيَّمُ
ولكنَّنا سَبْيُ العدوِّ، فهل ترىٰ	نعود إلىٰ أوطاننا ونسلَّمُ
وحيَّ علىٰ روضاتها وخيامها	وحيَّ علىٰ عيشٍ بها ليس يُسأَمُ
وحيَّ علىٰ يوم المزيد وموعدِ الـ	المحبِّين، طوبىٰ للذي هو منهمُ
وحيَّ علىٰ وادٍ بها هو أفيَحٌ	وتربتُه من أَذْفَرِ المسك أعظمُ
منابرُ من نورٍ هناكَ وفضَّةٍ	ومن خالص العِقيانِ لا يتفصَّمُ

(١) السُّرىٰ: السير عامَّةَ الليل.

يـروَن بـه الرحمـنَ جـلَّ جلالُـه كرؤيـة بـدْرِ التَّـمِّ لا يُتَوهَّـمُ
أو الشمس صحوًا ليس من دون أُفْقِها ضَبـابٌ ولا غَيْـمٌ هنـاكَ يُغيِّـمُ
وبيناهـمُ في عيشـهم وسـرورهم وأرزاقُهـم تُجـرىٰ عليهـم وتُقْسَـمُ
إذا هُـمْ بنـورٍ سـاطع قـد بـدا لهـم فقيـل: ارفعـوا أبصاركـم، فـإذا هُـمُ
بربِّهِـمُ مِـن فوقِهـمْ وهـو قائـلٌ: سـلامٌ عليكـم طبتُـمُ وسـلِمتُمُ
فيـا عجبًـا، مـا عـذرُ مـن هـو مؤمـنٌ بهـذا ولا يسـعىٰ لـه ويُقـدِّمُ
فبـادِرْ إذًا مـا دام في العمـر فسـحةٌ وعَدْلُـك مقبـولٌ وصَرْفُـك قيِّـمُ
فمـا فرحـتْ بالوصـل نفسٌ مَهينـةٌ ولا فـاز قلـبٌ بالبطالـة يَنعَـمُ
فجِدَّ وسارِعْ واغتنِمْ ساعةَ السُّرىٰ ففـي زمـن الإمـكان يُسْعَىٰ ويُغْنَـمُ
وسِرْ مُسرعًا فالسَّيلُ خلفك مسرعٌ وهيهـاتَ مـا منـه مفـرٌّ ومهـزَمُ
فهـنَّ المنايـا أيُّ واد نزلتَـه عليهـا القـدومُ أو عليـك سـتَقْدَمُ
وإن تكُ قد عاقتْك سُعدىٰ فقلبُك الْـ مُعَنَّـىٰ رهيـنٌ في يديهـا مسـلَّمُ
وقد ساعدتْ بالوصل غيرَك فالهوىٰ لهـا منـكَ والواشـي بهـا يتنعَّـمُ
فدَعْهَـا وسـلِّ النفـسَ عنهـا بجنَّـةٍ مـن الفقـر في روضاتهـا الـدرُّ يَبْسِـمُ
ومـن تحتهـا الأنهـارُ تخفِـق دائمًـا وطيـرُ الأمـاني فوقهـا يترنَّـمُ
وقد ذُلِّلتْ منها القطوفُ فمن يُرِدْ جناهـا يَنَلْـه كيـف شـاءَ وينعَـمُ
وقـد فُتِحـت أبوابُهـا وتزيَّنَـتْ لِخُطَّابهـا فالحسـنُ فيهـا مقسَّـمُ
أقـام علـىٰ أبوابهـا داعـي الهـدي هلُمُّـوا إلـىٰ دار السـعادة تغنَمُـوا

وقـد طـابَ منهـا نُزْلُهـا ومقيلُهـا فطوبـىٰ لمـن حلُّـوا بهـا وتنعَّمُـوا
وقـد غـرس الرحمـنُ فيهـا غِرَاسـه من النَّاسِ، والرحمن بالغرس أعلمُ
فمـن كان مـن غـرس الإلـه فإنَّـهُ سـعيدٌ وإلا فالشـقا مُتحتِّـمُ
فيـا مُسـرعينَ السـيرَ بـالله ربِّكـم قِفـوا بي علىٰ تلك الربوع وسلِّموا
وقولـوا: محبٌّ قاده الشوقُ نحوَكم قضىٰ نحبَه فيكم تعيشوا وتَسْلَموا
قضـىٰ الله ربُّ العالميـن قضيـةً بـأنَّ الهـوىٰ يُعمـي القلـوبَ ويُبْكِـمُ
وحبُّكُـمُ أصـلُ الهـدىٰ ومـدارُه عليـه وفـوزٌ للمحـبِّ ومغنَـمُ
وتفنـىٰ عظـامُ الصَّـبِّ بعـد مماتـه وأشـواقُه وقـفٌ عليـه محـرَّمُ
فيـا أيهـا القلـبُ الـذي ملَك الهـوىٰ أعِنَّتَـه، حتَّـامَ هـذا التلـوُّمُ
وحتَّـامَ لا تصحـو وقـد قرُب المدىٰ ودقَّـت كـؤوسُ السير والنَّاسُ نُـوَّمُ
بلىٰ سوف تصحو حين ينكشف الغطا ويبـدو لـك الأمـرُ الـذي كنت تكتمُ
ويـا موقـدًا نـارًا لغيـرك ضـؤوهـا وحـرُّ لظاهـا بيـن جنبَيـك يَضْـرَمُ
أهـذا جنَـىٰ العلـمِ الـذي قـد غرستَه وهـذا الـذي قـد كنـتَ ترجـوه تَطْعَـمُ
وهـذا هـو الحـظُّ الـذي قـد رضيتَـه لنفسـك في الدَّاريـن لـو كنـت تفهَـمُ
وهـذا هـو الربـحُ الـذي قـد كسبته لعمـرُك لا ربـحٌ ولا الأصـلُ يسـلَمُ
بَخِلـتَ بشـيءٍ لا يضـرُّك بذلُـه وجُـدْتَ بشـيءٍ مثلُـه لا يُقـوَّمُ
وبعـتَ نعيمًـا لا انقضـاءَ لـه ولا نظيـرَ ببخـسٍ عـن قليـلٍ سـيُعدَمُ
فهلَّا عكستَ الأمـرَ إن كنتَ حازمًا ولكـن أضعـت الحزمَ لو كنتَ تعلمُ

وتهـدِمُ مـا تبني بكفِّك جاهـدًا فأنـتَ مـدىٰ الأيـام تبنـي وتهـدِمُ
وعنـدَ مـراد الحـقِّ تفنـىٰ كميِّـتٍ وعنـدَ مـراد النفـس تُسْـدِي وتُلحِـمُ
وعند خلاف الأمر تحتجُّ بالقضا ظهيـر علـىٰ الرحمـن للجبر يزعُـمُ
تُنـزِّه تلك النفسَ عن سوءِ فعلها وتعتِـبُ أقـدارَ الإلـه وتظلِـمُ
وتزعـمُ مَـعْ هـذا بأنَّـكَ عـارفٌ كذبـتَ يقينًـا في الـذي أنـت تزعـمُ
ومـا أنـت إلا جاهـل ثـمَّ ظالـم وإنَّـكَ بيـن الجاهليـن مقـدَّمُ
إذا كان هـذا نُصْـحَ عبـدٍ لنفسـه فمـن ذا الـذي منـه الهُـدَىٰ يُتعلَّـمُ
وفي مثل هـذي الحـال قـد قـال مـن مضـىٰ وأحسـنَ فيمـا قالَـه المتكلِّـمُ:
«فـإن كنـتَ لا تـدري فتلك مصيبةٌ وإنْ كنـتَ تـدرىٰ فالمصيبةُ أعظـمُ»
ولـو تُبصِـرُ الدنيـا وراءَ سـتورها رأيـتَ خيـالًا في منـامٍ سـيصرَمُ
كحُلْمٍ بطيفٍ زارَ في النوم وانقضىٰ الْـ منـامُ وراح الطيـفُ والصَّـبُّ مغـرمُ
وظـلٍّ أرتْـه الشـمسُ عنـد طلوعهـا سـيقلِصُ في وقـت الـزوال ويُفصَـمُ
ومُزنـةِ صيـفٍ طـاب منهـا مقيلُهـا فولَّـت سـريعًا والحَـرورُ تضـرَّمُ
فجُزْهـا مَمَـرًّا لا مَقـرًّا، وكـنْ بهـا غريبًـا تعِـشْ فيهـا حميـدًا وتسـلَمُ
أو ابـنَ سـبيل قـال في ظـلِّ دوحـةٍ وراحَ وخلَّـىٰ ظلَّهـا يتقسَّـمُ
أخـا سـفرٍ لا يسـتقرُّ قـرارُه إلـىٰ أن يـرىٰ أوطانَـه ويُسـلِّمُ
فيـا عجبًـا كـم مصـرعٍ وعظـتْ بـه بنيهـا ولكـن عـن مصارعهـا عَمُـوا
سقَتْهم بكأس الحبِّ حتَّىٰ إذا انتشَوا سقتهم كؤوسَ السُّمِّ والقومُ قد ظَمُوا

وأعجبُ ما في العبد رؤية هذه الـ ـعظائمِ منها وهو فيها متيَّمُ

وأعجبُ من ذا أنَّ أحبابها الأُلىٰ تُهينُ ولِلأعداء تَرْعَىٰ وتُكرِمُ

وذلك برهانٌ علىٰ أنَّ قدرَها جناحُ بَعوضٍ أو أدقُّ وألأَمُ

وحسبُك ما قال الرسولُ ممثِّلًا لها ولدار الخلد والحقُّ يُفْهَمُ

كما يُدخِل الإنسانُ في اليمِّ إصبعًا وينزعُها منه فما ذاك يغنمُ

ألا ليتَ شعري هل أبيتَنَّ ليلةً علىٰ حذرٍ منها وأمريَ مُحكمُ

وهل أَرِدَنْ ماءَ الحياةِ وأرتوي علىٰ ظمأٍ من حوضه وهو مُفعَمُ

وهل تبدوَنْ أعلامُهم بعدما سَفَتْ عليها السوافي تستبينُ وتُعلَمُ

وهل أفرُشَنْ خدِّي ثرىٰ عَتَباتِهم خضوعًا لهم كيما يرِقُّوا ويرحموا

وهل أَرَيَنْ نفسي طريحًا ببابهم وطيرُ أماني الحبِّ فوقي تُحَوِّمُ

فوا أسفا تفنىٰ الحياةُ وتنقضي وعتبُكُم باقٍ، بقيتُمْ وعِشْتُمُ

فما منكمُ بدٌّ ولا عنكمُ غنًىٰ وما لِيَ من صبرٍ فأسلوَ عنكمُ

فمن شاءَ فليغضبْ سواكم فلا إذًا إذا كنتمُ عن عبدكم قد رضيتمُ

وعُقْبَىٰ اصطباري في رضاكم حميدةٌ ولكنَّها عنكم عِقَابٌ ومَغرمُ

وما أنا بالشاكي لما ترتضونه ولكنَّني أرضىٰ به وأسلِّمُ

وحسب انتسابي من بعيدٍ إليكمُ وذلك حظٌّ مثلُهُ يُتَيَمَّمُ

إذا قيل: هذا عبدهم ومحبُّهم تهلَّلَ بِشرًا ضاحكًا يتبسَّمُ

وها هو قد أبدىٰ الضراعةَ قائلٌ لكم بلسان الحال والحالُ يُعلَمُ

أحِبَّتَنَا عطفًا علينا فإنَّنا بنا ظمأٌ، والموردُ العذبُ أنتمُ

فيا ساهيًا في غَمْرةِ الجهلِ والهوىٰ صريعَ الأماني عن قليلٍ ستندَمُ

أَفِقْ قد دنا الوقتُ الذي ليس بعده سوىٰ جنَّةٍ أو حرِّ نارٍ تَضَرَّمُ

وبالسنَّة الغرَّاءِ كنْ متمسِّكًا هي العروة الوثقىٰ التي ليس تُفْصَمُ

تمسَّكْ بها مَسْكَ البخيل بمالهِ وعَضَّ عليها بالنواجذِ تَسْلَمُ

وإيَّاكَ ممَّا أحدث الناسُ بعدها فمرتعُ هاتيكَ الحوادثِ أوخَمُ

وهَيِّئْ جوابًا عندما تسمع النِّدا من الله يومَ العرضِ: ماذا أجبتمُ

بهِ رُسُلي لمَّا أتوكمْ، فمن يُجِبْ سواهم سيخزىٰ عند ذاك ويندمُ

وخذْ من تقىٰ الرحمن أسبغَ جُنَّةٍ ليومٍ به تبدو عيانًا جهنَّمُ

ويُنصبُ ذاك الجسرُ من فوق مَتْنها فهاوٍ ومخدوشٌ وناجٍ مسلَّمُ

ويأتي إلهُ العالمين لوعده فَيفْصِلُ ما بين العباد ويحكمُ

ويأخذ للمظلوم إذ ذاك حقَّه فيا ويحَ من قد كان للخلق يَظلِمُ

ويُنْشَر ديوانُ الحساب وتوضَع الـ ـموازينُ بالقسط الذي لا يُظَلَّمُ

فلا مُجْرِمٌ يَخْشَىٰ هناكَ ظُلامةً ولا مُحسِنٌ من أجره الذرَّ يُهضَمُ

وتشهد أعضاءُ المسيء بما جنىٰ لذاك علىٰ فيه المهيمنُ يَختِمُ

ويا ليتَ شعري كيف حالُكَ عندما تَطايرُ كُتْبُ العالمين وتُقسَمُ

أتأْخُذُ باليمنىٰ كتابَكَ أم ترىٰ بيُسراكَ خلفَ الظهرِ منك تُسلَّمُ

وتقرأ فيه كلَّ شيءٍ عملتَهُ فيُشرقُ منك الوجهُ أو هو يُظْلِمُ

تقـولُ: كتابـي هـاؤمُ فاقـرؤوهُ لـي ... يُبَشِّـرُ بالجنَّـاتِ حقًّـا ويُعلِـمُ
وإنْ تكـن الأخـرىٰ فإنَّـكَ قائِـلٌ ... ألا ليتنـي لـم أوتَـهُ فهـو مُغـرِمُ
فـلا والـذي شقَّ القلـوب وأودع الـ ... ـمحبَّةَ فيهـا حيـث لا تتصـرَّمُ
وحَمَّلهـا قلـبَ المحـبِّ وإنَّـهُ ... ليضعُـفُ عـن حمـل القميـص ويألمُ
وذلَّـلَ فيهـا أنفُسًـا دون ذلِّهـا ... حيـاضُ المنايـا فوقهـا هـي حُـوَّمُ
فلقـد فـازَ أقـوامٌ وحـازوا مَرابحًـا ... بتركهـم الدنيـا وَالاقبـالِ منهُـمُ
علـىٰ ربِّهـم طـولَ الحيـاة وحبِّهـم ... علـىٰ نهـجِ مـا قـد سنَّهُ فَهُـمُ هُـمُ

قاعدة شريفة عظيمة القدر

حاجةُ العبدِ إليها أعظمُ من حاجته إلىٰ الطعام والشراب والنفس، بل وإلىٰ الروح التي بين جنبيه

اعلـم أنَّ كلَّ حيٍّ سوىٰ الله فهو فقيرٌ إلىٰ جلـب مـا ينفعه ودفـع مـا يضره، والمنفعـة للحي مـن جنس النعيـم واللّـذة، والمضـرَّةُ من جنس الألـم والعذاب. فـلا بُدَّ لـه من أمريـن: أحدهمـا هـو المطلـوب المقصـود المحبـوب الـذي يَنتفعُ بـه ويلتذُّ بـه، والثـاني هـو المعيـن الموصِـل المحصِّـل لذلـك المقصـود، والمانـع لحصـول المكـروه، أو الدافـع لـه بعد وقوعـه.

فهاهنـا أربعـةُ أشـياء: أمـرٌ محبـوب مطلـوب الوجـود، والثـاني: أمـرٌ مكـروهٌ مطلـوب العـدم، والثالـث: الوسـيلة إلـىٰ حصـول المحبـوب، والرابـع: الوسـيلة إلـىٰ دفـع المكـروه. فهـذه الأمـور الأربعـة ضروريـةٌ للعبد، بـل ولـكلِّ حي سـوىٰ الله، لا يقـوم صلاحُـه إلا بهـا.

إذا عرف هذا فالله سبحانه وتعالىٰ هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له، وهو وحده المعين للعبد علىٰ حصول مطلوبه، فلا معبود سواه، ولا معين علىٰ المطلوب غيره، وما سواه هو المكروهُ المطلوبُ بُعْدُه، وهو المعينُ علىٰ دفعه؛ فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه.

وهذا معنىٰ قول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإنَّ العبادة تتضمن المقصود المطلوبَ علىٰ أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يُستعان به علىٰ حصول المطلوب ودفع المكروه. فالأول من مقتضىٰ ألوهيته، والثاني من مقتضىٰ ربوبيته؛ لأنَّ الإله هو الذي يُؤلَه فيعبَدُ محبَّةً وإنابةً وإجلالًا وإكرامًا، والربُّ هو الذي يرُبُّ عبدَه فيعطيه خَلْقَه، ثمَّ يهديه إلىٰ جميع أحواله ومصالحه التي بها كمالُه، ويهديه إلىٰ اجتناب المفاسد التي بها فسادُه وهلاكُه.

وفي القرآن سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين:

أحدها: قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله تعالىٰ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ [الممتحنة: ٤].

الخامس: قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨].

السادس: قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

السابع: قوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨- ٩].

ومما يقرِّر هذا أنَّ الله خلقَ الخلقَ لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاصِ له. فبذكره تطمئنُّ قلوبُهم، وبرؤيته في الآخرة تَقَرُّ عيونُهم. ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحبَّ إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أحبَّ إليهم من الإيمان به، ومحبتهم له، ومعرفتهم به.

وحاجتهم إليه في عبادتهم له وتألُّههم له كحاجتهم إليه -بل أعظم- في خلقه لهم، وربوبيته لهم، ورزقه لهم. فإنَّ ذلك هو الغاية المقصودة التي بها سعادتُهم وفوزهُم، وبها ولأجلها يصيرون عاملين متحرِّكين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذَّة ولا سرور بدون ذلك بحال. فمن أعرض عن ذكر ربِّه فإنَّ له معيشةً ضنْكًا، ويحشره يوم القيامة أعمىٰ. ولهذا لا يغفرُ الله لمن يشرك به شيئًا، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ولهذا كانت: «لا إلهَ إلا الله» أفضلَ الحسنات، وكان توحيدُ الإلهية الذي كلمته «لا إله إلا الله» رأسَ الأمر.

فأمَّا توحيد الربوبية الذي أقرَّ به كلُّ المخلوقات فلا يكفي وحده، وإن كان لا بُدَّ منه، وهو حجة علىٰ من أنكر توحيدَ الألوهية، فحقُّ الله علىٰ العبادِ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقُّهم عليه إذا فعلوا ذلك أن لا يُعَذِّبهم وأن يكرمهم إذا قدموا عليه.

وهذا كما أنَّهُ غايةُ محبوبِ العبدِ ومطلوبه، وبه سروره ولذَّته ونعيمه، فهو أيضًا محبوبُ الربِّ من عبده ومطلوبُه الذي يرضىٰ به. ويفرح بتوبة عبده إذا رجع إليه وإلىٰ عبوديته وطاعته أعظمَ من فرحِ من وجَدَ راحلتَه التي عليها طعامُه وشرابُه في أرض مَهْلكة بعد أن فقدها وأَيِسَ منها، وهذا أعظمُ فرحٍ يكون.

وكذلك العبد لا فَرَحَ له أعظمُ من فرحِه بوجود ربِّه، وأنسِه به، وطاعته له، وإقباله عليه، وطمأنينتِه بذكره، وعمارة قلبه بمعرفته، والشوقِ إلىٰ لقائه. فليس في الكائنات ما يسكن العبدُ إليه، ويطمئن به، ويتنعَّم بالتوجُّه إليه إلا الله سبحانه، ومن عبد غيرَه وأحبَّه -وإن حصل له نوع من اللَّذة والمودَّة والسكون إليه والفرَح والسرور بوجوده- ففسادُه به ومضرَّتُه وعطَبُه أعظمُ من فساد أكل الطعام المسموم اللذيذ الشهي الذي هو عذْبٌ في مبدئه، وعذابٌ في نهايته، كما قال القائل:

مآربُ كانت في الشباب لأهلها عِذابًا، فصارت في المشيب عَذَابا

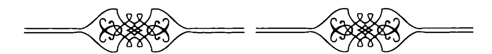
﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فإنَّ قوام السماوات والأرضِ والخليقة بأن تألـه الإلـهَ الحقَّ، فلو كان فيهما آلهةٌ أُخَرُ غيرُ الله لم يكن إلهًا حقًّا، إذ الإله الحق لا شريكَ له ولا سَمِيَّ له ولا مثل له، فلو تألَّهَتْ غيرَه لفسدت كلَّ الفساد بانتفاء ما به صلاحُها، إذ صلاحُها بتألُّهِ الإلهِ الحقِّ. كما أنَّها لا توجَد إلا باستنادها إلىٰ الربِّ الواحد القهَّار، ومستحيلٌ أن تستند في وجودها إلىٰ ربَّين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند في بقائها وصلاحها إلىٰ إلٰهَين متساويَين.

إذا عُرِفَ هذا فاعلم أنَّ حاجةَ العبد إلىٰ أن يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئًا في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب= أعظمُ من حاجة الجسد إلىٰ روحه، والعين إلىٰ نورها. بل ليس لهذه الحاجة نظيرٌ تُقاس به، فإنَّ حقيقة العبد قلبُه وروحُه، ولا صلاح

لها إلا بإله الذي لا إلهَ إلا هو. فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيتُه، ولا بدَّ لها من لقائه؛ ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له، ورضاه وإكرامه لها.

ولو حصلَ للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصلَ لم يدُمْ له ذلك، بل ينتقل من نوع إلىٰ نوع، ومن شخص إلىٰ شخص، ويتنعم بهذا في وقت، ثمَّ يتعذب به -ولا بد- في وقت آخر. وكثيرًا ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذّ به غيرَ مُنْعِمٍ له ولا مُلِذّ، بل قد يؤذيه اتصالُه به ووجودُه عنده، ويضرُّه ذلك. وإنَّما يحصل له بملابسته من جنس ما يحصل للجَرِب من لذَّة الأظفار التي تحكُّه، فهي تُدمي الجلد وتُحْرِقُه وتزيد في ضرره، وهو يؤثِر ذلك لما له في حكّها من اللَّذّة. وهكذا ما يتعذب به القلب من محبَّة غير الله، هو عذابٌ عليه ومضرَّةٌ وألمٌ في الحقيقة، لا تزيد لذَّتُه علىٰ لذَّة حكِّ الجرِب. والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤثِر أرجحَهما وأنفعَهما، والله الموفق المعين، وله الحجَّة البالغة كما له النعمة السابغة.

والمقصود أنَّ إله العبد الذي لا بُدَّ له منه في كلِّ حالة وكلِّ دقيقة وكلِّ طرفة عين فهو الإلهُ الحقُّ الذي كلُّ ما سواه باطل، الذي أينما كان فهو معه. وضرورته إليه وحاجته إليه لا تشبهها ضرورةٌ ولا حاجةٌ، بل هي فوق كلِّ ضرورة، وأعظمُ من كلِّ حاجة، ولهذا قال إمام الحنفاء: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].



فصل

١/ ١٢٢

بيان أصلين عظيمين يبنىٰ عليهما ما تقدم

وهذا مبني علىٰ أصلين: أحدهما: أنَّ نفسَ الإيمان بالله، وعبادته، ومحبته، وإخلاص العمل له، وإفراده بالتوكل عليه هو غذاءُ الإنسان وقوتُه وصلاحُه وقِوامُه؛ كما عليه أهل الإيمان، وكما دلَّ عليه القرآن؛ لا كما يقوله من يقوله: إنَّ عبادته تكليف ومشقَّة علىٰ خلاف مقصود القلب ولذَّته، بل لمُجرَّد الامتحان والابتلاء، كما يقوله منكرو الحكمة والتعليل، أو لأجلِ التعويض بالأجر لِما في إيصاله إليه بدون معاوضةٍ منَّة تكدره، أو لأجل تهذيب النفس ورياضتها واستعدادها لقبول العقليات، كما يقوله من يتقرَّب إلىٰ النبوات من الفلاسفة.

بل الأمرُ أعظمُ من ذلك كله وأجلُّ، بل أوامرُ المحبوب قرَّةُ العيون، وسرورُ القلوب، ونعيمُ الأرواح، ولذَّاتُ النفوس، وبها كمالُ النعيم. فقُرَّةُ عين المحب في الصلاة والحج، وفرَحُ قلبِه وسروره ونعيمه في ذلك، وفي الصيام والذكر والتلاوة؛ وأمَّا الصدقة فعجب من العجب.

وأمَّا الجهاد والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، والدعوةُ إلىٰ الله، والصبر علىٰ أعداء الله، فاللذَّة بذلك أمرٌ آخر لا يناله الوصف، ولا يدركه من ليس له نصيب منه، وكلُّ من كان به أقوَمَ كان نصيبُه من الالتذاذ به أعظم.

ومن غلُظَ فهمُه وكَثُف طبعُه عن إدراك هذا فليتأمَّلْ إقدامَ القوم علىٰ قتل آبائهم وأبنائهم وأحبابهم، ومفارقة أوطانهم، وبذل نحورهم لأعدائهم، ومحبتهم للقتل، وإيثارهم له علىٰ البقاء، وإيثار لوم اللائمين، وذمّ المخالفين علىٰ مدحهم وتعظيمهم. ووقوعُ هذا من البشرِ بدون أمرٍ يذوقُه قلبُه من

حلاوته ولذَّته وسروره ونعيمه ممتنع. والواقع شاهد بذلك، بل ما قام بقلوبهم من اللذّة والسرور والنعيم أعظم ممَّا يقوم بقلب العاشق الذي يتحمَّل ما يتحمله في موافقة رضىٰ معشوقه، فهو يلتذ به، ويتنعم به، لما يعلمُ من سرور معشوقة به:

فيا منكِرًا هذا تأخَّرْ فإنَّهُ حرامٌ علىٰ الخُفَّاشِ أن يُبْصِرَ الشَّمْسَا

فمن كان مرادُه وجهَ الله، وحياتُه في معرفته ومحبته، ونعيمُه في التوجّه إليه وذكرِه، وطمأنينتِه به وسكونه إليه وحدَه= عرف هذا وأقرَّ به.

الأصل الثاني: أنَّ كمال النعيم في الدَّار الآخرة أيضًا به تعالىٰ: برؤيته، وسماعِ كلامه، وقربه، ورضوانه؛ لا كما يزعمُ من يزعم أنَّه لا لـذَّةَ في الآخرة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والملبس والمنكوح. بل اللذّة والنعيم التامُّ في حظهم من الخالق تعالىٰ أعظمُ مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال.

وفي دعاء النبي ﷺ الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده» وابن حبان والحاكم في «صحيحيهما»[1]: **«وأسألُكَ لذَّة النَّظَرِ إلىٰ وجهكَ، والشَّوقَ إلىٰ لقائِكَ، في غيرِ ضرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فتنةٍ مُضِلَّة»**.

ولهذا قال تعالىٰ في حق الكفَّار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥- ١٦].

فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذي يُعذَّب به أعداؤه، ولذَّة النظر إلىٰ وجهه الكريم أعظمُ أنواع اللذات التي ينعَمُ بها أولياؤه، ولا تقومُ حظوظُهم من سائر المخلوقات مقامَ حظِّهم من رؤيته، وسماع كلامه، والدنوِّ منه وقربه.

---

(١) أحمد (١٨٣٢٥)، وابن حبان (١٩٧١)، والحاكم (١/ ٥٢٤- ٥٢٥).

وهـذان الأصـلان ثابتـان بالكتـاب والسنَّة، وعليهمـا أهـل العلـم والإيمـان، ويتكلَّـم فيهمـا مشـايخ الطريـق العارفـون، وعليهمـا أهـل السنَّة والجماعـة، وهما مـن فطـرة الله التـي فطـر النَّـاس عليهـا، ويحتجُّـون علىٰ مـن ينكرهمـا بالنصـوص والآثـار تـارةً، وبالـذوقِ والوجـد تـارة، وبالفطـرة تـارةً، وبالقيـاس والأمثـال تارةً.

وقـد ذكرنـا مجمـوع هـذه الطـرق في كتابنـا الكبيـر في المحبَّـة الـذي سـمَّيناهُ **«المـورد الصـافي، والظـل الضـافي»**[١] في المحبـة وأقسـامها وأنواعهـا وأحكامهـا وبيـان وجـوب تعلّقهـا بالإلـه الحقّ دون مـا سـواه، وذكرنـا مـن ذلـك مـا يزيـد علىٰ مائـة وجـه.

وممَّـا يوضـح ذلـك ويزيده تقريرًا أنَّ المخلوق ليس عنـده للعبد نفع ولا ضرٌّ ولا عطـاءٌ ولا منـع، بـل ربُّه سـبحانه الـذي خلَقه، ورزقَـه، وبصَّـره، وهداه، وأسـبغَ عليه نِعَمـه، وتحبَّـب إليـه بها مـع غناه عنـه، ومع تبغُّـض العبدِ إليه بالمعاصي مع فقـره إليـه. فـإذا مسَّـه الله بِضُـرٍّ فلا كاشـف لـه إلا هـو، وإذا أصابه بنعمةٍ فـلا رادَّ لها ولا مانـع؛ كمـا قـال تعالـىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]. ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

فالعبدُ لا ينفـع ولا يضـرّ ولا يعطىٰ ولا يمنع إلا بـإذن الله، فالأمر كله لله أوَّلًا وآخرًا وظاهـرًا وباطنًـا، هـو مقلّـب القلوب ومصرِّفها كيف يشـاء، المتفـرِّد بالضرّ والنفـع، والعطـاء والمنـع، والخفـض والرفـع ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾

---

(١) ما زال في عداد المفقود.

[هود: ٥٦]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهذا الوجه أظهرُ لعموم الناس من الوجه الأوَّل، ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر من الأوَّل. لكن من تدبَّر القرآن تبين له أنَّ الله سبحانه يدعو عباده بهذا الوجه إلىٰ الأوَّل. فهذا الوجه يقتضي التوكلَ علىٰ الله، والاستعانةَ به، والدعاءَ له، ومسألته دون ما سواه. ويقتضي أيضًا محبته وعبادته لإحسانه إلىٰ عبده، وإسباغ نعمه عليه؛ فإذا عبده وأحبَّه وتوكَّل عليه من هذا الوجه دخل في الوجه الأوَّل.

وهذا كمن نزل به بلاءٌ عظيم وفاقة شديدة أو خوفٌ مقلِق، فجعل يدعو الله ويتضرع إليه، حتَّىٰ فتح له من لذيذ مناجاته له بابَ الإيمان به والإنابة إليه ما هو أحبُّ إليه من تلك الحاجة التي قصدها أوَّلًا، لكنَّه لم يكن يعرف ذلك أوَّلًا حتَّىٰ يطلبه ويشتاقَ إليه، فعرَّفه إيَّاه بما أقامه له من الأسباب التي أوصلته إليه.

والقرآن مملوءٌ من ذكر حاجة العباد إلىٰ الله دون ما سواه، ومن ذكر نعمائه عليهم، ومن ذكر ما وعدهم به في الآخرة من صنوف النعيم واللذّات، وليس عند المخلوق شيء من هذا. فهذا الوجه يحقق التوكل علىٰ الله، والشكر له، ومحبته علىٰ إحسانه.

وممَّا يوضح ذلك ويقوِّيه أنّ في تعلّق العبد بما سوىٰ الله مضرَّةٌ عليه، إذا أخذَ منه القدرَ الزائد علىٰ حاجته المعينة له علىٰ عبودية الله، ومحبته، وتفريغ قلبه له. فإنَّه إن نالَ من الطعام والشراب فوق حاجاته ضرَّه أو أهلكه، وكذلك من النكاح واللباس. وإن أحبَّ شيئًا بحيث يُخالِله فلا بُدَّ أن يسأمه أو يفارقه، فالضررُ حاصلٌ له إن وُجد أو فُقِدَ، فإن فُقِدَ تعذَّب بالفراق وتألَّم، وإن وُجِدَ فإنَّهُ

يحصل له من الألم أكثر ممَّا يحصل له من اللذّة. وهذا أمرٌ معلومٌ بالاعتبار والاستقراء أنَّ كلَّ من أحبَّ شيئًا دون الله لغير الله، فإنَّ مضرته أكثرُ من منفعته، وعذابَه أعظمُ من نعيمه.

يزيدُ ذلك إيضاحًا أنَّ اعتمادَه على المخلوق وتوكُّلَه عليه يُوجِب له الضررَ من جهته، فإنَّه يُخْذَل من تلك الجهة. وهذا أيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراءِ. فإنَّه ما علَّق العبدُ رجاءه وتوكلَه بغير الله إلا خابَ من تلك الجهة، ولا استنصرَ بغيره إلا خُذِلَ.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١- ٨٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤-٧٥].

وقال تعالىٰ عن إمام الحنفاء إنَّه قال للمشركين: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

ولمَّا كان غايةُ صلاحِ العبد في عبادة الله وحدَه، واستعانته به وحده كان في عبادة غيره والاستعانة بغيره غايةُ مضرته.

وممَّا يوضح الأمرَ في ذلك ويبينه أنَّ الله سبحانه غني حميد، كريم رحيم، فهو محسِن إلىٰ عبده مع غناه عنه، يريد به الخير ويكشف عنه الضر، لا لجلبِ منفعةٍ إليه سبحانه ولا لدفع مضرَّة، بل رحمةً وإحسانًا وجودًا محضًا. فإنَّه رحيم لذاته، محسن لذاته، جواد لذاته، كريم لذاته؛ كما أنَّهُ غني لذاته، قادر

لذاتـه، حيٌّ لذاتـه. فإحسـانه وجـوده وبـرُّه ورحمتـه مـن لـوازم ذاتـه، لا يكـون إلا كذلـك؛ كمـا أنَّ حياتـه وقدرتـه وغنـاه مـن لـوازم ذاتـه، فـلا يكـون إلا كذلك.

وأمَّا العباد فلا يُتصوَّر أن يُحسِنوا إلا لحظوظهم، فأكثرُ ما عندهم للعبد أن يحبوه، ويعظِّموه، ويجلبوا له منفعةً، ويدفعوا عنه مضرَّة. وذلك من تيسير الله وإذنه لهم به، فهو في الحقيقة وليُّ هذه النعمة ومُسْدِيها ومُجرِيها علىٰ أيديهم. ومع هذا فإنَّهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد، فإنَّهم إذا أحبُّوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته، سواءٌ أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر.

فإذا أحبّوا الأنبياء والأولياءَ، وطلبوا لقاءهم، فهم يحبون التمتع برؤيتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك. وكذلك من أحبَّ إنسانًا لشجاعته أو رياسته أو جماله أو كرمه، فهو يحبُّ أن ينال حظَّه من تلك المحبة، ولولا التذاذُه بها لما أحبَّ ذلك.

وإن جلبوا له منفعةً كخدمةٍ ومالٍ، أو دفعوا عنه مضرَّةً كمرض وعدوٍّ -ولو بالدعاء- فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله. فأجناد الملوك، وعبِيدُ المالِك، وأُجَراء المستأجِر، وأعوانُ الرئيس كلُّهم إنَّما يسعون في نيل أغراضهم به، ولا يعرِّج أكثرُهم علىٰ قصد منفعة المخدوم إلا أن يكون قد عُلِّم وهُذِّبَ من جهة أخرىٰ، فيدخل ذلك في الجهة الدينية، أو يكون فيه طبعُ عدلٍ وإحسانٍ من باب المكافأة والرحمة؛ وإلا فالمقصودُ بالقصد الأوَّل هو منفعة نفسه.

وهذا من حكمة الله التي أقام بها مصالح خلقه، إذ قسَّم بينهم معيشتَهم في الحياة الدنيا، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضًا سُخريًّا.

١/ ١٣٠

فصل

الفرق بين منفعة الحق ومنفعة الخلق

إذا تبيَّن هذا ظهر أنَّ أحدًا من المخلوقين لا يقصد منفعتَك بالقصد الأوَّل، بل إنَّما يقصد منفعته بك، وقد يكون عليك في ذلك ضرر إذا لم يراع المحبُّ العدلَ، فإذا دعوتَه فقد دعوتَ من ضرُّه أقربُ من نفعه. **وأمَّا الربُّ تبارك وتعالىٰ فهو يريدك لك ولمنفعتك لا لينتفع بك، وذلك منفعة لك محضة لا ضرر فيها.**

فتدبَّرْ هذا حقَّ التدبُّر وراعِه حقَّ المراعاة، فملاحظتُه تمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعته لك، فإنَّه لا يريد ذلك البتةَ بالقصد الأوَّل، بل إنَّما يريد انتفاعه بك عاجلًا أو آجلًا، فهو يريد نفسه لا يريدك، ويريد نفع نفسه بك لا نفعك بنفسه. فتأمَّل ذلك، فإنَّ فيه منفعةً عظيمةً، وراحةً، ويأسًا من المخلوقين، وسدًّا لباب عبوديتهم، وفتحًا لباب عبودية الله وحده. فما أعظمَ حظَّ من عرفَ هذه المسألة ورعاها حقَّ رعايتها!

ولا يحملنَّكِ هذا علىٰ جفوة النَّاسِ، وترك الإحسان إليهم واحتمال أذاهم، بل أحْسِن إليهم لله لا لرجائهم، فكما لا تَخَفْهم فلا تَرْجُهم.

وممَّا يبين ذلك أنَّ غالبَ الخلق يطلبون إدراك حاجتهم بك، وإن كان ذلك ضررًا عليك، فإنَّ صاحب الحاجة أعمىٰ لا يرىٰ إلا قضاءَها. فهم لا يبالون بمضرَّتك إذا أدركوا منك حاجاتهم، بل لو كان فيها هلاكُ دنياك وآخرتك لم يبالوا بذلك.

وهذا إذا تدبَّره العاقل علم أنَّه عداوة في صورة صداقة، وأنَّهُ لا أعدىٰ

للعاقل اللبيب من هذه العداوة. فهم يريدون أن يُصَيِّروك كالكِير، تنفخ بطنَك وتعصر أضالعَك في نفعهم ومصالحهم، بل لو أبيح لهم أكلُك لجزَرُوك كما يجزُرون الشاة! وكم يذبحونك كلَّ وقت بغير سكينٍ لمصالحهم، وكم اتخذوك جسرًا ومعبرًا لهم إلىٰ أوطارهم وأنت لا تشعر، وكم بعتَ آخرتك بدنياهم وأنت لا تعلم، وربما علمتَ! وكم بعتَ حظَّك من الله بحظوظهم منك، ورُحْتَ صفر اليدين! وكم فوَّتوا عليك من مصالح الدَّارين، وقطعوك عنها، وحالوا بينك وبينها؛ وقطعوا عليك طريق سفرك إلىٰ منازلك الأولىٰ ودارك التي دُعِيتَ إليها، وقالوا: نحن أحبابك، وخدمك، وشيعتك وأعوانك، والساعون في مصالحك؛ وكذبوا والله! إنْ هم إلا أعداءٌ في صورة أولياءَ، وحربٌ في صورة مسالمين، وقُطّاع طريق في صورة أعوان. فوا غوثاه ثمَّ وا غوثاه بالله الذي يغيث ولا يغاث!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ [التغابن: ١٤].

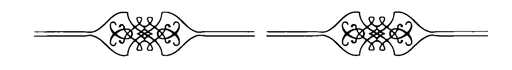
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

فالسعيد الرابح مَن عامل اللهَ فيهم، ولم يعاملهم في الله. وخاف الله فيهم، ولم يخفهم في الله. وأرضىٰ الله بسخطهم، ولم يُرضِهم بسخط الله. وراقب الله فيهم، ولم يراقبهم في الله. وآثرَ الله عليهم، ولم يؤثرهم علىٰ الله. وأماتَ خوفهم ورجاءهم وحبَّهم من قلبه، وأحيا حبَّ الله وخوفَه ورجاءَه فيه. فهذا هو الذي يكتَب عليهم، وتكون معاملته لهم كلُّها ربحًا، بشرط أن يصبر علىٰ أذاهم، ويتخذه مغنمًا لا مغرمًا، وربحًا لا خسرانًا.

وممَّا يوضح الأمر أنَّ الخلقَ لا يقدر أحدٌ منهم أن يدفع عنك مضرَّةً البتة، إلا بإذن الله ومشيئته وقضائه وقدره. فهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: **«واعلم أنَّ الخليقة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيءٍ كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك لم يضروك إلا بشيءٍ كتبه الله عليك»**[1].

وإذا كانت هذه حال الخليقة، فتعليق الخوف والرجاء بهم ضارّ غير نافع.



(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) والحديث صححه الترمذي وابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٦٢).

١/ ١٣٣

فصل

بيان أن المنفعة والمضرة لا تكون إلا من الله وحده

وجِمَاعُ هذا أنَّك إذا كنتَ غيرَ عالمٍ بمصلحتك، ولا قادرٍ عليها، ولا مريدٍ لها كما ينبغي، فغيرك أولىٰ أن لا يكون عالمًا بمصلحتك، ولا قادرًا عليها، ولا مريدًا لها. والله سبحانه هو يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله لا لمعاوضةٍ ولا لمنفعةٍ يرجوها منك، ولا لِتكثُّرٍ بك ولا لِتعزُّزٍ بك؛ ولا يخاف الفقر، ولا تنقص خزائنه علىٰ سعة الإنفاق.

ولا يحبس فضلَه عنك لحاجةٍ منه إليه واستغناءً به، بحيث إذا أخرجه أثَّر ذلك في غناه. وهو يحب الجود والبذل والعطاءَ والإحسان أعظمَ ممَّا تحبّ أنت الأخذ والانتفاع بما سألته، فإذا حبسه عنك فاعلم أنَّ هناك أمرَين لا ثالث لهما:

أحدهما: أن تكون أنت الواقف في طريق مصالحك، وأنت المعوِّق لوصول فضله إليك، وأنت حجر في طريق نفسك. وهذا الأمر هو الأغلبُ علىٰ الخليقة، فإنَّ الله سبحانه قضىٰ فيما قضىٰ به أنَّ ما عنده لا يُنال إلا بطاعته، وأنَّه ما استُجلِبتْ نِعَمُ الله بغير طاعته، ولا استُديمتْ بغير شكره، ولا عُوِّقتْ وامتنعتْ بغير معصيته. وكذلك إذا أنعمَ عليك ثمَّ سلبك النعمة فإنَّه لم يسلبها لبخلٍ منه ولا استئثار بها عليك، وإنَّما أنت المُسبِّب في سلبها عنك، فإنَّ الله لا يغيِّر ما بقومٍ حتَّىٰ يغيروا ما بأنفسهم. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فما أُزيلت نعمُ الله بغير معصيته:

إذا كنتَ في نعمةٍ فارْعَهَا فإنَّ الذنوبَ تُزيلُ النِّعَمْ[(١)]

فآفتُك من نفسك، وبلاؤك منك، وأنت في الحقيقة الذي بالغتَ في عداوتك، وبلغتَ من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدوُّ منك، كما قيل[(٢)]:

ما يبلغُ الأعداءُ من جَاهلٍ ما يبلغُ الجاهلُ من نفسِهِ

ومن العجب أنَّ هذا شأنك مع نفسك، وأنت تشكو المحسن البريء عن الشكاية، وتتهم أقداره وتعاتبها وتلومها! فقد ضيَّعْتَ فرصتك، وفرَّطت في حظك، وعجز رأيُك عن معرفة أسباب سعادتك وإرادتها، ثمَّ قعدت تعاتب القدرَ بلسان الحال والقال! فأنت المعنيُّ بقول القائل:

وعاجزُ الرَّأي مِضياعٌ لِفرصته حتَّىٰ إذا فاتَ أمرٌ عاتَبَ القَدَرا[(٣)]

ولو شعرتَ بدائك، وعلمتَ من أين دُهِيتَ ومن أين أُصِبتَ، لأمكنك تداركُ ذلك. ولكن قد فسدت الفطرة، وانتكس القلب، وأطفأ الهوىٰ مصابيح العلم والإيمان منه، فأعرضتَ عمَّن أصلُ بلائك ومصيبتك منه، وأقبلتَ تشكو مَنْ كلُّ إحسانٍ دقيقٍ أو جليلٍ وصل إليك فمنه. فإذا شكوته إلىٰ خلقه كنتَ كما قال بعض العارفين، وقد رأىٰ رجلًا يشكو إلىٰ آخر ما أصابه ونزل به: يا هذا تشكو من يرحمك، إلىٰ من لا يرحمك!

وإذا عَرَتْكَ مصيبةٌ فاصْبِرْ لها صبرَ الكريمِ فإنَّهُ بك أرحَمُ

وإذا شكوتَ إلىٰ ابنِ آدمَ إنَّما تشكو الرحيمَ إلىٰ الذي لا يرحمُ[(٤)]

---

(١) كان عمر بن عبد العزيز يتمثَّل به مع بيت آخر بعده. انظر: «تاريخ دمشق» (٥٤/ ٧٠).

(٢) قائله صالح بن عبد القدوس. انظر: «التمثيل والمحاضرة» (٧٧).

(٣) نسب إلىٰ الخليل بن أحمد في «المنتخل» (١/ ٤٦٣).

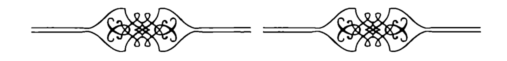
(٤) نسب إلىٰ الإمام زين العابدين في «الكشكول» (١/ ٧٤) مع اختلاف في الألفاظ.

وإذا علم العبدُ حقيقة الأمر، وعرف من أين أُتِيَ، ومن أيِّ الطرقِ أُغيرَ علىٰ سَرْحه، ومن أي ثَغرَةٍ سُرق متاعُه وسُلِبَ= استحيا من نفسه -إن لم يستَحْيِ من الله- أن يشكوَ أحدًا من خلقه، أو يتظلَّمهم، أو يرىٰ مصيبته وآفته من غيره.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

وقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. هذا، ومَن المخاطب بهذا الخطاب!

وقال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].



فصل

١/ ١٩٩

كل ما خلقه الله تعالىٰ ففيه حكمة

وإنَّما يتبين هذا ببيان وجود الحكمة في كلِّ ما خلقه الله وأمرَ به، وبيان أنَّه كلَّه خير من جهة إضافته إليه سبحانه، وأنَّه من تلك الإضافة خير وحكمة، وأنَّ جهة الشر منه من جهة إضافته إلىٰ العبد، كما قال النبي ﷺ في دعاءِ الاستفتاح: «**لبيك وسعدَيك، الخير في يديك، والشرُّ ليس إليك**»[1].

فهذا النفي يقتضي امتناعَ إضافةِ الشر إليه تعالىٰ بوجه، فلا يضافُ إلىٰ ذاته ولا صفاته ولا أسمائه ولا أفعاله. فإنَّ ذاته تعالىٰ منزَّهة عن كلِّ شرٍّ، وصفاته كذلك، إذ كلّها صفات كمالٍ ونعوتُ جلالٍ لا نقصَ فيها بوجه من الوجوه، وأسماؤه كلها حسنىٰ ليس فيها اسمُ ذمٍّ ولا عيب، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل لا تخرج عن ذلك البتة؛ وهو المحمود علىٰ ذلك كله، فيستحيل إضافة الشر إليه.

وتحقيق ذلك أنَّ الشرَّ ليس هو إلا الذنوب وعقوبتها، كما في خطبته ﷺ: «**الحمدُ لله، نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا**»[2]. فتضمَّن ذلك الاستعاذةَ من شرور النفوس، ومن سيئات الأعمال وهي عقوباتها. وعلىٰ هذا فالإضافة علىٰ معنىٰ «اللام» من باب إضافة المتغايرين. أو يقال: المرادُ السيئاتُ من الأعمال، فعلىٰ هذا الإضافةُ بمعنىٰ «من»، وهي من باب إضافة النوع إلىٰ جنسه.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

(٢) أخرجه أبو داود (٢١١٨)، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجه (١٨٩٢)، بإسناد صحيح.

وإذا عُرِفَ هذا، وأنَّه ليس في الوجود شرٌّ إلا الذنوب وموجَباتها، وكونُها ذنوبًا ناشئ من نفس العبد، فإنَّ سبَبَ الذنبِ الظلمُ والجهلُ، وهما من نفس العبد؛ كما أنَّ سببَ الخير والحمدِ العلمُ والحكمةُ والغنىٰ، وهي أمور ذاتية للرب تعالىٰ.

فذاتُ الرب تعالىٰ مستلزمة للحكمة والخير والجود، وذاتُ العبد مستلزمة للجهل والظلم، وما فيه من العلم والعدل فإنَّما حصل له بفضل الله عليه، وهو أمرٌ خارجٌ عن نفسه. فمن أراد الله به خيرًا أعطاه هذا الفضل، فصدرَ منه موجَبه من الإحسان والبر والطاعة. ومن أراد به شرًّا أمسكه عنه، وخلَّاه ودواعيَ نفسه وطبعه وموجَبها، فصدر منه موجَبُ الجهل والظلم من كلِّ شرٍّ وقبيح. وليس منعه لذلك ظلمًا منه تعالىٰ، فإنَّه فضلُه، وليس مَن منع فضله ظالمًا، لا سيما إذا منعه عن محل لا يستحقُّه ولا يليق به.

وأيضًا، فإنَّ هذا الفضل هو توفيقه وإرادته من نفسه أن يلطف بعبده، ويوفِّقَه، ويعينَه، ولا يخليَ بينه وبين نفسه؛ وهذا محضُ فعله وفضله، وهو سبحانه أعلمُ بالمحلِّ الذي يصلح لهذا الفضل، ويليق به، ويثمر فيه، ويزكو به.

وقد أشارَ تعالىٰ إلىٰ هذا المعنىٰ بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فأخبر سبحانه أنَّه أعلمُ بمن يعرف قدرَ هذه النعمة ويشكره عليها. فإنَّ أصلَ الشكر هو الاعترافُ بإنعام المنعم علىٰ وجه الخضوع له والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلًا بها لم يشكرها. ومن عرفها ولم يعرف المنعمَ بها لم يشكرها أيضًا. ومن عرفَ النعمة والمنعم لكن جحَدها كما يجحد

المنكِر لنعمة المنعِم عليه بها فقد كفرها. ومن عرف النعمةَ والمنعِمَ، وأقرَّ بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له، ويحبَّه، ويرضَ به وعنه، لم يشكرها أيضًا. ومن عرفها، وعرف المنعِم بها، وأقرّ بها، وخضعَ للمنعم بها، وأحبه ورضي به وعنه، واستعملها في محابِّه وطاعته= فهذا هو الشاكر لها.

فلا بُدَّ في الشكر من علم القلب، وعملٍ يتبع العلم، وهو الميل إلىٰ المنعم ومحبته والخضوع له، كما في «صحيح البخاري»[1] عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**سيِّدُ الاستغفار أن يقول العبد: اللَّهم أنت ربِّي لا إله إلا أنت، خلقتَني وأنا عبدُك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذُ بكَ من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي فإنَّه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها إذا أصبح موقنًا بها فماتَ من يومه دخل الجنَّة، ومن قالها إذا أمسىٰ موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنَّة**».

فقوله: «أبوءُ لك بنعمتك عليَّ» يتضمن الإقرار والإنابة إلىٰ الله بعبوديته، فإنَّ المَباءة هي التي يبوء إليها الشخص، أي يرجع إليها رجوع استقرار، والمباءَة هي المستقر. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «**من كذبَ عليَّ متعمِّدًا فلْيتبوَّأ مقعدَه من النار**»[2]، أي لِيتَّخِذْ مقعدَه من النَّار مَباءَةً يلزمه ويستقر فيه، لا كالمنزل الذي ينزله ثم يرحل عنه.

فالعبدُ يبوءُ إلىٰ الله عز وجل بنعمته عليه، ويبوءُ بذنبه، فيرجع إليه بالاعتراف بهذا وبهذا، رجوعَ مطمئن إلىٰ ربِّه منيبٍ إليه، ليس رجوعَ من أقبل عليه ثم أعرض عنه، بل رجوعَ من لا يُعرض عن ربه، بل لا يزال مقبلًا عليه، إذ كان

---

(١) برقم (٦٣٠٦، ٦٣٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (١١٠)، ومسلم (٣).

لا بد له منه. فهو معبوده، وهو مستعانه، لا صلاح له إلا بعبادته، فإن لم يكن معبودَه هلك وفسد، ولا يمكن أن يعبده إلا بإعانته. وفي الحديث: «**مثل المؤمن مثل الفرس في آخيَّته**[١]**، يجولُ ثمَّ يرجع إلىٰ آخيَّته. كذلك المؤمن يجولُ ثمَّ يرجع إلىٰ الإيمان**»[٢].

فقوله: «أبوءُ» يتضمَّن: إنِّي وإن جُلْتُ كما يجول الفرس -إمَّا بالذنب وإمَّا بالتقصير في الشكر- فإنِّي راجع منيب أوَّاب إليك، رجوعَ من لا غنىٰ له عنك.

وذكر النعمةَ والذنبَ لأنَّ العبد دائمًا يتقلَّب بينهما، فهو بين نعمةٍ من ربِّه وذنبٍ منه هو، كما في الأثر الإلهي: «ابنَ آدم خيري إليك نازل، وشرُّك إليَّ صاعد. كم أتحبَّب إليك بالنعم، وأنا غني عنك! وكم تتبغض إليَّ بالمعاصي، وأنت فقير إليَّ! ولا يزال المَلَك الكريم يعرُج إليَّ منك بعمل قبيح»[٣].

وكان في زمن الحسن البصري شابٌّ لا يُرىٰ إلا وحدَه، فسأله الحسن عن ذلك فقال: إنِّي أجدني بين نعمةٍ من الله وذنبٍ منِّي، فأريد أن أحدِثَ للنعمة شكرًا وللذنب استغفارًا، فذلك الذي شغلني عن النَّاس، أو كما قال. فقال له: «أنت أفقه عندي من الحسن»[٤].

فالخيرُ كلُّه من الله كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]. وقال تعالىٰ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ [الحجرات: ٧-٨].

---

(١) الآخيَّة: العروة تشد بها الدابة مثنية في الأرضِ. انظر: «اللسان» (أخا).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٢٦)، وصححه ابن حبان (٦١٦).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣١)، عن وهب بن مُنبِّه أنه قرأه في بعض الكتب السابقة.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٩٦).

وقال تعالىٰ: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، وهؤلاء المُنعَم عليهم هم المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

فالنعم كلُّها -من نعم الدِّين والدنيا، وثواب الأعمال في الدنيا والآخرة- من نِعَمِ الله ومنِّه وفضله علىٰ عبده. وهو تعالىٰ، وإن كان أجودَ الأجودين وأرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، فإنَّه أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، لا يضع الأشياءَ إلا في مواضعها اللائقة بها، ولا يناقض جودُه ورحمتُه وفضلُه حكمتَه وعدلَه.

ولو رأىٰ العقلاءُ أحدًا منهم قد وضع المِسك في الحشوش والأخلية، ووضَع النجاسات والقاذورات في مواضع الطيب والنظافة= لاشتدَّ نكيرهم عليه والقدحُ في عقله، ونسبوه إلىٰ السفَه وخلاف الحكمة. وكذلك لو وضع العقوبة موضع الإحسان، والإحسانَ موضع العقوبة لسفَّهوه، وقدحوا في عقله، كما قال القائل[1]:

ووضعُ النَّدىٰ موضع السَّيف بالعلا مُضِرٌّ كوضع السَّيفِ في موضعِ النَّدىٰ

وكذلك لو وضع الدواءَ موضع الغذاء، والغذاءَ موضع الدواء، والاستفراغَ حيث يكون اللائق به عدمُه، والإمساكَ حيث يليق الاستفراغ،

(١) هو المتنبي في «ديوانه» (٥٣٣).

وكذلك وضع الماء موضعَ الطعام، ووضع الطعام موضعَ الماء، وأمثال ذلك مما يخل بالحكمة، بل لو أقبل علىٰ الحيوان البهيم يريد تعليمه ما لم يُخلَق له من العلوم والصنائع؛ فمن بهرَتْ حكمتُه العقولَ والألباب كيف ينبغي له أن يضع الأشياء في غير مواضعها اللائقة بها؟

ومن المعلوم أنَّ أجلَّ نعمِه علىٰ عبده نعمةُ الإيمان به، ومعرفته، ومحبته، وطاعته، والرضا به، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والتزام عبوديته. ومن المعلوم أيضًا أنَّ الأرواح منها الخبيثُ الذي لا أخبث منه، ومنها الطيِّب، وبين ذلك؛ وكذلك القلوب منها القلب الشريف الزكي، والقلب الخسيس الخبيث. وهو سبحانه خلق الأضداد كما خلق الليل والنهار، والبر والبحر، والحر والبرد، والداءَ والدواء، والعُلْوَ والسفل؛ وهو أعلمُ بالقلوب الزاكية والأرواح الطيبة التي تصلح لاستقرار هذه النعم فيها، وإيداعها عندها، ويزكو بذرها فيها، فيكون تخصيصه لها بهذه النعم كتخصيص الأرض الطيبة القابلة للبذرِ بالبذرِ. فليس من الحكمة أن يُبذَرَ البُرُّ في الصخور والرمال والسِّباخ[1]، وفاعل ذلك غير حكيم، فما الظنُّ ببذر الإيمان والقرآن والحكمة ونور المعرفة والبصيرة في المحالّ التي هي أخبث المحالّ؟

فالله ﷻ أعلم حيث يجعل رسالاتِه أصلًا وميراثًا، فهو أعلمُ بمن يصلح لتحمُّلِ رسالته فيؤديها إلىٰ عباده بالأمانة، والنصيحة، وتعظيم المرسِل، والقيامِ بحقه، والصبر علىٰ أوامره، والشكر لنعمه، والتقرب إليه؛ ومن لا يصلح لذلك. وكذلك هو سبحانه أعلم بمن يصلح من الأمم لوراثة رُسله،

---

(١) جمع سَبَخَة، وهي الأرض التي تعلوها الملوحة، ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر.

والقيام بخلافتهم، وحمل ما بلَّغوه عن ربِّهم.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ الله تعالىٰ نظر في قلوب العباد، فرأىٰ قلب محمد ﷺ خيرَ قلوب أهل الأرض، فاختصه برسالته. ثمَّ نظر في قلوب العباد، فرأىٰ قلوبَ أصحابه خيرَ قلوب العباد، فاختارهم لصحبته»[١].

وفي أثر إسرائيلي: أنَّ الله تعالىٰ قال لموسىٰ عليه السلام: أتدري لمَ اخترتُك لكلامي؟ قال: لا يا رب. قال: لأنِّي نظرتُ في قلوب العباد، فلم أرَ فيها أخضعَ مِن قلبك لي. أو نحو هذا[٢].

فالربُّ سبحانه إذا علمَ من المحلّ أهليَّةً لفضله ومحبته ومعرفته وتوحيده حبَّبَ إليك ذلك، ووضعه فيه، وكتبه في قلبه، ووفَّقه له، وأعانه عليه، ويسَّرَ له طرقَه، وأغلق دونه الأبوابَ التي تحول بينه وبين ذلك. ثمَّ تولاه بلطفه وتدبيره وتيسيره وتربيته أعظمَ من تربية الوالد الشفيق الرحيم المحسِن لولده الذي هو أحبُّ شيء إليه. فلا يزال يعامله بلطفه، ويختصُّه بفضله، ويؤثره برحمته، ويمده بمعونته، ويؤيده بتوفيقه، ويُريه مواقع إحسانه إليه وبرِّه به، فيزداد العبدُ به معرفةً، وله محبَّةً، وإليه إنابةً، وعليه توكلًا؛ ولا يتولىٰ معه غيره، ولا يعبد سواه. وهذا هو الذي عرفَ قدرَ النعمة، وعرف المنعم، وأقرَّ بنعمته، وصرفها في مرضاته.

فاقتضَتْ حكمةُ الرب تعالىٰ وجودُه وكرمه وإحسانه أنْ بذَرَ في هذا القلبِ بَذْرَ الإيمان والمعرفة، وسقاه ماءَ العلم النافع والعمل الصالح، وأطلع عليه من نوره شمسَ الهداية، وصرف عنه الآفاتِ المانعة من حصولِ

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٠٠)، وسنده حسن.

(٢) نقل الذهبي نحوه في «السير» (١٥/ ٤٩٨)، عن وهب بن منبه.

الثمرة، فأنبتت أرضُه الزاكية من كل زوجٍ كريم، كما في «الصحيح»[(١)] من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مثلُ ما بعثني الله من الهدىٰ والعلم كمثل غيثٍ أصابَ أرضًا، فكان منها طائفةٌ طيبةٌ قبلت الماءَ، فأنبتت الكلأ والعُشبَ الكثير. وكان منها طائفة أجادبُ أمسكت الماء، فسقىٰ الناس وزرعوا. وأصاب منها طائفةً أخرىٰ إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمسك ماءً ولا تنبت كلأً. فذلك مَثَل مَن فقُه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به، ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدىٰ الله الذي أُرسِلتُ به**».

فمثَّل القلوب بالأرضِ التي هي محل النبات والثمار، ومثَّل الوحيَ الذي وصل إليها من بارئها وفاطرها بالماء الذي ينزله علىٰ الأرضِ. فمن الأرضِ أرضٌ طيبة قابلةٌ للماءِ والنبات، فلمَّا أصابها الماءُ أنبتت ما انتفع به الآدميون والبهائم: أقواتَ المكلفين وغيرهم. وهذه بمنزلة القلبِ القابل لهدىٰ الله ووحيه، المستعدِّ لزكائه وثمرته ونمائه، وهذا خير قلوب العالمين.

ومن الأرض أرضٌ صلبةٌ منخفضةٌ غيرُ مرتفعة ولا رابية، قابلةٌ لحفظ الماءِ واستقراره فيها، ففيها قوَّة الحفظ وليس فيها قوَّة النبات؛ فلمَّا حصلَ فيها الماءُ أمسكَتْه وحفظته، فورده الناس لشربهم وشرب مواشيهم، وسَقَوا منه زروعهم. وهذا بمنزلة القلب الذي حفظ الوحيَ، وضبَطَه، وأدَّاه إلىٰ من هو أفهمُ له منه، وأفقه منه فيه، وأعرف بمراده؛ وهذا في الدرجة الثانية.

ومن الأرض أرضٌ قِيعانٌ -وهي المستوية التي لا تنبت إمَّا لكونها سَبَخةً أو رمالًا، ولا يستقر فيها الماء- فإذا وقع عليها الماءُ ذهبَ ضائعًا لم تمسكه لشرب الناس، ولم تُنبِت به كلأً، لأنَّها غير قابلة لحفظ الماءِ ولا لنبات الكلأ

(١) البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

والعشب. وهذا حال أكثر الخلق، وهم الأشقياء الذين لم يقبلوا هدىٰ الله ولم يرفعوا به رأسًا، ومن كان بهذه المثابة فليس من المسلمين، بل لا بد لكلِّ مسلم أن يزكو الوحيُ في قلبه، فيُنبِت من العمل الصالح، والكلم الطيب، ونفع نفسه وغيره بحسب قدرته. فمن لم يُنبت قلبُه شيئًا من الخيرِ البتة، فهذا من أشقىٰ الأشقياء. فصلوات الله وسلامه علىٰ مَن الهدىٰ والبيانُ والشفاءُ والعصمةُ في كلامه وفي أمثاله.

والمقصود: أنَّ الله سبحانه أعلم بمواقع فضله ورحمته وتوفيقه، ومَن يصلح لها ممن لا يصلح، وأنَّ حكمته تأبىٰ أن يضع ذلك عند غير أهله، كما تأبىٰ أن يمنعه من يصلح له. وهو سبحانه الذي جعل المحلّ صالحًا وجعله أهلًا وقابلًا، فمنه الإعداد والإمداد، ومنه السبب والمسبَّب.

ومن اعترض بقوله: فهلَّا جعل المحالَّ كلها كذلك، وجعل القلوب علىٰ قلب واحد! فهو من أجهل الناس وأضلهم وأسفههم، وهو بمنزلة من يقول: لم خلق الأضداد، وهلَّا جعلها كلَّها شيئًا واحدًا! فلم خلق الليل والنهار، والفوق والتحت، والحر والبرد، والداءَ والدواء، والشياطين والملائكة، والروائح الطيبة والكريهة، والحلو والمر، والحسن والقبيح؟ وهل يسمح خاطرُ من له أدنىٰ مُسْكةٍ من عقل بمثل هذا السؤال الدَّالّ علىٰ حُمق سائله وفساد عقله؟ وهل ذلك إلا موجَب ربوبيته وإلهيته وملكه وقدرته ومشيئته وحكمته، ويستحيل أن يتخلف موجَب صفات كماله عنها.

وهل حقيقةُ الملك إلا بإكرام الأولياء وإهانة الأَعداءِ؟ وهل تمام الحكمة وكمال القدرة إلا بخلق المتضادات والمختلفات، وترتيبِ آثارها عليها، وإيصالِ ما يليق بكل منها إليه؟ وهل ظهورُ آثار أسمائه وصفاته في العالمِ إلا

من لوازم ربوبيته وملكه؟ فهل يكون رزَّاقًا وغفَّارًا وعفوًّا ورحيمًا وحليمًا، ولم يوجد من يرزقه، ولا من يغفر له، ويعفو عنه، ويحلم عنه، ويرحمه؟ وهل انتقامه إلا من لوازم ربوبيته وملكه؟ فممن ينتقم إن لم يكن له أعداء ينتقم منهم، ويُري أولياءَه كمال نعمتِه عليهم واختصاصه إيَّاهم دون غيرهم بكرامته وثوابه؟

وهل في الحكمة الإلهية تعطيلُ الخير الكثير لأجل شرٍّ جزئيٍّ يكون من لوازمه؟ فهذا الغيث الذي يحيي به اللهُ البلاد والعباد والشجر والدواب، كم يحبس من مسافر، ويمنع من قصَّار[1]، ويهدم من بناء، ويُعوِّق عن مصلحة؟ ولكن أين هذا مما يحصل به من المصالح؟ وهل هذه المفاسد في جنب مصالحه إلا كتَفْلةٍ في بحر؟ وهل تعطيلُه لئلا تحصل به هذه المفاسد إلا موجِبًا لأعظم المفاسد والهلاكِ؟

وهذه الشمس التي سخَّرها الله لمنافع عباده وإنضاج ثمارهم وأقواتهم وتربية أبدانهم وأبدان الحيوانات والطير، وفيها من المنافع والمصالح ما فيها= كم تؤذي مسافرًا وغيره بحرِّها، وكم تجفف رطوبةً وكم تُعطِش حيوانًا، وكم تحبس عن مصلحة، وكم تنشِف من مورد، وتحرق من زرع! ولكن أين يقع هذا في جنبِ ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والمُكملة؟ فتعطيل الخير الكثير لأجلِ الشر اليسير شرٌّ كبير، وهو خلافُ موجب الحكمة الذي تنزَّه الله سبحانه عنه.

قلتُ لشيخ الإسلام: فقد كان من الممكن خلق هذه الأمور مجرَّدةً عن

---

(١) القصار: الذي يدُقّ الثياب بالقَصَرة -قطعة من الخشب- ويبيضها.

المفاسد، مشتملةً علىٰ المصلحة الخالصة. فقال: خلقُ هذه الطبيعة بدون لوازمها ممتنع، فإنَّ وجودَ الملزوم بدون لازمه محال، ولو خُلِقت علىٰ غير هذا الوجه لكانت غير هذه، ولكان عالمًا آخر غير هذا.

ومعلوم أنَّ لوازم الخلق لا بدَّ منها فيه، ولا بدَّ للعُلْوِ من سفل، وللسفل من مركز. ولوازمُ العلو من السعة والإضاءة والبهجة والخيرات، وما هناك من الأرواح العلوية النيرة المناسبة لمحلها، وما يليق بها ويناسبها من الابتهاج والسرور والفرح والقوَّة والتجرُّد من علائق المواد السُّفلية= لا بدَّ منها. ولوازم السفل والمركز من الضيق والحصر، ولوازم ذلك من الظلمة والغلظ والشر، وما هنالك من الأرواح السفلية المظلمة الشرِّيرة وأعمالها وآثارها= لا بدَّ منها.

فهما عالمان علوي وسفلي، ومحلَّان وساكنان تناسبهما مساكنهما وأعمالهما وطبائعهما، وقد خُلِقَ كلٌّ من المحلّين معمورًا بأهليه وساكنيه، حكمةً بالغةً وقدرةً قاهرةً. وكلٌّ من هذه الأرواح لا يليق بها غيرُ ما خُلِقَتْ له ممَّا يناسبها ويشاكلها. قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٤] أي علىٰ ما يشاكله ويناسبه ويليق به، كما يقول الناس: «كلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضَح»[١].

فمن أرادَ من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورةً للأرواح الطيبة العلوية في مقام الصدق بين الملأ الأَعلىٰ فقد أراد ما تأباه حكمةُ أحكم الحاكمين. ولو أنَّ ملِكًا من ملوك الدنيا جعل خاصَّته وحاشيته سِفْلَةَ النَّاس وسَقَطَهم وغَرَثَهم الذين تناسبت أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم في القبح والرداءة والدناءة لقدَحَ النَّاسُ في ملكه وقالوا: لا يصلُح للمُلك. فما الظن

---

(١) انظر: «مجمع الأمثال» (٣/ ٥٨).

بمجاوري الملك الأعظم مالكِ الملوك في داره وتمتُّعِهم برؤية وجهه وسماع كلامه ومرافقتهم للملأ الأَعلىٰ الذين هم أطيبُ خلقه وأزكاهم وأشرفهم؟

أفَيليق بذلك الرفيق الأعلىٰ والمحل الأسنىٰ والدرجات العلىٰ روحٌ سفليةٌ أرضيةٌ قد أخلدت إلىٰ الأرضِ، وعكفت علىٰ ما تقتضيه طبائعها مما يشاركها فيه بل قد يزيد عليها الحيوانُ البهيم، وقصرت همَّتَها عليه، وأقبلت بكليَّتها عليه، لا ترىٰ نعيمًا ولا لذَّةً ولا سرورًا إلا ما وافق طباعها من مأكل ومشربٍ ومنكح من أين كان وكيف اتَّفق، فالفرقُ بينها وبين الحمير والكلاب والبقر بانتصاب القامة ونطق اللسان والأكل باليد، وإلا فالقلبُ والطبعُ علىٰ قلوب هذه الحيوانات وطباعها، وربما كانت طباعُ الحيوانات خيرًا من طباع هؤلاء وأسلمَ وأقبلَ للخير. ولهذا جعلهم الله سبحانه شرَّ الدواب، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢- ٢٣].

فهل يليق بحكمة العزيز الحكيم أن يجمع بين خير البرية وأزكىٰ الخلق وبين شرِّ البرية وشر الدواب في دارٍ واحدة، يكونون فيها علىٰ حالٍ واحدة من النعيم أو العذاب؟ قال تعالىٰ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥- ٣٦]. فأنكر عليهم الحكم بهذا، وأخرجه مخرجَ الإنكارِ لا مخرجَ الإخبار، لينبه العقول علىٰ أنَّ هذا ممَّا تُحيله الفطَرُ وتأباه العقول السليمة. وقال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]. وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]. وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

بل الواحد من الخلق لا تستوي أعاليه وأسافله، فلا يستوي عِقِبهُ وعينهُ، ولا رأسه ورجلاه، ولا يصلح أحدهما لما يصلح له الآخر. والله ﷻ قد خلق الخبيث والطيب، والسهل والحَزْن، والضار والنافع. وهذه أجزاء الأرض: منها ما يصلح جلاءً للعين، ومنها ما يصلح للأُتُّون[1] والنار.

وبهذا ونحوه يُعرَف كمال القدرة وكمال الحكمة. فكمال القدرة بخلق الأضداد، وكمالُ الحكمة بتنزيلها منازلها ووضع كلٍّ منها في موضعه. والعالِمُ من لا يُلقي الحربَ بين قدرة الله وحكمته، فإن آمن بالقدرة قدَحَ في الحكمة وعطَّلها، وإن آمن بالحكمة قدَح في القدرة ونقَضها، بل يربط القدرة بالحكمة، ويعلم شمولها لجميع ما خلقه الله ويخلقه، فكما أنَّه لا يكون إلا بقدرته ومشيئته، فكذلك لا يكون إلا بحكمته.

وإذا كان لا سبيل للعقول البشرية إلىٰ الإحاطة بهذا تفصيلًا، فيكفيها الإيمانُ بما تعلَم وتشاهد منه، ثمَّ تستدل علىٰ الغائب بالشاهد، وتعتبر ما علمت بما لم تعلم. وقد ضربَ الله سبحانه الأمثال لعباده في كتابه، وبيَّن لهم ما في لوازم ما خلقه لهم وأنزله عليهم من الغيث الذي به حياتهم وأقواتهم وحياةُ الأرضِ والدوابّ، وما خلقه لهم من النار التي بها صلاحُ أبدانِهم وأقواتِهم وصنائعهم= من الشر الجزئي المغمور بالإضافة إلىٰ الخير الحاصل بذلك، فقال تعالىٰ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

(١) هو الموقد الكبير.

فأخبر سبحانه أنَّ الماءَ بسبب مخالطته الأرض إذا سال فلا بد من أن يحمل السيل من الغثاء والوسخ وغيره زبدًا عاليًا على وجه السيل. فالذي لا يعرف ما تحت الزبد يقصرُ نظرَه عليه، ولا يرى إلا غثاءً ووسخًا ونحو ذلك، ولا يرى ما تحته من مادة الحياة. وكذلك ما يستخرج من المعادن من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها، إذا أُوقِد عليها في النار ليتهيأ للانتفاع بها خرَج منها خَبَثٌ ليس من جوهرها ولا يُنتفَع به، وهذا لا بدّ منه في هذا وهذا.

وقد ذمّ تعالى من ضعفت بصيرتُه من المنافقين، وعميَ عمَّا في القرآن ممَّا به يُنال كلُّ سعادة وعلم وهدًى وصلاح وخير في الدنيا والآخرة، ولم يجاوز بصرُه وسمعُه رعودَ وعيده وبروقَها وصواعقَها، وما أعدَّ الله لأعدائه من عذابه ونكاله وخزيه وعقابه، الذي هو -بالإضافة إلى ما فيه من حياة القلوب والأرواح، ومن المعارف الإلهية، وتبيين طريق العبودية التي هي غاية كمال العبد- يسيرٌ، وهو مقصود لتكميل ذلك وتمامه.

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧-٢٠]. فهكذا حال كل من قصَر نظرَه في بعض مخلوقات الربِّ تعالى على ما لا بدّ منه من شرٍّ جزئيّ جدًّا بالإضافة إلى الخير الكثير.

ولو لم يكن في هذه النشأة الإنسانية إلا خاصّته وأولياؤه من رسله وأنبيائه وأتباعهم لكفى بها خيرًا ومصلحة، ومَن عداهم -وإن كانوا أضعافَ

أضعافِهم- فهم كالقَشّ والزبالة وغثاء السيل، لا يُعْبَأ بكثرتهم، ولا يقدح في الحكمة الإلهية، بل وجود الواحد الكامل من هذا النوع يغتفَر معه آلاف مؤلّفة من النوع الآخر. فإنَّه إذا وُجِد واحدٌ يوازن البريّةَ ويرجَح عليها كان الخيرُ الحاصلُ بوجوده والحكمة والمصلحة أضعافَ الشرّ الحاصل من وجود أضداده، وأثبتَ وأنفعَ وأحبَّ إلىٰ الله من فواته، بتفويت ذلك الشرِّ المقابل له.

وهذا كالشمس، فإنّ الخير الحاصل بها أنفع للخلق وأكثر وأثبت وأصلح من تفويته بتفويت الشرّ المقابل له بها، وأين نفعُ الشمس وصلاحُ النبات والحيوان بها مِن نفع الرسلِ وصلاحِ الوجود بهم؟ بل أين ذلك من نفعِ سيّدِ ولدِ آدم، وصلاحِ القلوب والأبدان والدين والدنيا والآخرة به؟

وقد ضُرب للنفس الإنسانية وما فيها من الخير والشرّ مثَلٌ بدولابٍ أو طاحونٍ شديدِ الدوران، أيُّ شيء خطَفه ألقاه تحتَه وأفسده، وعنده قيِّمُه الذي يديره، وقد أحكمَ أمرَه لينتفع به ولا يضرَّ أحدًا. فربَّما جاءَ الغِرُّ الذي لا يعرف فيتقرَّب منه، فيخرق ثوبه أو بدنه، أو يؤذيه. فإذا قيل لصاحبه: لِمَ لَمْ تجعله ساكنًا لا يؤذي من اقترب منه؟ قال: هذه صفته اللازمة التي كان بها دولابًا وطاحونًا، ولو جُعِلَ علىٰ غير هذه الصفة لم تحصل به الحكمة المطلوبة منه.

وكذلك إذا قدَّرنا نار الأتُّون التي تُحرق ما وقع فيها، وعندها وقَّاد حاذق يحُشّها[1]، فإذا غفل عنها أفسدت. وإذا أرادَ أحدٌ أن يقرب منها نهاه وحذَّره، فإذا استغفله مَن قرب منها حتىٰ أحرقَتْه لم يُقَلْ لصاحب النَّار: هلَّا قلَّلتَ حرَّها لئلا تفسد من يقرب منها وتُحرقه؟ فإنَّه يقول: هذه صفتها التي لا يحصل المقصود منها إلا بها، ولو جعلتها دون ذلك لم تُحرق أحجارَ

(١) أي يوقدها.

الكِلْس[1]، ولـم تطبـخ الآجُـرّ، ولـم تُنضِـج الأطعمـة الغليظـة ونحـو ذلـك.

فما يحصل من الدولاب والطاحون ومن النَّارِ من نفعها هو من فضل الله ورحمته، وما يحصل بها من شرٍّ هو من طبيعتها التي خُلِقَت عليها، التي لا تكون نارًا إلا بها، فلو خرجت عن تلك الطبيعة لم تكن نارًا. وكذلك النفس، ما يحصل لها من شرٍّ فهو منها ومن طبيعتها ولوازم نقصها وعدمها، وما حصل لها من خيرٍ فهو من فضل الله ورحمته. والله خالقها وخالق كل شيء قام بها من قدرة وإرادة وعلم وعمل وغير ذلك.

فأمَّا الأمور العدمية فهي باقية علىٰ ما كانت عليه من العدم، والإنسان جاهل ظالم بالضرورة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فإنَّ الله أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا. والظلم هو النقص، كما قال تعالىٰ: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي لم تنقص منه شيئًا، وهي ظالمة نفسها فهي الظالمة والمظلومة، إذ كانت منقوصةً من كمالها بعدم بعض الكمالات أو أكثرها منها. وتلك الكمالات التي عدمت كان وجودُها سببًا لكمالاتٍ أخر، فصار عدمها مستلزمًا لعدم تلك الكمالات، فعَظُمَ النقص، واشتدَّ العيب بحسبه، وفقدت من لذَّاتها وسرورها ونعيمها وبهجتها وروحها بحسب ما فقدت من تلك الكمالات التي لا سعادة لها بدونها؛ فإنَّ أحد الموجودين قد يكون مشروطًا بالآخر فيستحيلُ وجوده بدونه، لأنَّ عدم الشرط يستلزمُ عدمَ المشروط. فإذا عدمت النفسُ هذا الكمالَ المستلزِمَ لكمالٍ آخر مثلِه أو أعلىٰ منه، وهي موصوفة بالنقص الذي هو الظلم والجهل ولوازمها من أصل الخلقة=

(١) الكِلس: الجبر.

صارت مستلزمة للشر، وقوَّةُ شرها وضعفُه بحسب قوتها وضعفها في ذاتها.

وتأمَّلْ أوَّلَ نقصٍ دخَلَ علىٰ أبي البشر وسرىٰ إلىٰ أولاده كيف كان من عدم العلمِ والعزمِ. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] والنسيان سواءٌ كان عدم العلم أو عدم الصبر كما فُسِّر بهما هاهنا فهو أمر عدمي. ولهذا قال آدم لما رأىٰ ما دخل عليه من ذلك: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فإنّه إذا اعترف بنقص حظِّ نفسِه -بما حصل لها من عدم العلم والصبر- بالنسيان الذي أوجبَ فواتَ حظِّه من الجنّة، ثمَّ قال: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فإنَّه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية، فيمنعْ أثرها وعقابها، ويقي العبدَ ذلك وإلَّا ضرَّتْه آثارُها ولا بدّ، كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوي بشرب التِّرياق ونحوه وإلَّا ضرَّه ولا بدّ. وإن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما به تصلُح النفس وتصير عالمةً بالحقّ عاملةً به وإلّا خسرِ، فالمغفرةُ تمنع الشرَّ، والرحمةُ توجب الخير، والربُّ سبحانه إن لم يغفر للإنسان فيقيه السيئاتِ، ويرحمْه فيؤتيه الحسناتِ وإلَّا هلك ولا بدَّ، إذ كان ظالمًا لنفسه ظلوما بنفسه. فإنَّ نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها، وهي متحرِّكة بالذات، فإن لم تتحرَّك إلىٰ الخير تحرَّكت إلىٰ الشرِّ فضرَّت صاحبَها. وكونُها متحرّكةً بالذات من لوازم كونها نفسًا لأنَّ ما ليس حسَّاسًا متحرِّكًا بالإرادة فليس نفسًا.

وفي «الصحيح»[1] عن النبي ﷺ: **«أصدق الأسماء حارث وهمَّام»**،

---

(١) ليس في أحد «الصحيحين»، وإنما أخرجه أحمد (١٩٠٣٢) وأبو داود (٤٩٥٠)، وأعلّه أبو حاتم الرازي بالإرسال. انظر: «علل ابن أبي حاتم» (٢/ ٣١٢- ٣١٣).

فالحارث: الكاسب العامل، والهمَّام: الكثير الهمّ، والهمُّ مبدأ الإرادة، فالنفس لا تكون إلّا مريدةً عاملةً؛ فإن لم توفَّق للإرادة الصالحة وإلّا وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضارّ.

وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩- ٢٢]، فأخبر تعالىٰ أنَّ الإنسان خُلِق علىٰ هذه الصفة، وإنّ من كان علىٰ غيرها فلأجل ما زكَّاه الله به من فضله وإحسانه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، قال طاووس ومقاتل وغيرهما: لا يصبر عن النساءِ[(١)]. وقال الحسن: هو خلقه من ماءٍ مهينٍ[(٢)]. وقال الزجَّاج: ضعف عزمُه عن قهر الهوىٰ[(٣)]. والصواب أنَّ ضعفه يعمُّ هذا كلّه، وضعفُه أعظم من هذا وأكثر، فإنَّه ضعيف البِنْية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر. والآفات إليه مع هذا الضعف أسرعُ من السيل في الحَدور[(٤)]. فبالاضطرار لا بدَّ له من حافظ معين يُقوِّيه ويُعينه وينصره ويساعده، فإن تخلَّىٰ عنه هذا المُسْعِد[(٥)] المعين فالهلاكُ أقرب إليه من نفسه.

وخلقُه علىٰ هذه الصفة هو من الأمور التي يُحمَد عليها الربُّ جلَّ جلاله ويُثنىٰ عليه بها، وهو موجَب حكمته وعزَّته. فكل ما يحدث من هذه الخلقة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٢٦).
(٢) «معالم التنزيل» (٢/ ١٩٩).
(٣) «زاد المسير» (٢/ ١٩٩)، وفي «معاني الزجاج» (٢/ ٤٤) بمعناه.
(٤) الحَدور: الموضع المنحدر.
(٥) من أسعَدَ: أعانَ.

وما يلزمُ عنها فهو بالنسبة إلىٰ الخالق سبحانه خيرٌ وعدلٌ وحكمة، إذ مصدر هذه الخلقة عن صفات كماله من غناه وعلمه وعزته وحكمته ورحمته. وبالنسبة إلىٰ العبدِ ينقسمُ إلىٰ خير وشر وحسن وقبيح، كما يكون بالنسبة إليه طاعةً ومعصيةً وبرًّا وفجورًا، بل أخص من ذلك، مثل كونه صلاةً وصيامًا وحجًّا وزِنًا وسرقةً وأكلًا وشربًا، إذ ذلك موجَب حاجته وظلمه وجهله وفقره وضعفه، وموجَب أمر الله له ونهيه. فللَّه سبحانه الحكمة البالغة والنعمة السابغة والحمد المطلق علىٰ جميع ما خلقه وأمر به، وعلىٰ ما لم يخلقه ممَّا لو شاء لخلقه، وعلىٰ توفيقه الموجِب لطاعته، وعلىٰ خِذلانه المُوقع في معصيته.

وهو سبحانه سبقت رحمتُه غضبَه، وكتب علىٰ نفسه الرحمة، وأحسنَ كل شيءٍ خلقه، وأتقن كلَّ ما صنع، وما يحصل للنفوس البشرية من الضرر والأذىٰ فله سبحانه في ذلك أعظم حكمة مطلوبة، وتلك الحكمة إنَّما تحصل علىٰ الوجه الواقع المقدر بما خلق لها من الأسباب التي لا تُنال غاياتُها إلا بها، فوجود هذه الأسباب بالنسبة إلىٰ الخالق الحكيم سبحانه هو من الحكمة.

ولهذا يَقْرُن سبحانه في كتابه بين اسمه «الحكيم» واسمه «العليم» تارةً، وبينه وبين اسمه «العزيز» تارةً، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦] [الأنفال: ٧١]، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٠؛ المائدة: ٣٨]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨، ١٦٥؛ الفتح: ٧، ١٩]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، فإنَّ العزَّة تتضمَّن القوَّة، ولله القوَّة جميعًا.

يقال: عزَّ يعزُّ -بفتح العين- إذا اشتدَّ وقوي، ومنه الأرض العَزاز للصلبة

الشديدة؛ وعزَّ يعِزّ -بكسر العين- إذا امتنع ممن يرومه، وعزَّ يعُزُّ -بضم العين- إذا غلب وقهر. فأعطَوا أقوىٰ الحركات -وهي الضمة- لأقوىٰ المعاني وهو الغلبة والقهر للغير، وأضعفَها -وهي الفتحة- لأضعف هذه المعاني وهو كون الشيء في نفسه صُلبًا، ولا يلزمُ من ذلك أن يمتنع عمَّن يرومه؛ والحركة المتوسطة -وهي الكسرة- للمعنىٰ المتوسط وهو القوي الممتنع عن غيره، ولا يلزمُ منه أن يقهر غيرَه ويغلبه. فأعطوا الأقوىٰ للأقوىٰ، والأضعف للأضعف، والمتوسط للمتوسط.

ولا ريبَ أنَّ قهر المريد عمَّا يريده من أقوىٰ أوصاف القادر، فإنَّ قهرَه عن إرادته وجعله غيرَ مريد كان أقوىٰ أنواع القهر، والعز ضد الذل، والذل أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة والعزَّة، ولهذا يوصف به المؤمن، ولا يكون ذمًّا له، بخلاف الكبر. قال رجلٌ للحسن البصري: إنَّك متكبر. فقال: «لستُ بمتكبر، ولكنِّي عزيز». وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما زلنا أعزَّةً منذ أسلم عمر»[١]. وقال النبي ﷺ «**اللَّهم أعِزَّ الإسلامَ بأحد هذين الرجلين: عمرَ بن الخطاب، أو أبي جهل بن هشام**»[٢].

وفي بعض الآثار: إنَّ النَّاس يطلبون العزَّة في أبواب الملوك، ولا يجدونها إلا في طاعة الله عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٨١)، وصححه الترمذي، وابن حبان (٦٨٨١).

وفي الحديث: «اللَّهم أعِزَّنا بطاعتك ولا تذلَّنا بمعصيتك»[(١)].

وقال بعضهم: من أراد عزًّا بلا سلطان، وكثرةً بلا عشيرة، وغنًىٰ بلا مال، فلينتقل من ذل المعصية إلىٰ عز الطاعة.

فالعزَّة من جنس القدرة والقوَّة، وقد ثبت في «الصحيح»[(٢)] عن النبي ﷺ أنَّهُ قال: **«المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير»**.

فالقدرةُ إن لم تكن معها حكمة، بل كان القادر يفعل ما يريده بلا نظرٍ في العاقبة، ولا حكمة محمودة يطلبها بإرادته ويقصدها بفعله= كان فعله فسادًا، كصاحب شهوات الغي والظلم، الذي يفعل بقوَّته ما يريده من شهوات الغي في بطنه وفرجه ومن ظلم الناس، فإنّ هذا وإن كان له قوَّة وعزَّة لكن لمَّا لم يقترن بها حكمة كان ذلك معونةً علىٰ شرِّه وفساده.

وكذلك العلمُ كمالُه أن يقترن به الحكمة، وإلا فالعالم الذي لا يريد ما تقتضيه الحكمة وتوجبه، بل يريد ما يهواه= سفيهٌ غاوٍ، وعِلْمُه عون له علىٰ الشرِّ والفساد.

هذا إذا كان عالمًا قادرًا مريدًا له إرادةً من غير حكمة. وإن قُدِّر أنَّه لا إرادة له بحال فهذا أوَّلًا ممتنع من الحي، فإنَّ وجود الشعور بدون حب ولا بغض ولا إرادة ممتنعٌ كوجود إرادةٍ بدون الشعور. وأمَّا القدرة والقوَّة إذا قدّر وجودُها بدون إرادة فهي كقوة الجماد، فإنَّ القوَّة الطبيعية: التي هي مبدأ الفعل والحركة. وقد قال بعض النَّاس: إنَّ لمحلِّها شعورًا يليق به، واحتجَّ

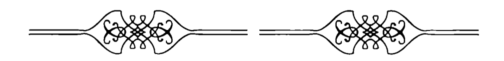
---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٢٨) من دعاء جعفر الصادق.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، وبقوله تعالىٰ: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]. وهذه المسألة كبيرة تحتاج إلىٰ كلامٍ لا يليق بهذا الموضع.

والمقصود أنَّ العلم والقدرة المجرَّدَين عن الحكمة لا يحصل بهما الكمال والصلاح، وإنَّما يحصل ذلك بالحكمة معهما. واسمه سبحانه «الحكيم» يتضمن حكمته في خلقه وأمره في إرادته الدينية والكونية، وهو حكيم في كلِّ ما خلقه، حكيمٌ في كلِّ ما أمر به.



١/ ٢٥٠

فصل

إثبات الحمد كله لله ﷻ

ويجمع هذين الأصلين العظيمين أصلٌ ثالثٌ هو عقد نظامهما وجامع شملهما، وبتحقيقه وإثباته علىٰ وجه يتم بناءُ هذين الأصلين، وهو: **إثبات الحمد كله لله رب العالمين.** فإنَّه المحمود علىٰ ما خلقه، وأمر به، ونهىٰ عنه. فهو المحمود علىٰ طاعات العباد ومعاصيهم، وإيمانهم وكفرهم. وهو المحمود علىٰ خلق الأبرار والفجار، والملائكة والشياطين، وعلىٰ خلق الرسل وأعدائهم. وهو المحمود علىٰ عدله في أعدائه، كما هو المحمود علىٰ فضله وإنعامه علىٰ أوليائه.

فكلُّ ذرَّةٍ من ذرَّات الكون شاهدة بحمده، ولهذا سبَّح بحمده السماوات السبع والأرض ومن فيهنَّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وكان من قول النبيّ ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «**ربَّنا ولك الحمد، مِلْءَ السماء وملءَ الأرض، وملءَ ما بينهما، وملءَ ما شئت من شيءٍ بعد**»(١)، فله سبحانه الحمد حمدًا يملأ المخلوقات والفضاءَ الذي بين الأرض والسماوات، ويملأ ما يقدَّر بعد ذلك ممَّا يشاء الله أن يملأ بحمده.

وقد اختلف النَّاس في معنىٰ كون حمده يملأ السماوات والأرض وما بينهما، فقالت طائفة: هذا علىٰ جهة التمثيل، أي لو كان أجسامًا لملأ السماوات والأرضِ وما بينهما. قالوا: فإنَّ الحمد من قبيل المعاني والأعراض التي لا تُملأ بها الأجسام، ولا تُملأ الأجسام إلا بالأجسام.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٦).

والصواب أنَّه لا يحتاج إلىٰ هذا التكلف البارد، فإنَّ ملءَ كلِّ شيءٍ يكون بحسب المالئ والمملوءِ، فإذا قيل: امتلأ الإناءُ ماءً، وامتلأت الجفنةُ طعامًا، فهذا الامتلاء نوع. وإذا قيل: امتلأت الدَّارُ رجالًا، وامتلأت المدينةُ خيلًا ورجالًا، فهذا نوع آخر. وإذا قيل: امتلأَ الكتابُ سطورًا، فهذا نوع آخر.

وإذا قيل: امتلأت مسامع الناس حمدًا أو ذمًّا لفلان، فهذا نوع آخر، كما في أثر معروف[(١)]: «**أهل الجنَّة مَن امتلأت مسامِعُه من ثناء الناس عليه، وأهل النَّار من امتلأت مسامعُه من ذمِّ النَّاس له**».

وقال عمر بن الخطاب في عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: «كُنَيفٌ مُلِئ عِلمًا»[(٢)]. ويقال: فلان علمه قد ملأ الدنيا، وكان يقال: «ملأ ابنُ أبي الدنيا الدنيا علمًا». ويقال: صيتُ فلانٍ قد ملأ الدنيا فطبق الآفاقَ، وحبُّه قد ملأ القلوب، وبغضُ فلانٍ قد ملأ القلوب، وامتلأ قلبُه رعبًا.

وهذا أكثر من أن تستوعب شواهدُه، وهو حقيقة في بابه. وجعلُ الملء والامتلاء حقيقةً للأجسام خاصَّةً تحكمٌ باطلٌ ودعوىٰ لا دليل عليها البتة. والأصلُ: الحقيقة الواحدة، والاشتراك المعنوي هو الغالب علىٰ اللغة والأفهام والاستعمال، فالمصير إليه أولىٰ من المجاز والاشتراك اللفظي.

وليس هذا موضع تقرير هذه المسألة، إذ المقصود أنَّ الرب تعالىٰ أسماؤه كلها حسنىٰ ليس فيها اسمُ سوءٍ، وأوصافه كلها كمال ليس فيها صفةُ نقصٍ، وأفعاله كلها حكمة ليس فيها فعلٌ خالٍ عن الحكمة والمصلحة، وله المثل

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٤) مرفوعًا، وصححه البوصيري.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٩٧)، وسنده صحيح، والكُنَيف: تصغيرُ تعظيمٍ للكِنْف، وهو الوعاء الذي يضع فيه الراعي أداته ومتاعه. انظر: «اللسان» (كنف).

الأَعلىٰ في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم. موصوف بصفة الكمال، مذكور بنعوت الجلال، منزَّه عن الشبيه والمثال، ومنزَّه عمَّا يضاد صفاتِ كماله: فمنزَّه عن الموت المضاد للحياة، وعن السِّنَة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيُّومية. وموصوف بالعلم، منزَّه عن أضداده كلِّها من النسيان والذهول وعزوب شيءٍ عن علمه. موصوف بالقدرة التامة، منزَّه عن ضدها من العجز واللغوب والإعياء. موصوف بالعدل، منزَّه عن الظلم. موصوف بالحكمة، منزَّه عن العبث والسفه. موصوف بالسمع والبصر، مُنزَّهٌ عن أضدادهما من الصمَم والبكَم. موصوف بالعلو والفوقية، منزَّه عن ضد ذلك. موصوف بالغنىٰ التام، منزَّه عمَّا يضاده بوجه من الوجوه. ومستحق للحمد كله، فيستحيل أن يكون غيرَ محمود، كما يستحيل أن يكون غيرَ قادرٍ ولا خالقٍ ولا حيٍّ. بل الحمد كله واجب له لذاته، فلا يكون إلا محمودًا، كما لا يكون إلا إلهًا وربًّا وقادرًا.

فإذا قيل: «الحمدُ كله لله»، فهذا له **معنيان**:

أحدهما: أنَّه محمود علىٰ كلِّ شيء، وبكلِّ ما يُحمَد به المحمودُ الحمدَ التامَّ. وإن كان بعضُ خلقه يُحمَد أيضًا، كما تُحمَد رسلُه وأنبياؤه وأتباعهم، فذلك من حمده تبارك وتعالىٰ، بل هو المحمود بالقصد الأوَّل وبالذَّات، وما نالوه من الحمد فإنَّما نالوه بحمده، فهو المحمود أوَّلًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا. وهذا كما أنَّه بكلِّ شيءٍ عليم، وقد علم غيرُه من علمه ما لم يكن يعلَمه بدون تعليمه.

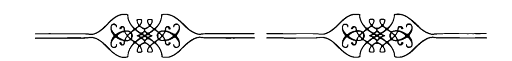
وفي الدعاء المأثور: «**اللَّهم لك الحمدُ كلُّه، ولك الملكُ كلُّه، وبيدك**

الخير كلُّه، وإليك يرجع الأمر كلُّه، أسألك من الخير كلِّه وأعوذُ بك من الشرِّ كلِّه»[(١)].

وهو سبحانه له المُلك، وقد آتىٰ من مُلكه بعضَ خلقه؛ وله الحمد، وقد آتىٰ غيره من الحمد ما شاءَ. وكما أنَّ مُلك المخلوق داخلٌ في ملكه، فحمدُه أيضًا داخلٌ في حمده، فما من محمود يحمَد علىٰ شيءٍ ما -دقَّ أو جلَّ- إلا والله المحمودُ عليه بالذَّات، والأولية، والأولوية أيضًا. وإذا قال الحامد: «اللهم لك الحمد»، فالمراد به: أنت المستحقُّ لكل حمدٍ، ليس المراد به الحمد الخارجي فقط.

المعنىٰ الثاني: أن يقال: «لك الحمد كله» أي الحمد التام الكامل، فهذا مختص بالله ﷻ، ليس لغيره فيه شركة.

والتحقيق أنَّ له الحمد بالمعنيين جميعًا، فله عموم الحمد وكماله، وهذا من خصائصه سبحانه. فهو المحمود علىٰ كلِّ حال، وعلىٰ كلِّ شيء، أكملَ حمدٍ وأعظمَه، كما أنَّ له الملك التامّ العامّ، فلا يملك كلَّ شيء إلا هو، وليس الملك التام الكامل إلا له. وأتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يثبتون له كمال الملك وكمال الحمد، فإنَّهم يقولون: إنَّه خالق كلِّ شيء وربُّه ومليكه، لا يخرج عن خلقه وقدرته ومشيئته شيء البتة، فله الملك كله.



(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠٨٨)، وسنده ضعيف.

فصل

١/ ٢٥٠ حمده تعالىٰ وحكمته شامل لكل ما يحدثه

والمقصودُ بيانُ شمولِ حمدِه تعالىٰ وحكمتِه لكلِّ ما يحدثه من إحسانٍ ونعمة، وامتحانٍ وبلية، وما يقضيه من طاعة ومعصية، وأنَّه سبحانه محمودٌ علىٰ ذلك مشكور حمدَ المدح وحمدَ الشكر. أمَّا حمد المدح فإنَّه محمود علىٰ كلِّ ما خلق، إذ هو رب العالمين، والحمدُ لله ربِّ العالمين. وأمَّا حمد الشكر فلأنَّ ذلك كلَّه نعمة في حقِّ المؤمن إذا اقترن بواجبه.

والإحسانُ والنعمةُ إذا اقترنت بالشكر صارت نعمةً، والامتحان والبليةُ إذا اقترن بالصبر كان نعمةً. والطاعةُ فمن أجلِّ نِعَمه، وأمَّا المعصيةُ فإذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع، فقد ترتَّب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ما هو نعمةٌ أيضًا، وإن كان سببُها مسخوطًا مبغوضًا للربِّ تعالىٰ، ولكنَّه يحب ما ترتب عليها من التوبة والاستغفار.

وهو سبحانه أفرَح بتوبة عبده من الرجل إذا أضلَّ راحلته بأرضٍ دوِّيَّةٍ[1] مَهلكةٍ عليها طعامه وشرابه، فأيس منها ومن الحياة، فنام، ثمَّ استيقظ، فإذا بها قد تعلَّق خطامُها في أصلِ شجرةٍ، فجاءَ حتىٰ أخذها= فاللهُ أفرحُ بتوبة العبد حين يتوب إليه من هذا براحلته[2].

فهذا الفرحُ العظيم الذي لا يشبهه شيءٌ أحبُّ إليه سبحانه من عدمه، وله أسباب ولوازم لا بدَّ منها. وما يحصل بتقدير عدمه من الطاعات وإن كان محبوبًا له، فهذا الفرح أحبُّ إليه بكثير، ووجوده بدون لازمه ممتنع. فله من الحكمة في تقدير أسبابه وموجباته حكمة بالغة ونعمة سابغة.

(١) الدوية: الصحراء الواسعة التي لا نبات فيها.

(٢) يشير إلىٰ حديث ابن مسعود ﷺ عند البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

هـذا بالإضافة إلىٰ الرب جلَّ جلاله، وأمَّا بالإضافة إلىٰ العبد فإنَّه قد يكون كمالُ عبوديته وخضوعه موقوفًا علىٰ أسبابٍ لا يحصل بدونها. فتقديرُ الذنب عليه إذا اتصل به التوبةُ والإنابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار كان من النعم باعتبار غايته وما يُعقِبه، وإن كان من الابتلاء والامتحان باعتبار صورته ونفسه؛ والربُّ تعالىٰ محمود علىٰ الأمرين. فإن اتصل بالذنب الآثارُ المحبوبةُ للرب سبحانه من التوبة والإنابة والذل والانكسار فهو عين مصلحة العبد، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية.

وإن لم يتصل به ذلك فهذا لا يكون إلا من خُبث نفسه وشرِّه، وعدم استعداده لمجاورة ربه بين الأرواح الذكية الطاهرة في الملأ الأعلىٰ. ومعلوم أنَّ هذه النفس فيها من الشرِّ والخبث ما فيها، فلا بدَّ من خروج ذلك منها من القوَّة إلىٰ الفعل، ليترتَّب علىٰ ذلك الآثارُ المناسبة لها ومساكنةُ مَن تليق مساكنتُه ومجاورة الأرواح الخبيثة في المحلِّ الأسفل. فإنَّ هذه النفوس إذا كانت مهيَّأةً لذلك فمن الحكمة أن تُستخرَج منها الأسبابُ التي تُوصِلها إلىٰ ما هي مهيأة له، ولا يليق بها سواه.

والرب تعالىٰ محمود علىٰ ذلك أيضًا، كما هو محمود علىٰ إنعامه وإحسانه علىٰ أهل الإحسان والإنعام القابلين له، فما كلُّ أحدٍ قابلًا لنعمته تعالىٰ، فحمده وحكمته يقتضي أن لا يُودِعَ نعمَه وإحسانَه وكنوزَه في محل غير قابل لها.

ولا يبقىٰ إلا أن يقال: فما الحكمة في خلق هذه الأرواح التي هي غيرُ قابلةٍ لنعمته؟ فقد تقدَّم من الجوابِ عن ذلك ما فيه كفاية، وأنَّ خلق الأضداد

والمتقابلات وترتيب آثارها عليها موجَب ربوبيته وحكمته وعلمه وعزَّته، وأنَّ تقدير عدمِ ذلك هضمٌ من جانب الربوبية.

وأيضًا فإنَّ هذه الحوادث نعمة في حق المؤمن، فإنَّها إذا وقعت فهو مأمور أن يُنكِرَها بقلبه ويده ولسانه، أو بقلبه ولسانه فقط، أو بقلبه فقط؛ ومأمور أن يجاهد أربابَها بحسب الإمكان، فيترتَّبُ له علىٰ الإنكار والجهاد من مصالح قلبه ونفسه وبدنه ومصالح دنياه وآخرته ما لم يكن ينال بدون ذلك.

والمقصود بالقصد الأوَّل إتمام نعمته تعالىٰ علىٰ أوليائه ورسله وخاصته، فاستعمالُ أعدائه فيما تَكْمُل به النعمةُ علىٰ أوليائه غايةُ الحكمة، وكان في تمكين أهل الكفر والفسق والعصيان من ذلك إيصالُ أوليائه إلىٰ الكمال الذي يحصل لهم بمعاداة هؤلاء، وجهادِهم، والإنكار عليهم، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، وبذل نفوسهم وأموالهم وقواهم له. فإنَّ تمام العبودية لا يحصل إلا بالمحبة الصادقة، وإنَّما تكون المحبة صادقةً إذا بذل فيها المحبُّ ما يملكه من مال ورئاسة وقوَّة في مرضاة محبوبة والتقرب إليه، فإن بذل له روحَه كان هذا أعلىٰ درجات المحبة.

ومن المعلوم أنَّ من لوازم ذلك التي لا يحصل إلا بها أن يخلق ذواتٍ وأسبابًا وأعمالًا وأخلاقًا وطبائعَ تقتضي معاداةَ من يحبه ويؤثر مرضاته لها، وعند ذلك تتحقق المحبةُ الصادقة من غيرها. فكل أحدٍ يحبُّ الإحسان والرَّاحة والدَّعَة واللذّة، ويحبُّ من يوصل إليه ذلك ويُحصّله له، ولكن الشأن في أمرٍ وراءَ هذا، وهو محبتُه سبحانه ومحبةُ ما يحبه ممَّا هو أكرهُ شيءٍ إلىٰ النفوس، وأشقُّ شيءٍ عليها ممَّا لا يلائمها. فعند حصول أسباب ذلك يتبين من يحب الله لذاته ويحب ما يحب، ممن يحبُّه لأجل مخلوقاته فقط

من المأكل والمشرب والمنكح والرئاسة، فإن أعطي منها رضي، وإن مُنِعها سخط، وعتب علىٰ ربه، وربما شكاه، وربما ترك عبادته.

فلولا خلقُ الأضداد، وتسليط أعدائه، وامتحان أوليائه بهم لم يستخرَج خالصُ العبودية من عَبِيده الذين هم عَبِيدُه، ولم يحصل لهم عبوديةُ الموالاة فيه، والمعاداة فيه، والحب فيه، والبغض فيه، والعطاء له، والمنع له؛ ولا عبوديةُ بذلِ الأرواح والأموال والأولاد والقوىٰ في جهاد أعدائه ونصرته، ولا عبوديةُ مفارقة الناس أحوجَ ما يكون إليهم عبدُه لأجله وفي مرضاته. فلا يتحيز إليهم، وهو يرىٰ محابَّ نفسه وملاذَّها بأيديهم، فيرضىٰ بمفارقتهم، ومشاقتهم، وإيثار موالاة الحق عليهم. فلولا الأضدادُ والأسبابُ التي توجب ذلك لم تحصل هذه الآثار.

وأيضًا فلولا تسليطُ الشهوة والغضب ودواعيهما علىٰ العبد لم تحصل له فضيلة الصبر، وجهاد النفس، ومنعها من حظوظها وشهواتها محبَّةً لله، وإيثارًا لمرضاته، وطلبًا للزلفىٰ لديه والقرب منه.

وأيضًا فلولا ذلك لم تكن هذه النشأة الإنسانية إنسانيَّةً، بل كانت ملكيةً، فإنَّ الله سبحانه خلق خلقَه أطوارًا فخلق الملائكة عقولًا لا شهوات لها ولا طبيعة تتقاضىٰ منها خلافَ ما يراد منها، من مادة نُورية لا تقتضي شيئًا من الآثار والطبائع المذمومة. وخلق الحيوانات ذوات شهواتٍ لا عقول لها. وخلق الثقلين -الجن والإنس- وركَّب فيهم العقول والشهوات والطبائع المختلفة المقتضية لآثار مختلفة بحسب موادها وصورها وتركيبها. وهؤلاءِ هم أهل الامتحان والابتلاء، وهم المعرضون للثواب والعقاب. ولو شاءَ

سبحانه لجعل خلقه علىٰ طبيعة واحدة وخلق واحد، ولم يُفاوت بينهم، لكن ما فعله سبحانه هو محض الحكمة وموجب الربوبية ومقتضىٰ الإلهية.

ولو كان الخلقُ كلُّه طبيعةً واحدةً ونمطًا واحدًا لوجد الملحدُ مقالًا وقال: هذا مقتضىٰ الطبيعة، ولو كان فاعلًا بالاختيار لتنوعت أفعالُه ومفعولاتُه، ولفَعَل الشيءَ وضدَّه، والشيء وخلافه. وكذلك لولا شهودُ هذه الحوادث المشهودة لوجد الملحد أيضًا مقالًا وقال: لو كان لهذا العالم خالق مختار لوجِدت فيه الحوادثُ علىٰ حسب إرادته واختياره، كما رُوِي عن الحسن أو غيره قال: «كان أصحاب محمد ﷺ يقولون: جلَّ ربُّنا القديم، لو لم يتغيَّر هذا الخلق لقال الشاكُّ في الله: لو كان لهذا العالم خالق لَحادثَه(١)، بينا هو ليل إذ جاء نهار، وبينا هو نهارٌ إذ جاء ليل، وبينا هو صحو إذا جاء غيم، وبينا هو غيم إذ جاءَ صحو» أو نحو هذا من الكلام.

ولهذا يستدل سبحانه في كتابه بالحوادث تارةً وباختلافها تارةً، إذ هذا وهذا مستلزمٌ لربوبيته، وقدرته، واختياره، ووقوعِ الكائنات علىٰ وفق مشيئته؛ فتنوعُ أفعالِه ومفعولاته من أعظم الأدلة علىٰ ربوبيته وحكمته وعلمه.

ولهذا -سبحانه- خلق النوع الإنساني أربعةَ أقسام: أحدها: لا من ذكر ولا أنثىٰ، وهو خلق أبيهم وأصلهم آدم. الثاني: خلَقه من ذكر بلا أنثىٰ كخلق أمهم حواء من ضلع من أضلاع آدم من غير أن تحمل بها أنثىٰ أو يشتمل عليها بطن. الثالث: خلقَه من أنثىٰ بلا ذكر، كخلق المسيح عيسىٰ ابن مريم صلىٰ الله علىٰ نبينا وعليه. الرابع: خلق سائر النوع الإنساني من ذكر وأنثىٰ.

---

(١) أي: لما تركه علىٰ صفة واحدة، بل لأحدث فيه التغيير والتبديل.

وكلُّ هذا ليدلَّ عباده علىٰ كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته؛ وأنَّ الأمرَ ليس كما يظنُّه أعداؤه الجاحدون له الكافرون به من أن ذلك أمرٌ طبيعي لم يزل هكذا ولا يزال، وأنَّه ليس للنوع أبٌ ولا أمٌّ، وأنَّه ليس إلا أرحامٌ تدفَع، وأرضٌ تبلع، وطبيعةٌ تفعل ما يُرىٰ ويشاهَد. ولم يعلم هؤلاء الجهَّال الضلَّال أنَّ الطبيعة قوَّة وصفة فقيرة إلىٰ محلها، محتاجة إلىٰ حامل لها، وأنَّها من أدل الدلائل علىٰ وجود من طبَعها، وخلَقَها، وأودعها الأجسامَ وجعل فيها هذه الأسرار العجيبة. فالطبيعةُ مخلوقٌ من مخلوقاته، ومملوكٌ من مماليكه وعبيده، مسخَّرةٌ لأمره، منقادةٌ لمشيئته. ودلائلُ الصنعة، وإماراتُ الخلق والحدوث، وشواهدُ الفقر والحاجة شاهدٌ عليها بأنَّها مخلوقة مصنوعة، لا تخلق، ولا تفعل، ولا تتصرّف في ذاتها ونفسها، فضلًا عن إسناد الكائنات إليها.

والمقصود أنّ تنويع المخلوقات واختلافها من لوازم الحكمة والربوبيّة والملك، وهو أيضًا من موجبات الحمد، فله الحمد علىٰ ذلك كلِّه أكملَ حمدٍ وأتمَّه.

وأيضًا: فإنَّ مخلوقاته هي موجَباتُ أسمائه وصفاته، فلكلِّ اسمٍ وصفةٍ أثرٌ لا بُدَّ من ظهوره فيه واقتضائه له، فيمتنع تعطيلُ آثار أسمائه وصفاته، كما يمتنع تعطيلُ ذاته عنها. وهذه الآثار لها متعلقات ولوازم يمتنع أن لا توجد، كما تقدم التنبيه عليه.

وأيضًا: فإنَّ تنويع أسباب الحمد أمرٌ مطلوب للرب تعالىٰ محبوب له، فكلما تنوعت أسبابُ الحمد تنوَّع الحمدُ بتنوعها، وكثُرَ بكثرتها. ومعلومٌ أنَّه سبحانه محمود علىٰ انتقامه من أهل الإجرام والإساءة، كما هو محمود علىٰ

إكرامه لأهل العدل والإحسان. فهو محمود علىٰ هذا وعلىٰ هذا، مع ما يتبع ذلك من حمدِه علىٰ حلمه وعفوه ومغفرته، وترك حقوقه ومسامحة خلقه بها والعفو عن كثير من جنايات العبيد. فنبَّهَهم باليسير من عقابه وانتقامه علىٰ الكثيرِ الذي عفا عنه، وأنَّه لو عاجلهم بعقوبته، وأخذهم بحقه، لقُضِيَ إليهم أجلُهم، ولما ترك علىٰ ظهرها من دابة. ولكنَّه سبقت رحمتُه غضبَه، وعفوُه انتقامَه، ومغفرته عقابَه. فله الحمدُ علىٰ عفوه وانتقامه، وعلىٰ عدله وإحسانه، ولا سبيل إلىٰ تعطيل أسباب حمده ولا بعضها. فليتدبر اللبيبُ هذا الموضع حقَّ التدبر، وليعطه حقَّه يُطْلِعْه علىٰ أبوابٍ عظيمةٍ من أسرار القدر، ويهبطْ به علىٰ رياضٍ منه مُعْشِبةٍ وحدائق مُوْنِقة، والله الموفِّق الهادي للصواب.

وأيضًا: فإنَّ الله سبحانه نوَّع الأدلَّة الدَّالّة عليه والتي تعرِّف عبادَه به غايةَ التنوع، وصرَّف الآيات، وضرب الأمثال، ليقيمَ عليهم حجَّته البالغة، ويتمَّ عليهم بذلك نعمته السابغة، ولا يكون لأحدٍ بعد ذلك حجةٌ عليه سبحانه، بل الحجَّةُ كلها له، والنعمةُ كلها له، والقدرةُ كلها له. فأقام عليهم حجته، ولو شاء لسوَّىٰ بينهم في الهداية، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، فأخبر أنَّ له الحجَّة البالغة، وهي التي بلغت إلىٰ صميم القلب، وخالطت العقل، واتَّحدت به، فلا يمكن العقلَ دفعُها ولا جحدُها. ثمَّ أخبر أنَّه سبحانه قادر علىٰ هداية خلقه كلِّهم، ولو شاء ذلك لفعله لكمال قدرته ونفوذ مشيئته، ولكنَّ حكمتَه تأبىٰ ذلك وعدلَه يأبىٰ تعذيبَ أحدٍ وأخْذَه بلا حجة، فأقام الحجة، وصرَّف الآيات، وضرب الأمثال، ونوَّع الأدلة. ولو كان الخلقُ كلهم علىٰ طريقة واحدة من الهداية لما حصلت هذه الأمور، ولا تنوعت هذه الأدلة والأمثال، ولا ظهرت عزَّتُه سبحانه في انتقامه من أعدائه

ونصر أوليائه عليهم، ولا حُجَجه التي أقامها علىٰ صدق أنبيائه ورسله، ولا كان للناس ﴿ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣]، ولا كان للخلق آيةٌ باقيةٌ ما بقيت الدنيا في شأن موسىٰ وقومه، وفرعون وقومه، وفلقِ البحر لهم، ودخولهم جميعًا فيه. ثم أنجىٰ موسىٰ وقومه لم يغرَق منهم أحد، وأغرقَ فرعونَ وقومَه لم ينجُ منهم أحد. فهذا التعرُّف إلىٰ عباده، وهذه الآيات، وهذه العزَّة والحكمة لا سبيل إلىٰ تعطيلها البتة، ولا توجد بدون لوازمها.

وأيضًا: فإنَّ حقيقة المُلْك إنَّما تتم بالعطاء والمنع، والإكرام والإهانة، والإثابة والعقوبة، والغضب والرضا، والتولية والعزل، وإعزاز من يليق به العز وإذلال من يليق به الذل. قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦- ٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، يغفر ذنبًا، ويفرِّج كَرْبًا، ويكشف غمًّا، وينصر مظلومًا، ويأخذ ظالمًا، ويفُكّ عانيًا، ويُغني فقيرًا، ويجبُر كسيرًا، ويشفي مريضًا، ويُقيل عَثرةً، ويستر عورةً، ويُعزُّ ذليلًا، ويُذلُّ عزيزًا، ويعطي سائلًا، ويَذهب بدولة، ويأتي بأخرىٰ، ويُداول الأيّامَ بين الناس، ويرفع أقوامًا، ويضع آخرين. يسوق المقادير التي قدَّرها قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألفَ عامٍ إلىٰ مواقيتها، فلا يتقدَّم شيءٌ منها عن وقته ولا يتأخَّر، بل كلّ منها قد أحصاه كتابه، وجرىٰ به قلمُه، ونفذ فيه حكمُه، وسبق به علمُه. فهو المتصرّف في الممالك كلّها وحدَه تصرُّفَ ملكٍ

قادر قاهر عادل رحيم تامِّ الملك، لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه فيه معارض. فتصرُّفُه في المملكة دائرٌ بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرُّفه عن ذلك.

وفي «تفسير الحافظ أبي بكر أحمد بن موسىٰ بن مردويه» من حديث الحِمَّاني: حدَّثنا إسحاق بن سليمان، عن معاوية بن يحيىٰ، عن يونس بن ميسرة، عن أبي إدريس، عن أبي الدرداءِ ﷺ أنَّه سئل عن قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فقال: سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: «**من شأنه أن يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين**»[(١)].

وفيه: أيضًا من حديث حمَّاد بن سلمة، حدثنا الزبير أبو عبد السلام، عن أيّوب بن عبد الله بن مِكْرَز، عن أبيه قال: قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «إنَّ ربَّكم عزَّ وجلَّ ليس عنده ليل ولا نهار، نور السماوات من نور وجهه، أيّامكم عنده ثنتا عشرةَ ساعةً: تُعرض عليه أعمالُكم بالأمس ثلاثَ ساعاتٍ من أوَّل النهار، فيطَّلع منها علىٰ ما يكره، فيغضب، فيكون أول من يعلم بغضبه حملةُ العرش، فتُسَبِّح حَمَلةُ العرش وسُرادِقاتُ العرش والملائكةُ المقرَّبون وسائرُ الملائكة، وينفخ جبريل في القَرْن فلا يبقىٰ خلقٌ لله في السماوات ولا في الأرض إلّا سمعه إلّا الثقلين؛ ويسبِّحونه ثلاثَ ساعات حتىٰ يمتلئ الرحمن رحمةً، فتلك ستُّ ساعات. ثم يدعو بالأرحام، فينظر فيها ثلاثَ ساعات ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]، ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورىٰ: ٤٩] فتلك تسعُ ساعات. ثم يدعو بالأرزاق، فينظر فيها ثلاث ساعات فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، فتلك ثنتا عشرة ساعة. ثم

(١) وأخرجه أيضًا ابنُ ماجه (٢٠٢)، وصححه ابن حبان (٦٨٩).

قرأ عبد الله: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩] ثم قال: هذا شأنكم وشأن ربّكم عزّ وجَلّ».

وذكره الطبراني في «المعجم الكبير»[١] من وجه آخر.

وهذا من تمام تصرُّفه في ملكه سبحانه، فلو قصر تصرُّفَه علىٰ وجه واحد ونمط واحد لم يكن تصرُّفًا تامًّا.

والمقصود أنّ الملك والحمد في حقّه متلازمان، فكلّ ما شمِله ملكُه وقدرتُه شمِله حمدُه، فهو محمود في ملكه، وله الملك والقدرة مع حمده. فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته، يستحيل خروجُها عن حمده وحكمته. ولهذا يحمد سبحانه نفسَه عند خلقه وأمره، لينبِّه عبادَه علىٰ أنّ مصدر خلقه وأمره عن حمده. فهو محمود علىٰ كلّ ما خلقه وأمر به حمدَين: حمدَ شكرٍ وعبودية، وحمدَ ثناءٍ ومدح، ويجمعهما «التبارُك»، فتبارك الله يشمل ذلك كلَّه، ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح، والطرقُ إلىٰ العلم به في غاية الكثرة، والسُّبُل إلىٰ اعتباره في ذرات العالم وجزئياته وتفاصيل الأمر والنهي واسعة جدًّا، لأنَّ جميع أسمائه تبارك وتعالىٰ حمد، وصفاته حمد، وأفعاله حمد، وأحكامه حمد، وعدله في انتقامه من أعدائه حمد، وفضله في إحسانه إلىٰ أوليائه حمد. والخلق والأمر إنَّما قام بحمده، ووُجِد بحمده، وظهر بحمده، وكان لغايةٍ هي حمدُه. فحمده سبب ذلك، وغايته، ومظهره، وحامله؛

(١) برقم (٨٨٨٦)، وأخرجه أيضًا أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٧)، وفي سنده مجهول. انظر: «مجمع الزوائد» (١/ ٨٥).

فحمده روح كل شيء، وقيام كل شيء بحمده. وسريانُ حمده في الوُجودات وظهورُ آثاره فيه أمرٌ مشهود بالأبصار والبصائر.

فمن الطرق الدالّة علىٰ شمول معنىٰ الحمد وانبساطه علىٰ جميع المعلومات: معرفةُ أسمائه وصفاته، وإقرارُ العبد بأنَّ للعالم إلهًا حيًّا جامعًا لكلِّ صفة كمال، واسم حسن، وثناء جميل، وفعل كريم؛ وأنَّه سبحانه له القدرة التامة، والمشيئة النافذة، والعلم المحيط، والسمع الذي وسع الأصوات، والبصر الذي أحاط بجميع المبصرات، والرحمة التي وسعت جميع المخلوقات، والملك الأعلىٰ الذي لا يخرج عنه ذرَّة من الذرَّات، والغنىٰ التام المطلق من جميع الجهات، والحكمة البالغة المشهودُ أثرُها في الكائنات، والعزَّة العالية بجميع الوجوه والاعتبارات، والكلماتُ التامَّات النافذات التي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر من جميع البريّات.

واحدٌ لا شريك له في ربوبيته، ولا في إلهيَّته. ولا شبيه له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. وليس له من يَشرَكه في ذرَّة من ذرَّات ملكه، أو يخلُفه في تدبير خلقه، أو يحجبه عن داعيه ومؤمليه وسائليه، أو يتوسط بينهم وبينه بتلبيسٍ أو فِرية أو كذب، كما يكون بين الرعايا وبين الملوك. ولو كان كذلك لفسد نظام الوجود، وفسد العالم بأسره فـ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] فلو كان معه آلهة أخرىٰ -كما يقول أعداؤه المبطلون- لوقع من النقص في التدبير وفساد الأمر كلِّه ما لا يثبتُ معه حال، ولا يصلح معه وجود.

ومن أعظم نعمه علينا وما استوجب به حمدَ عباده له أن جعلَنا عبيدًا له خاصَّةً، ولم يجعلنا نَهْبًا منقسمين بين شركاء متشاكسين، ولم يجعلنا عبيدًا لإلهٍ نحتَتْه الأفكار: لا يسمع أصواتنا، ولا يبصر أفعالنا، ولا يعلم أحوالنا، ولا

يملك لعابديه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ولا تكلَّم قطُّ ولا يتكلم، ولا يأمر ولا ينهىٰ، ولا تُرفع إليه الأيدي، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا يصعد إليه الكلمُ الطيب، ولا يُرفع إليه العمل الصالح.

وإنَّه ليسَ داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه، ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه ولا أمامه، ولا متصلًا به ولا منفصلًا عنه، ولا مماسًّا له ولا بائنًا ولا مستويًا علىٰ عرشه، ولا هو فوق عباده ولا عاليًا عليهم، وحظُّ العرش منه حظ الحشوش والأخلية. ولا تنزل الملائكة من عنده، بل لا ينزل من عنده شيء، ولا يصعد إليه شيء، ولا يَقْرُب منه شيء، ولا يقرب مِن شيء، ولا يُحِبُّ ولا يُحَب، ولا يلتذ المؤمنون بالنظر إلىٰ وجهه الكريم في دار الثواب، بل ليس له وجه يُرَىٰ، ولا له يدٌ يقبض بها السماوات وأخرىٰ يقبِض بها الأرض. ولا له فعل يقوم به، ولا حكمة تقوم به، ولا كلَّم موسىٰ تكليمًا، ولا تجلَّىٰ للجبل فجعله دكًّا هشيمًا. ولا يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، ولا ينزل كلَّ ليلة إلىٰ سماء الدنيا، فيقول: «لا أسأل عن عبادي غيري»[(١)]، ولا يفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه.

ويجوز في حكمته تعذيبُ أنبيائه ورسله وملائكته وأهل طاعته أجمعين من أهل السماوات والأرضين، وتنعيمُ أعدائه من الكفَّار به والمحاربين له والمكذبين له ولرسله. والكلُّ بالنسبة إليه سواءٌ، ولا فرق البتةَ إلا أنَّه أخبر أنه لا يفعل ذلك، فامتنع للخبر بأنَّه لا يفعله، لا لأنَّه في نفسه منافٍ لحكمته. ومع ذلك فرِضاه عينُ غضبه، وغضبُه عينُ رضاه، ومحبته كراهته، وكراهته محبته، إن هو إلا إرادة محضة ومشيئة صِرفة يشاء بها، لا لحكمة ولا لغاية ولا لأجل مصلحة.

---

(١) كما جاء في حديث رفاعة الجهني في «مسند أحمد» (١٦٢١٥، ١٦٢١٨).

ومع ذلك يعذِّب عباده علىٰ ما لم يعملوه ولا قدرة لهم عليه، بل يعذبهم علىٰ نفس فِعله الذي فَعَله هو وينسبه إليهم، ويعذبهم إذ لم يفعلوا فعله ويلومهم عليه. ويجوز في حكمته أن يُعذِّب رجالًا إذ لم يكونوا نساءً، ونساءً حيث لم يكونوا رجالًا، وطِوالًا إذ لم يكونوا قصارًا وبالعكس، وسُودًا إذ لم يكونوا بيضًا وبالعكس. بل تعذيبُه لهم علىٰ مخالفته هو من هذا الجنس، إذ لا قدرة لهم البتةَ علىٰ فعل ما أُمروا به، ولا ترك ما نُهوا عنه.

فله الحمدُ والمنَّة والثناءُ الحسن الجميل، إذ لم يجعلنا عبيدًا لمن هذا شأنُه، فنكون مُضيَّعِين، ليس لنا ربٌّ نقصده، ولا صمدٌ نتوجه إليه ونعبده، ولا إله نعول عليه، ولا رب نرجع إليه، بل قلوبنا تنادي في طرق الحيرة: من دلَّنا وجمع علينا ربًّا ضائعًا، لا هو داخل العالم ولا خارجه، ولا مُباين له ولا مُحايث له، ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولا ينزل من عنده شيء ولا يصعد إليه شيء، ولا كلَّم أحدًا ولا يكلمه أحد، ولا ينبغي لأحد أن يذكر صفاتِه، ولا يعرِّفَه بها، بل يهجرها بلسانه فلا يتكلم بها، وبقلبه فلا يعقلها. وينبغي له أن يُعاقَب بالقتل أو الضرب والحبس مَن ذكرها، أو أخبر عنه بها، أو أثبتها له، أو نسبها إليه، أو عرَّفه بها. بل التوحيد الصِّرْف جحدُها، وتعطيله عنها، ونفي قيامها به واتصافه بها. وما لم تدركه عقولنا من ذلك فالواجب نفيُه، وجحده، وتكفيرُ من أثبته، واستحلالُ دمه وماله، أو تبديعُه وتضليله وتفسيقه. وكلَّما كان النفيُ أبلغَ كان التوحيدُ أتمَّ، فـ«ليس كذا وليس كذا» أبلغ في التوحيد من قولنا «هو كذا وهو كذا».

فلِلّٰهِ العظيم أعظمُ حمدٍ وأتمُّه وأكملُه علىٰ ما منَّ به من معرفته وتوحيده، والإقرار بصفاته العُلىٰ وأسمائه الحسنىٰ، وإقرار قلوبنا بأنَّه الله الذي لا إله إلا هو، عالمُ الغيب والشهادة، ربُّ العالمين، قيومُ السماوات والأرضين، إلهُ

الأولين والآخرين، لم يزل ولا يزال موصوفًا بصفات الجلال، منعوتًا بنعوت الكمال، منزَّهًا عن أضدادها من النقائص والتشبيه والمثال.

فهو الحيُّ القيُّوم الذي لكمال حياته، وقيوميَّته لا تأخذه سنةٌ ولا نوم. مالك السماوات والأرض الذي لكمال ملكه لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه.

والعالمُ بكل شيء، الذي لكمال علمه يعلم ما بين أيدي الخلائق وما خلفهم، فلا تسقط ورقةٌ إلا بعلمه، ولا تتحرَّك ذرَّة إلا بإذنه. يعلم دبيبَ الخواطر في القلوب حيث لا يطلع عليها الملَك، ويعلم ما سيكون منها حيث لا يطلع عليها القلب.

البصير الذي لكمال بصره يرىٰ تفاصيل خلقِ الذرَّة الصغيرة وأعضائها ولحمها ودمها ومخها وعروقها، ويرىٰ دبيبَها علىٰ الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء، ويرىٰ ما تحت الأرضين السبع كما يرىٰ ما فوق السماوات السبع.

السميع الذي قد استوىٰ في سمعه سرُّ القول وجهرُه، وسع سمعُه الأصوات، فلا تختلف عليه أصوات الخلق ولا تشتبه عليه، ولا يشغله منها سمع عن سمع، ولا تُغلِّطه المسائل، ولا تُبرمه كثرةُ سؤالِ السائلين، قالت عائشة ﵂: الحمد لله الذي وسع سمعُه الأصوات، لقد جاءت المجادلةُ تشكو إلىٰ رسول الله ﷺ، وإنَّه لَيَخفىٰ عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١][1].

القدير الذي لكمال قدرته يهدي من يشاء ويُضِلُّ من يشاء، ويجعل المؤمن مؤمنًا والكافر كافرًا، والبر برًّا والفاجر فاجرًا. وهو الذي جعل إبراهيم

(١) أخرجه النسائي (٦/ ١٦٨)، وابن ماجه (١٨٨)، وصححه الحاكم (٢/ ٤٨١)، وعلَّقه البخاري مختصرًا في التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

وآله أئمةً يدعون إليه ويهدون بأمره، وجعل فرعون قومَه أئمةً يدعون إلىٰ النَّارِ. ولكمال قدرته لا يحيط أحد بشيءٍ من علمه إلا بما شاء سبحانه أن يُعلِّمه إيَّاه. ولكمال قدرته خلَقَ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وما مسَّه من لغوب. ولا يُعجِزه أحدٌ من خلقه، ولا يفوته، بل هو في قبضته أين كان، وإن فرَّ منه فإنَّما يطوي المراحلَ في يديه، كما قيل:

وكيف يفِرُّ المرءُ عنك بذنبه إذا كان يطوي في يديك المراحلا[1]

ولكمال غناه استحال إضافةُ الولد والصاحبة والشريك والظهير والشفيع بدون إذنه إليه. ولكمال عظمته وعلوه وسِع كرسيُّه السماوات والأرضِ، ولم تسعه أرضُه ولا سماواته، ولم تُحِطْ به مخلوقاته، بل هو العالي علىٰ كلِّ شيء، الظاهر فوق كل شيء، وهو بكلِّ شيء محيط.

لا تنفد كلماته ولا تبيد، بل لو أنَّ البحر يمدُّه من بعده سبعةُ أبحر مدادٌ، وأشجارُ الأرض أقلامٌ، فكُتِب بذلك المداد وتلك الأقلام= لَنَفِد المداد وفنيت الأقلام ولم تنفَدْ كلماتُه، إذ هي غير مخلوقة، ويستحيل أن يفنىٰ غيرُ المخلوق بالمخلوق. ولو كان كلامُه مخلوقًا -كما قاله من لم يقدُره حقَّ قدره، ولا أثنىٰ عليه بما هو أهلُه- لكان أحقَّ بالفناءِ من هذا المداد وهذه الأقلام، لأنَّه إذا كان مخلوقًا فهو نوعٌ من أنواع مخلوقاته، ولا يحتمل المخلوق إفناءَ هذا المداد وهذه الأقلام، وهو باقٍ غيرُ فانٍ.

وهو سبحانه يحبُّ رسلَه وعباده المؤمنين، ويحبونه، بل لا شيء أحبُّ إليهم منه، ولا أشوَقَ إليهم من لقائه، ولا أقرَّ لعيونهم من رؤيته، ولا أحظىٰ

---

(١) البيت لأبي العرب مصعب الصقلي. انظر: «فوات الوفيات» (٤/ ١٤٥).

عندهم من قربه.

وإنَّه سبحانه له الحكمة البالغة في خلقه وأمره، وله النعمة السابغة علىٰ خلقه، وكلُّ نعمةٍ منه فضلٌ، وكلُّ نقمةٍ منه عدل.

وإنَّه أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها، وأفرحُ بتوبة عبده من واجد راحلته التي عليها طعامُه وشرابُه في الأرضِ المهلكة بعد فقدها واليأس منها.

وإنَّه سبحانه لم يكلِّف عبادَه إلا وسعهم، وهو دون طاقتهم، فقد يطيقون الشيء ويضيق عليهم، بخلاف وُسْعِهم، فإنَّه ما يَسَعُونه، ويسهل عليهم، وتفضُل قُدَرُهم عنه، كما هو الواقع.

وإنَّه سبحانه لا يعاقب أحدًا بغير فعله، ولا يعاقبه علىٰ فعل غيره، ولا يعاقبه بترك ما لا يقدِر علىٰ فعله، ولا علىٰ فعل ما لا قدرةَ له علىٰ تركه.

وإنَّهُ سبحانه حكيم كريم جواد ماجد محسن ودود وصبور شكور، يُطاع فيشكر، ويُعصَىٰ فيغفِر. لا أحدَ أصبرُ علىٰ أذىٰ سمعه منه، ولا أحبُّ إليه المدحُ منه، ولا أحبُّ إليه العذرُ منه. ولا أحدَ أحبُّ إليه الإحسانُ منه، فهو محسن يحب المحسنين، شكورٌ يحب الشاكرين.

جميلٌ يحب الجمال، طيِّبٌ يحب كلَّ طيب، نظيفٌ يحب النظافة، عليمٌ يحب العلماء من عباده، كريمٌ يحب الكرماء، قويٌّ والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، برٌّ يحب الأبرار، عدلٌ يحب أهل العدل، حييٌّ سَتِيرٌ يحب أهلَ الحياء والستر، عفوٌّ غفورٌ يحب مَن يعفو من عباده ويغفر لهم، صادقٌ يحب الصادقين، رفيقٌ يحب الرفق، جوادٌ يحب الجود وأهله، رحيمٌ يحب الرحماء، وترٌ يحب الوتر.

يحبُّ أسماءَه وصفاتِه، ويحبُّ المتعبدين له بها، ويحب من يسأله بها ويدعوه بها، ويحب من يعرفها ويعقلها، ويثني عليه بها، ويحمده ويمدحه بها، كما في «الصحيح»[(١)] عن النبي ﷺ: **«لا أحد أحبُّ إليه المدحُ من الله، من أجلِ ذلك أثنىٰ علىٰ نفسه. ولا أحدَ أغيرُ من الله، من أجلِ ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدَ أحب إليه العذرُ من اللهِ، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشِّرين ومنذرين»**.

وفي حديثٍ آخر صحيح: **«لا أحدَ أصبرُ علىٰ أذىٰ يسمعُه من الله، يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم»**[(٢)].

ولمحبته لأسمائه وصفاته أمر عباده بموجَبها ومقتضاها، فأمرهم بالعدل والإحسان والبر والعفو والجودِ والصبر والمغفرة والرحمة والصدق والعلم والشكر والحلم والأناة والتثبت. ولمَّا كان سبحانه يحب أسماءَه وصفاتِه كان أحبُّ خلقه إليه من اتصف بالصفات التي يحبها، وأبغضُهم إليه من اتصفَ بالصفاتِ التي يكرهها. وإنَّما أبغضَ من اتصف بالكبر والعظمة والجبروت لأنَّ اتصافَه بها ظلم، إذ لا تليق به هذه الصفات ولا تحسن منه، لمنافاتها لصفات العبيد، وخروجِ من اتَّصف بها من رِبقة العبودية، ومفارقته لمنصبه ومرتبته، وتعدّيه طورَه وحدَّه. وهذا بخلافِ ما تقدم من الصفات كالعلمِ والعدلِ والرحمة والإحسان والصبر والشكر، فإنَّها لا تنافي العبودية، بل اتصافُ العبد بها من كمال عبوديته، إذ المتصف بها من العبيد لم يتعدَّ طورَه ولم يخرج بها من دائرة العبودية.

---

(١) البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤).

والمقصود أنَّه سبحانه لكمال أسمائه وصفاته موصوفٌ بكلِّ صفة كمال، منزَّهٌ عن كلِّ نقص، له كلُّ ثناءٍ حسن، ولا يصدر عنه إلا كلُّ فعلٍ جميل، ولا يُسمَّىٰ إلا بأحسن الأسماءِ، ولا يُثنَىٰ عليه إلا بأكمل الثناءِ. وهو المحمود المحبوب المعظم ذو الجلال والإكرام علىٰ كلِّ ما خلقه وقدَّره، وعلىٰ كلِّ ما أمر به وشرعه.

ومن كان له نصيبٌ من معرفة أسمائه الحسنىٰ واستقرىٰ آثارها في الخلقِ والأمر، رأىٰ الخلق والأمر منتظمَين بها أكمل انتظام، ورأىٰ سَريان آثارها فيهما، وعَلِم- بحسب معرفته- ما يليق بكماله وجلاله أن يفعله وما لا يليق، فاستدلَّ بأسمائه علىٰ ما يفعله وما لا يفعله، فإنَّه لا يفعل خلافَ موجَب حمده وحكمته. وكذلك يعلم ما يليق به أن يأمر به ويشرعه ممَّا لا يليق به. فيعلم أنَّه لا يأمر بخلاف موجَب حمده وحكمته.

فإذا رأىٰ في بعض الأحكام جورًا وظلمًا أو سفهًا وعبثًا أو مفسدة أو ما لا يُوجِب حمدًا وثناءً فَلْيعلَمْ أنَّه ليس من أحكامه ولا دينه، وأنَّه بريء منه ورسولُه، فإنَّه إنما يأمرُ بالعدل لا بالظلم، وبالمصلحة لا بالمفسدة، وبالحكمة لا بالعبث والسفَه. وإنَّما بعث رسوله بالحنيفية السمحة لا بالغلظة والشدة، وبعثه بالرحمة لا بالقسوة، فإنَّه أرحم الرَّاحمين، ورسولُه رحمةٌ مهداةٌ إلىٰ العالمين، ودينُه كلُّه رحمة، وهو نبي الرحمة، وأمتُه الأمة المرحومة. وذلك كله موجَب أسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا وأفعاله الحميدة، فلا يُخبَر عنه إلا بحمده، ولا يثني عليه إلا بأحسن الثناءِ، كما لا يسمَّىٰ إلا بأحسن الأسماء.

وقد نبَّه سبحانه علىٰ شمول حمده لخلقِه وأمرِه بأنْ حَمِد نفسَه في أوَّل

الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع؛ وحمد نفسَه علىٰ ربوبيته للعالمين، وحمد نفسَه علىٰ تفرده بالإلهية وعلىٰ حياته. وحمد نفسَه علىٰ امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاةِ أحد من خلقه لحاجة إليه. وحمد نفسَه علىٰ علوه وكبريائه، وحمد نفسَه في الأولىٰ والآخرة. وأخبر عن سَرَيان حمدِه في العالم العلوي والسفلي. ونبَّه علىٰ هذا كلِّه في كتابه، وحمد نفسَه عليه؛ فنوّع حمدَه وأسبابَ حمده، وجمعها تارةً، وفرَّقها أخرىٰ، ليتعرَّف إلىٰ عباده، ويعرَّفهم كيف يحمدونه وكيف يثنون عليه، وليتحبَّب إليهم بذلك، ويحبهم إذا عرفوه وأحبوه وحمدوه.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١-٢].

وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

وقال: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٥].

وقال: ﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴾ [الروم: ١٧-١٨].

أخبر عن حمدِ خلقِه له بعد فصلِه بينهم، والحكم لأهل طاعته بثوابه وكرامته، والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهانته: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وأخبر عن حمد أهل الجنَّة له وأنَّهم لم يدخلوها إلا بحمده، كما أنَّ أهل النَّارِ لم يدخلوها إلا بحمده، فقال أهل الجنَّة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، و﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠].

وقال عن أهل النَّار: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ [القصص: ٧٤-٧٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

وشهدوا علىٰ أنفسهم بالكفر والظلم، وعلموا أنَّهم كانوا كاذبين في الدنيا، مكذبين بآيات ربهم، مشركين به، جاحدين لإلهيته، مفترين عليه. وهذا اعتراف منهم بعدله فيهم، وأخذهم ببعض حقه عليهم، وأنَّه غيرُ ظالمٍ لهم، وأنَّهم إنَّما دخلوا النَّارَ بعدله وحمده، وإنَّما عوقبوا بأفعالهم وبما كانوا قادرين علىٰ فعله وتركه، لا كما يقول الجبرية.

وتفصيل هذه الحكمة ممَّا لا سبيل للعقول البشرية إلىٰ الإحاطة به، ولا إلىٰ التعبير عنه، ولكن بالجملة فكلُّ صفةٍ عُليا واسمٍ حسنٍ وثناءٍ جميل وكلُّ حمدٍ ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام فهو لله ﷻ علىٰ أكمل الوجوه وأتمها وأدومها، وجميعُ ما يوصف به ويُذكر به ويُخبر عنه فهو محامدُ له وثناءٌ وتسبيح وتقديس. فسبحانه وبحمده، لا يحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، وفوق ما يثني عليه خلقُه، فله الحمدُ أوَّلًا وآخرًا حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما ينبغي لكرم وجهه، وعز جلاله، ورفيع مجده، وعلو جده.

فهذا تنبيه علىٰ أحد نوعَي حمده، وهو **حمد الصفات والأسماء**.

والنوع الثاني حمد النعم والآلاء، وهذا مشهود للخليقة: برِّها وفاجرِها، مؤمِنها وكافرها؛ من جزيل مواهبه، وسعة عطاياه، وكريم أياديه، وجميل صنائعه، وحسن معاملته لعباده، وسعة رحمته بهم، وبره ولطفه وحنانه، وإجابته لدعوات المضطرين، وكشفِ كُرُبات المكروبين، وإغاثةِ الملهوفين، ورحمته للعالمين، وابتدائه بالنعم قبل السؤال ومن غير استحقاق، بل ابتداءً منه بمجرد فضله وكرمه وإحسانه، ودفعِ المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها، وصرفِها بعد وقوعها، ولطفِه تعالىٰ في ذلك بإيصاله إلىٰ من أراده بأحسن الألطاف، وتبليغه من ذلك إلىٰ ما لا تبلغه الآمال، وهدايته خاصَّتَه وعبادَه إلىٰ سُبُل السلام، ومدافعته عنهم أحسن الدفاع، وحمايتهم عن مراتع الآثام.

وحبَّبَ إليهم الإيمان، وزيَّنه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفرَ والفسوق والعصيان، وجعلهم من الرَّاشدين. وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح

منه، وسمَّاهم المسلمين قبل أن يخلقهم، وذكرهم قبل أن يذكروه، وأعطاهم قبل أن يسألوه، وتحبَّب إليهم بنعمه، مع غناه عنهم، وتبغُّضهم إليه بالمعاصي، وفقرهم إليه.

ومع هذا كله فاتخذَ لهم دارًا، وأعدَّ لهم فيها من كلِّ ما تشتيهه الأنفس وتلذُّه الأعين، وملأها من جميع الخيرات، وأودعها من النعيم والحَبْرَة والسرور والبهجة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ علىٰ قلب بشر.

ثمَّ أرسلَ إليهم الرسل يدعونهم إليها، ثمَّ يسَّرَ لهم الأسباب التي توصلهم إليها وأعانهم عليها، ورضيَ منهم باليسير في هذه المدَّة القصيرة جدًّا بالإضافة إلىٰ بقاء دار النعيم، وضَمِنَ لهم إن أحسنوا أن يُثيبهم بالحسنة عشرًا، وإن أساؤوا واستغفروه أن يغفر لهم، ووعَدهم أن يمحو ما جنَوه من السيئاتِ بما يفعلونه بعدها من الحسنات.

وذكّرهم بآلائه، وتعرَّف إليهم بأسمائه، وأمرهم بما أمرهم به رحمةً منه بهم وإحسانًا، لا حاجةً منه إليهم، ونهاهم عمَّا نهاهم عنه حمايةً وصيانةً لهم، لا بخلًا منه عليهم. وخاطبهم بألطف الخطاب وأحلاه، ونصحهم بأحسن النصائح، ووصَّاهم بأكمل الوصايا، وأمرهم بأشرف الخصال، ونهاهم عن أقبح الأقوال والأعمال، وصرَّف لهم الآيات، وضرب لهم الأمثال، ووسَّع لهم طرُقَ العلم به ومعرفته، وفتح لهم أبوابَ الهداية، وعرَّفهم الأسبابَ التي تُدنيهم من رضاه وتُبعِدهم عن غضبه.

ويخاطبهم بألطف الخطاب، ويسميهم بأحسن أسمائهم كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، ﴿

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ﴾ [ابراهيم: ٣١]، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فيخاطبهم بخطاب الوداد والمحبة والتلطف كقوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١- ٢٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار: ٦-٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢- ١٠٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ

بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤- ٢٦].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣- ٧٤].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

فتحتَ هذا الخطاب: إنِّي عاديتُ إبليسَ، وطردتُه من سمائي، وباعدتُه من قربي، إذ لم يسجد لأبيكم آدم، ثمَّ أنتم يا بنيه توالونه وذريته من دوني، وهم أعداءٌ لكم! فليتأمَّل اللبيبُ مواقع هذا الخطاب، وشدَّة لصوقه بالقلوب، والتباسه بالأرواح. وأكثرُ القرآن جاءَ علىٰ هذا النمط من خطابه لعباده بالتودد والتحنن واللطف والنصيحة البالغة.

وأعلم عباده -سبحانه- أنَّه لا يرضىٰ لهم إلا أكرمَ الوسائل، وأفضل

المنازل، وأجل العلوم والمعارف. قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦-٢٨].

ويتنصَّل سبحانه إلىٰ عباده من مواضع الظنَّة والتهمة التي نسبها إليه مَن لم يعرفه حقَّ معرفته ولا قدَره حقَّ قدره، مِن تكليفِ عباده ما لا يقدِرون عليه ولا طاقة لهم بفعله البتَّة، وتعذيبهم إن شكروه وآمنوا به، وخلقِ السماوات والأرضِ وما بينهما لا لحكمةٍ ولا لغاية.

وإنَّه لم يخلق خلقَه لحاجةٍ منه إليهم، ولا ليتكثَّر بهم من قلَّة، ولا ليتعززَ بهم من ذلَّة، ولا ليستعينَ بهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧]، فأخبرَ أنَّهُ لم يخلق الجنَّ والإنسَ لحاجةٍ منه إليهم، ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جودًا وإحسانًا ليعبدوه فيربَحوا هم عليه كلَّ الأرباح، كقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

ولمَّا أمرهم بالوضوء وبالغسل من الجنابة الذي يحطُّ عنهم أوزارهم،

ويدخلون به عليه، ويرفع به درجاتهم، قال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وقال في الأضاحي والهدايا: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]؛ يقول سبحانه: إنِّي غني عمَّا تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق المحامد كلِّها، فإنفاقكم لا يسدُّ منه حاجةً، ولا يوجب له حمدًا، بل هو الغني بنفسه، الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته، وإنفاقُكم إنَّما نفعُه لكم وعائدته عليكم.

ومن المتعيِّن علىٰ من لم يباشر قلبَه حلاوةُ هذا الخطاب، وجلالتُه، ولطفُ موقعه، وجذبُه للقلوب والأرواح، ومخالطتُه لها= أن يعالجَ قلبَه بالتقوىٰ، وأن يستفرغ منه المواد الفاسدة التي حالت بينه وبين حظِّه من ذلك، ويتعرَّضَ إلىٰ الأسبابِ التي يناله بها، من صدق الرغبة، واللجأ إلىٰ الله أن يحيي قلبَه، ويُزكّيَه، ويجعل فيه الإيمان والحكمة، فالقلبُ الميِّت لا يذوق طعمَ الإيمان، ولا يجد حلاوته، ولا يتمتع بالحياة الطيبة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ومن أراد مطالعة أصول النِّعَم فَلْيُسِمْ سَرْحَ الفكر في رياض القرآن، ولْيتأمل ما عدَّد الله فيه من نعَمِه، وتعرَّف بها إلىٰ عباده من أوَّل القرآن إلىٰ آخره، حتَّىٰ خلْقَ النَّارِ، وابتلاءَهم بإبليس وحزبِه، وتسليطَ أعدائهم عليهم،

وامتحانَهم بالشهوات والإرادات والهوىٰ؛ لِتعظُمَ النعمةُ عليهم بمخالفتها ومحاربة أعدائه. فللّٰه علىٰ أوليائه وعباده أتمُّ نعمة وأكملُها في كلِّ ما خلقه من محبوب ومكروه، ونعمة ومحنة، وفي كلِّ ما أحدثه في الأرض من وقائعه بأعدائه وإكرامه لأوليائه، وفي كلِّ ما قضاه وقدَّره. وتفصيلُ ذلك لا تفي به أقلامُ الدنيا وأوراقُها، ولا قُوىٰ العباد، وإنَّما هو التنبيه والإشارة.

ومن استقرىٰ الأسماء الحسنىٰ وجدها مدائحَ وثناءً تقصُر بلاغاتُ الواصفين عن بلوغ كُنْهِها، وتَعْجِز الأوهامُ عن الإحاطة بالواحد منها. ومع ذلك فللّٰه سبحانه محامدُ ومدائحُ وأنواعٌ من الثناءِ لم تتحرَّك بها الخواطر، ولا هجست في الضمائر، ولا لاحت لمُتوسِّم، ولا سنحت في فكر. ففي دعاء أعرفِ الخلق بربِّه تعالىٰ وأعلمِهم بأسمائه وصفاته ومحامده: **«أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك، سمَّيتَ به نفسك، أو أنزلتَه في كتابك، أو علَّمتَه أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حُزني، وذهابَ همِّي وغمِّي»** (١).

وفي «الصحيح» (٢) عنه ﷺ في حديث الشفاعة لمَّا يسجدُ بين يدي ربِّه، قال: **«فيفتح عليِّ من محامده بشيءٍ لا أُحسنه الآن»**.

وكان يقول في سجوده: **«أعوذ برضاك من سَخَطك، وبعَفْوِك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ علىٰ نفسك»** (٣).

فلا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه البتة، وله أسماءٌ وأوصاف وحمدٌ

(١) أخرجه أحمد (٣٧١٢)، وصححه ابن حبان (٩٧٢).
(٢) البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).
(٣) أخرجه مسلم (٤٨٦).

وثناءٌ لا يعلمه ملَك مقرَّب، ولا نبي مرسَل. ونسبة ما يعلم العبادُ من ذلك إلىٰ ما لا يعلمونه كنَقْرَةِ عصفورٍ في بحر.

فإن قيل: فكيف تصنعون بما يُشاهَد من أنواع الابتلاء والامتحان والآلام للأطفال والحيوانات ومن هو خارج عن التكليف ومن لا ثواب ولا عقاب عليه؟ وما تقولون في الأسماء الدَّالَّة علىٰ ذلك من المنتقم والقابض والخافض ونحوها؟

قيل: قد تقدَّم من الكلام في ذلك ما يكفي بعضه لذي الفطرة السليمة والعقل المستقيم. وأمَّا من فسدت فطرتُه، وانتكس قلبُه، وضعفت بصيرةُ عقله، فلو ضُرب له من الأمثال ما ضُرب فإنَّه لا يزيده إلا عمًىٰ وتحيرًا. ونحن نزيد ما تقدم إيضاحًا وبيانًا، إذ بسطُ هذا المقام أولىٰ من اختصاره، فنقول:

قد علمتَ أنَّ جميع أسماءِ الربِّ جلَّ جلاله حسنىٰ، وصفاتِه كمال، وأفعالِه حكمةٌ ومصلحة؛ وله كلُّ ثناءٍ وكلُّ حمدٍ ومِدْحَة، وكلُّ خير فمنه وله وبيده، والشرُّ ليس إليه بوجه من الوجوه: لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه. وإن كان في مفعولاته فهو خيرٌ بإضافته إليه، وشرٌّ بإضافته إلىٰ من صدر عنه ووقع به. **فتمسَّكْ بهذا الأصل ولا تُفارِقْه في كلِّ دقيق وجليل، وحكِّمه علىٰ كلِّ ما يرد عليك، وحاكِمْ إليه واجعله آخيَّتَك التي ترجع إليها وتعتمد عليها.**

واعلم أنَّ لله خصائصَ في خلقه، ورحمةً وفضلًا يختص به من يشاءُ، وذلك موجَب ربوبيَّته وإلهيَّته وحمده وحكمته، فإيَّاك ثمَّ إيَّاكَ أن تُصغي إلىٰ وسوسة شياطين الإنس والجنّ والنفس الجاهلة الظالمة أنَّه هلَّا سوَّىٰ بين

عباده في تلك الخصائص، وقسَّمها بينهم علىٰ السواء؟ فإنَّ هذا عين الجهلِ والسفَه من المعترض به. وقد بيَّنَّا فيما تقدم أنَّ حكمته تأبىٰ ذلك وتمنع منه.

ولكن اعلم أنَّ الأمرَ قسمةٌ بين فضله وعدله، فيختص برحمته من يشاء، ويقصد بعذابه من يشاء، وهو المحمود علىٰ هذا وهذا. فالطيبون من خلقه مخصوصون بفضله ورحمته، والخبيثون مقصودون بعذابه، ولِكلِّ واحدٍ قسطُه من الحكمة والابتلاء والامتحان، وكلٌّ مستعملٌ فيما هو له مهيَّأ وله مخلوق.

وكلُّ ذلك خير ونفع ورحمة للمؤمنين، فإنَّه تعالىٰ خلقهم للخيرات فهم لها عاملون، واستعملهم فيها فلم يدركوا ذلك إلا به، ولا استحقوه إلا بما سبق لهم من مشيئته وقَسْمه، فلذلك لا تضرهم الأدواءُ ولا السُّموم، بل متىٰ وسوس لهم العدو، أو اغتالهم بشيءٍ من كيده، أو مسَّهم بشيء من طيفه ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١- ٢٠٢].

وإذا واقعوا معصيةً صغيرةً أو كبيرةً عاد ذلك عليهم رحمةً، وانقلب في حقهم دواءً، وبُدِّلَ حسنةً بالتوبة النصوح والحسنات الماحية؛ لأنَّه سبحانه عرَّفهم بنفسه وبفضله، وبأنَّ قلوبهم بيده وعصمتهم إليه، حيث نقض عزماتِهم، وقد عزموا أن لا يعصوه، وأراهم عزَّتَه في قضائه، وبرَّه وإحسانه في عفوه ومغفرته، وأشهدهم نفوسهم وما فيها من النقص والظلم والجهل، وأشدهم حاجَتهم إليه وافتقارَهم وذلَّهم، وأنَّه إن لم يعفُ عنهم ويغفر لهم فليس لهم سبيل إلىٰ النجاة أبدًا.

فإنَّهم لمَّا أعطوه من أنفسهم العزمَ أن لا يعصوه، وعقدوا عليه قلوبَهم، ثمَّ عصوه بمشيئته وقدرته، عرفوا بذلك عظيمَ اقتداره، وجميلَ ستره إيَّاهم،

وكريـمَ حلمِـه عنهم، وسـعةَ مغفرتـه لهم، وبردَ عفـوِه وحنانه وعطفـه ورأفته، وأنَّه حليـم ذو أنـاة لا يعجـل، ورحيم سـبقت رحمتُـه غضبَه، وأنَّهم متىٰ رجعـوا بالتوبة إليـه وجـدوه غفـورًا رحيمًـا حليمًا كريمًـا، يغفر لهم السيئات، ويُقيلهـم العثرات، ويودهـم بعـد التوبـة ويحبهم.

فتضرعـوا إليـه حينئـذٍ بالدعـاءِ، وتوسـلوا إليـه بـذلّ العبيـد وعـزّ الربوبيَّـة. فتعرَّف سـبحانه إليهـم بحسـن إجابته وجميل عطفه وحسـن امتنانـه في أنْ ألهمهم دعـاءَه، ويسَّـرهم للتوبـة والإنابـة، وأقبلـوا بقلوبهـم إليـه بعـد إعراضهـا عنـه. ولـم تمنعـه معاصيهـم وجناياتُهـم مـن عطفـه عليهـم وبـرِّه لهـم وإحسـانه إليهـم، فتـابَ قبـل أن يتوبـوا إليـه، وأعطاهـم قبـل أن يسـألوه.

فلمَّـا تابـوا إليـه واسـتغفروه وأنابـوا إليـه تعـرَّف إليهـم تعرُّفًـا آخـر: فعرَّفهـم رحمتَـه، وحسـنَ عائدتـه، وسـعةَ مغفرتـه، وكريـمَ عفـوه، وجميـلَ صفحـه، وبـرَّه وامتنانَـه وكرمَـه، وسـرعةَ مبادرتـه قبولَهـم بعـد أن كان منهـم مـا كان مـن طـول الشـرود، وشـدَّة النفـور، والإيضـاع[١] في طـرق معاصيـه.

وأشـهدَهم مـع ذلـك حمـدَه العظيـم، وبـرَّه العميم، وكرمَـه في أن خلَّـىٰ بينهم وبيـن المعصيـة، فنالوهـا بنعمتـه وإعانتـه، ثـمَّ لـم يُخـلِّ بينهـم وبيـن مـا توجبـه مـن الإهـلاكِ والفسـادِ الـذي لا يُرجـىٰ معـه صـلاح، بـل تداركهـم بالـدواءِ الشـافي، فاسـتخرج منهـم داءً لـو اسـتمرَّ معـه لأفضـىٰ إلـىٰ الهـلاك.

ثـمَّ تداركهـم بـروحِ الرجاءِ، فقذفـه في قلوبهم، وأخبر أنَّه عنـد ظنونهم به. ولو أشـهدهم عظَيـمَ الجنايـة، وقبـحَ المعصيـة، وغضبَـه ومقتَـه علـىٰ مَـن عصـاه فقـط،

(١) الإيضاع: الإسراع.

لأورثهم ذلك المرضَ القاتل والداءَ العضال من اليأس من رَوحه والقُنوط من رحمته، وكان ذلك عينَ هلاكهم. ولكن رحمهم قبل البلاء، وفي حَشْو البلاء، وبعد البلاء. وجعل تلك الآثار التي تُوجِبها معصيتُه من المحن والبلاءِ والشدائد رحمةً لهم وسببًا إلىٰ علوِّ درجاتهم ونيل الزلفىٰ والكرامة عنده. فأشهدهم بالجناية عزَّةَ الربوبية وذلَّ العبيد، ورَقَّاهم بآثارها إلىٰ منازل قربه ونيل كرامته؛ فهم علىٰ كلِّ حال يربحون عليه، ويتقلبون في كرمه وإحسانه، فكلُّ قضاءٍ يقضيه للمؤمن فهو خير له، يسوقه به إلىٰ كرامته وثوابه.

وكذلك عطاياه الدنيوية نعمٌ منه عليهم، فإذا استرجعها أيضًا منهم وسلبَهم إيَّاها انقلبت من عطايا الآخرة، كما قيل: إنَّ الله يُنعِم علىٰ عباده بالعطايا الفاخرة، فإذا استرجعها كانت من عطايا الآخرة.

والربُّ سبحانه قد تجلَّىٰ لقلوب المؤمنين العارفين، وظهر لها بقدرته وجلاله وكبريائه، ومَضَاءِ مشيئته، وعظيم سلطانه، وعليِّ شأنه، وكرمه وبره وإحسانه، وسعة مغفرته ورحمته، وما ألقاه في قلوبهم من الإيمان بأسمائه وصفاته إلىٰ حيث احتملَتْه القوىٰ البشرية من ذلك، ووراءَه -ممَّا لا تحتمله قواهم، ولا يخطر ببال، ولا يدخل في خلَد- ما لا نسبةَ لما عرفوه إليه.

فاعلم أنَّ الذين كان قِسْمُهم أنواعَ المعاصي والفجور، وفنونَ الكفر والشرك، والتقلبَ في غضبه وسخطه= قلوبُهم وأرواحهم شاهدةٌ عليهم بالمعاصي والكفر، مُقِرَّةٌ بأنَّ له الحجَّةَ عليهم وأنَّ حقَّه قِبَلهم. ولا يدخل النارَ منهم أحدٌ إلا وهو شاهدٌ بذلك، مقِرٌّ به، معترفٌ اعترافَ طائعٍ مختار لا مُكرَه مضطهد، فهذه شهادتُهم علىٰ أنفسهم وشهادةُ أوليائه عليهم.

والمؤمنون يشهدون له فيهم بشهادة أخرىٰ لا يشهد بها أعداؤه، ولو شهدوا بها وباؤوا بها لكانت رحمتُه أقربَ إليهم من عقوبته. فيشهدون بأنَّهم عبيده ومِلكه، وأنَّه أوجدهم ليظهر بهم مجدُه، وينفُذَ فيهم حُكمُه، ويمضي فيهم عدلُه، ويحقَّ عليهم كلمتُه، ويصدقَ فيهم وعيدُه، ويَبين فيهم سابقُ علمه، ويعمُرَ بهم ديارُهم ومساكنهم التي هي محل عدله وحكمته.

وشهد أولياؤه عظيمَ ملكه، وعزَّ سلطانه، وصدقَ رسله، وكمالَ حكمته، وتمامَ نعمته عليهم، وقدرَ ما اختصَّهم به، ومن أي شيء حماهم وصانهم، وأيَّ شيء صَرف عنهم؛ وأنَّه لم يكن لهم إليه وسيلةٌ قبل وجوده يتوسلون بها إليه أن لا يجعلهم من أصحاب الشمال وأن يجعلهم من أصحاب اليمين.

وشهدوا له سبحانه بأنَّ ما كان منه إليهم وفيهم -ممَّا يقتضيه إتمامُ كلماته الصدق والعدل، وصدقُ قوله، وتحقيقُ مقتضىٰ أسمائه- فهو محضُ حقِّه. وكلُّ ذلك منه حسن جميل، له عليه أتمُّ حمدٍ وأكملُه وأفضلُه. وهو حُكمٌ عدلٌ، وقضاءٌ فصل. وأنَّه المحمود علىٰ ذلك كلِّه، فلا يلحقه منه ظلم ولا جور ولا عبث، بل ذلك عين الحكمة، ومحض الحمد، وكمالٌ أظهره في حقه، وعزٌّ أبداه، وملكٌ أعلنه، ومرادٌ له أنفذه؛ كما فعل بالبُدْن وضروب الأنعام: أتمَّ بها مناسكَ أوليائه وقرابين عباده، وإن كان ذلك بالنسبة إلىٰ الأنعام هلاكًا وإتلافًا. فأعداؤه الكفَّار المشركون به الجاحدون به أولىٰ أن تكون دماؤهم قرابينَ أوليائه وضحايا المجاهدين في سبيله، كما قال حسَّان بن ثابت رضي الله عنه[1]:

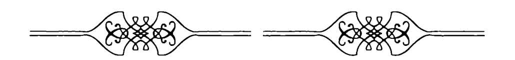
يتطهَّرون، يَرونَه قُربانَهم ... بدماءِ مَن عَلِقوا من الكفَّار

---

(١) البيت لكعب بن زهير. انظر: «ديوانه» (٣٥).

وكذلك لمَّا ضحَّىٰ خالد بن عبد الله القَسْري بشيخ المعطِّلة الفرعونية الجعد بن درهم، فإنَّه خطبهم في يوم أضحىٰ، فلمَّا أكمل خطبته قال: «أيّها النَّاسُ ضَحُّوا، تقبَّل الله ضحاياكم، فإنِّي مُضَحٍّ بالجعد بن درهم؛ إنَّه زعمَ أنَّ الله لم يكلِّم موسىٰ تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيمَ خليلًا، تعالىٰ عمَّا يقول الجعدُ علوًّا كبيرًا»، ثم نزل، فذبحه، وكان ضحيته. وذكر ذلك البخاري في كتاب «خلق الأفعال»[1].

فهذا شهودُ أوليائه من شأن أعدائه، ولكن أعداؤه في غفلة عن هذا لا يشهدونه ولا يُقرُّون به، ولو شهدوه وأقروا به لأدركهم حنانُه ورحمتُه، ولكن لمَّا حُجِبوا عن معرفته، ومحبته، وتوحيده، وإثبات أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، ووَصْفِه بما يليق به، وتنزيهه عمَّا لا يليق به= صاروا أسوأَ حالًا من الأنعام، وضُرِبوا بالحجاب، وأُبعِدوا عنه بأقصىٰ البعد، وأُخرجوا من نوره إلىٰ الظلمات، وغُيِّبتْ قلوبُهم من الجهل به وبكماله وجلاله وعظمته في غيابات، ليتمَّ عليهم أمرُه، وينفذ فيهم حكمُه، والله عليم حكيم.



(١) (ص٢٩).

فصل

١/ ٢٩٦

اقتضاء حكمة الله أن خلق دارين وخص كل دارٍ بأهل

والله سبحانه مع كونه خالقَ كلِّ شيء، فهو موصوف بالرضا والغضب، والعطاء والمنع، والخفض والرفع، والرحمة والانتقام. **فاقتضت حكمتُه تعالىٰ أن خلقَ دارًا لطالبي رضاه** العاملين بطاعته، المؤثرين لأمره، القائمين بمحابة، وهي الجنَّة. وجعل فيها كل شيء مرضي، وملأها من كلِّ محبوب ومرغوب ومشتهًىٰ ولذيذ، وجعل الخيرَ بحذافيره فيها، وجعلها محلَّ كلِّ طيبٍ من الذوات والصفات والأقوال.

وخلق دارًا أخرىٰ لطالبي أسباب غضبه وسخطه، المؤثرين لأغراضهم وحظوظهم علىٰ مرضاته، العاملين بأنواع مخالفته، القائمين بما يكره من الأعمال والأقوال، الواصفين له بما لا يليق به، الجاحدين لما أخبرتْ به رسلُه من صفات كماله ونعوت جلاله، وهي جهنَّم. وأودعها كلَّ شيء مكروه، وشحنَها من كلِّ مؤذٍ ومؤلم، وجعل الشرَّ بحذافيره فيها، وجعلها محلَّ كلِّ خبيثٍ من الذوات والصفات والأقوال والأعمال.

فهاتان الداران هما دارا القرار.

وخلق دارًا ثالثة هي كالميناء لهاتين الدارين، ومنها يتزود المسافرون إليهما، وهي دار الدنيا. ثمَّ أخرج إليها من آثار الدارين بعضَ ما اقتضَتْه أعمالُ أربابهما وما يُستدلُّ به عليهما، حتَّىٰ كأنَّهما رأيُ عين، ليصير للإيمان بالدَّارين -وإن كان غيبًا- وجهُ شهادةٍ تستأنس به النفوس، وتستدلّ به. فأخرج سبحانه إلىٰ هذه الدار من آثار رحمته من الثمار والفواكه، والطيبات، والملابس

الفاخرة، والصور الجميلة، وسائر ملاذّ النفوس ومشتهاها ما هو نفحةٌ من نفحات الدار التي جعل ذلك كله فيها على وجه الكمال. فإذا رآه المؤمنون ذكَّرهم بما هناك من الحَبْرة والسرور والعيش الرخي، كما قيل:

فإذا رآكِ المسلمون تيقَّنوا حُورَ الجِنانِ لدىٰ النعيم الخالدِ[(١)]

فشمَّروا إليه وقالوا: «**اللهم لا عيش إلا عيشُ الآخرة**»[(٢)]. وأحدثت لهم رؤيتُه عَزماتٍ وهممًا وجدًّا وتشميرًا، لأنَّ النعيم يذكِّر بالنعيم، والشيء يذكِّر بجنسه؛ فإذا رأىٰ أحدُهم ما يُعجبه ويروقه ولا سبيل له إليه قال: «موعدك الجنَّة، وإنَّما هي عشية أو ضحاها». فوجودُ تلك المشتهيات والملذوذات في هذه الدار رحمةٌ من الله، يشوِّق بها عبادَه المؤمنين إلىٰ تلك التي هي أكملُ منها، وزادٌ لهم من هذه الدار إليها. فهي زاد، وعبرة، ودليل، وأثرٌ من آثار رحمته التي أودعها تلك الدار. فالمؤمن يهتزُّ برؤيتها إلىٰ ما أمامه، ويثير ساكنَ عزماته إلىٰ تلك، فنفسه ذوَّاقة توَّاقة، إذا ذاقت شيئًا منها تاقت إلىٰ ما هو أكملُ منه حتىٰ تَتُوقَ إلىٰ النعيم المقيم في جوار الرب الكريم.

وأخرجَ سبحانه إلىٰ هذه الدار أيضًا من آثار غضبه ونقمته من العقوبات والآلام والمحن والمكروهات من الأعيان والصفات ما يُستدَلُّ بجنسه علىٰ ما في دار الشقاء من ذلك، مع أنَّ ذلك من آثار النفَسين الشتائي والصيفي اللذَين أذِنَ الله سبحانه بحكمته لجهنَّم أن تتنفَّسَ بهما[(٣)]، فاقتضت بذينك النفسين آثارًا ظهرت في هذه الدار كانت دليلًا عليها وعبرة. وقد أشار تعالىٰ إلىٰ هذا المعنىٰ،

---

(١) لأبي إسحاق الصابئ في «يتيمة الدهر» (٢/ ٢٥٩).
(٢) أخرجه البخاري (٢٩٦١).
(٣) كما في البخاري (٥٣٧)، ومسلم (٦١٧)، من حديث أبي هريرة.

ونبَّهَ عليه بقوله في نار الدنيا: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٣]، تذكرةً تُذِّكر بنار الآخرة، ومنفعةً للنازلين بالقَواءِ، وهم المسافرون. يُقال: أقوىٰ الرجلُ، إذا نزل بالقِيِّ والقَوَاءِ، وهي الأرض الخالية. وخص المقوين بالذكر، وإن كانت منفعتُها عامَّةً للمسافرين والمقيمين، تنبيهًا لعباده -والله أعلم بمراده من كلامه- علىٰ أنَّهم كلهم مسافرون، وأنَّهم في هذه الدار علىٰ جناح سفرٍ، ليسوا مقيمين ولا مستوطنين، وأنَّهم عابرو سبيل وأبناء سفر.

والمقصود: أنَّهُ سبحانه أشهدَهم في هذه ما أعدَّ لأوليائه وأعدائه في دار القرار، وأخرج إلىٰ هذه الدار من آثار رحمته وعقوبته ما هو عبرة ودلالة علىٰ ما هناك من خيرٍ وشرٍّ. وجعل هذه العقوبات والآلام والمحن والبلايا سياطًا يسوقُ بها عبادَه المؤمنين، فإذا رأوها حذِروا كلَّ الحذَر، واستدلُّوا بما رأوه منها وشاهدوه علىٰ ما في تلك الدار من المكروهات والعقوبات. وكان وجودُها في هذه الدار وإشهادُهم إياها، وامتحانُهم باليسير منها رحمةً منه بهم، وإحسانًا إليهم، وتذكرة وتنبيهًا.

ولمَّا كانت هذه الدار ممزوجًا خيرُها بشرها، وأذاها براحتها، ونعيمُها بعذابها اقتضت حكمةُ أحكم الحاكمين أن خلَّص خيرَها من شرِّها، وخصَّه بدار أخرىٰ هي دار الخيرات المحضة ودار الشرور المحضة. فكتب علىٰ هذه الدار حُكمَ الامتزاج والاختلاط، وخلَطَ فيها بين الفريقين، وابتلَىٰ بعضهم ببعض، وجعَل بعضَهم لبعض فتنة؛ حكمةً بالغةً بهرت العقول وعزَّةً قاهرة. فقام بهذا الاختلاط سوقُ العبودية كما يحبه ويرضاه، ولم تكن تقوم عبوديته التي يحبها ويرضاها إلا علىٰ هذا الوجه، بل العبد الواحد جمَع فيه بين أسباب الخير والشر، وسلَّط بعضَه علىٰ بعض ليستخرج منه ما يحبه من العبودية التي لا تحصل إلا بذلك.

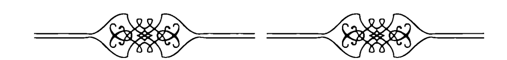
فلمَّا حصلت الحكمة المطلوبة من هذا الامتزاج والاختلاط أعقبَه بالتمييز والتخليص، فميَّز بينهما بدارين ومحلين، وجعل لكلِّ دارٍ ما يناسبها، وأسكن فيها من يناسبها، وخلَق المؤمنين المتقين المخلصين لرحمته، وأعداءَه الكافرين لنقمته، والمخلِّطين للأمرين معًا: فهؤلاء أهل الرحمة، وهؤلاء أهل النقمة، وهؤلاء أهل الرحمة والنقمة، وقسمٌ آخر لا يستحقون ثوابًا ولا عقابًا. ورتَّب علىٰ كلِّ قسم من هذه الأقسام حُكمَه اللائقَ به، وأظهر فيه حكمتَه الباهرة، ليعلمَ العبادُ كمالَ قدرته وحكمته، وأنَّه يخلق ما يشاءُ، ويختار من خلقه من يصلح للاختيار، وأنَّه يضع ثوابَه موضعَه، وعقابَه موضعَه، ويجمع بينهما في المحلِّ المقتضي لذلك، ولا يظلم أحدًا، ولا يبخسه شيئًا من حقِّه، ولا يعاقبه بغير جنايته.

هذا مع ما في ضمن هذا الابتلاء والامتحان من الحِكَم الراجعة إلىٰ العبيد أنفسهم: من استخراجِ صبرهم وشكرهم وتوكلهم وجهادهم، واستخراج كمالاتهم الكامنة في نفوسهم من القوَّة إلىٰ الفعل، ودفع الأسباب بعضها ببعض، وكسرِ كلِّ شيء بمقابله ومصادمته بضده، ليظهر عليه آثارُ القهر وسماتُ الضعف والعجز، ويستيقنَ العبد أنَّ القهَّار لا يكون إلا واحدًا، وأنَّه يستحيل أن يكون له شريك، بل القهر والوحدة متلازمان.

فالملك والقدرة والقوَّة والعزَّة كلها لله الواحد القهَّار، ومن سواه مربوبٌ مقهورٌ له ضدٌّ ومناوٍ ومشارك. فخلقَ الرياحَ، وسلَّطَ بعضها علىٰ بعض تُصادمها، وتكسِر سَورتَها، وتذهب بها. وخلقَ الماء، وسلَّطَ عليه الرياحَ تصرِّفه وتكسره. وخلق النَّار، وسلَّطَ عليها الماءَ يكسرها ويطفئها. وخلقَ الحديد، وسلَّط عليه النار تُذيبه وتكسر قوته. وخلق الحجارة، وسلَّط عليها

الحديد يكسرها ويفتِّتها. وخلق آدم وذريته، وسلَّطَ عليهم إبليس وذريته. وخلَق إبليس وذريته، وسلَّطَ عليهم الملائكة يشرِّدونهم كلَّ مشرَّد ويُطرِّدونهم كلَّ مطرَّد. وخلق الحرَّ والبرد والشتاء والصيف، وسلَّطَ كلًّا منها علىٰ الآخر يُذهِبه ويقهَره. وخلقَ الليل والنهار، وقهرَ كلًّا منهما بالآخر. وكذلك الحيوان علىٰ اختلاف ضروبه من حيوان البر والبحر، لكلٍّ منه مضاد ومغالب.

فاستبان للعقول والفطَر أنَّ القاهر الغالب لذلك كلِّه واحدٌ، وأنَّه من تمام ملكه إيجادُ العالم علىٰ هذا الوجه، وربطُ بعضه ببعض، وإحواجُ بعضه إلىٰ بعض، وقهرُ بعضه ببعض، وابتلاءُ بعضه ببعض، وامتحانُ خيره بشرّه وجعلُ شرّه لخيره الفداءَ. ولهذا يُدفع إلىٰ كلِّ مؤمن يوم القيامة كافرٌ فيقال له: «**هذا فداؤكَ من النار**»[1]. وهكذا المؤمن في الدنيا يسلَّط عليه من الابتلاء والامتحان والمصائب ما يكون فداءَه من عذاب الله، وقد تكون تلك الأسباب فداءً له من شرورٍ أكبر منها في العالم أيضًا. فَلْيُعطِ اللبيبُ هذا الموضع حقَّه من التدبر يتبين له حكمةُ اللطيف الخبير.



(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٩٢)، وله شاهد عند مسلم (٢٧٦٧).

١/ ٣٠٣

فصل

الأصل في المخلوقات الفطرة والطهارة

وقد تقرَّر أنَّ الله سبحانه كامل الصفات، له الأسماء الحسنىٰ، ولا يكون عن الكامل في ذاته وصفاته إلا الفعل المحكم. وهو سبحانه خلقَ عبادَه علىٰ الفطرة، وكلُّ مولود فإنَّما يولد علىٰ الفطرة التي فُطِرَ الخلائق عليها، ولكنَّ الآباء والكافلين للمولودين يخرجونهم من الفطرة، ويَعدِلون بهم عنها، ولو تركوهم لما اختاروا عليها غيرَها، ولكن أخرجوهم عن سَنَنِ الحنيفية وأفسدوا فِطَرهم وقلوبهم. وهكذا بالأضداد والأغيار يخرُج بعض المخلوقات عن سَنَن الإتقان والحكمة، ولولا تلك الأضداد والأغيار لكانت في مرتبتها كالمولود في فطرته، ولذلك أمثلة:

المثال الأوَّل: أنَّ الماءَ خلقه الله في الأصل طاهرًا مطهِّرًا، فلو تُرِكَ علىٰ حالته التي خُلِقَ الله عليها ولم يخالطه ما يزيلُ طهارته لم يكن إلا طاهرًا، ولكن بمخالطته أضدادَه من الأنجاس والأقذار تغيرت أوصافه، وخرج عن الخلقة التي خلق عليها. فكانت تلك النجاسات والقاذورات بمنزلة أبوي الطفل وكافلِيه الذين يُهوِّدونه ويُنصِّرونه ويُمجِّسونه ويشرِّكونه. وكما أنَّ الماءَ إذا فسدَ بمخالطته الأنجاسَ والقاذوراتِ لم يصلح للطهارة، فكذلك القلوب إذا فسدت فِطَرُها بالأغيار لم تصلح لحظيرة القدس.

المثال الثاني: الشرابُ المعتصَرُ من العنب، فإنَّه طيِّب يصلح للدواءِ ولإصلاح الغذاءِ وللمنافع التي يصلح لها. ولو خُلِّيَ علىٰ حاله لم يكن إلا طاهرًا طيِّبًا، ولكن أفسد بتهيئته للسكر واتخاذه مسكرًا، فخرج بذلك عن

خلقته التي خُلِقَ عليها من الطهارة والطيب، فصارَ أخبثَ شيءٍ وأنجسه. فلو انقلبَ خلًّا، أو زالَ تغيُّر الماءِ، كان بمنزلة رجوع الكافر إلىٰ فطرته الأولىٰ، فإنَّ الحكمَ إذا ثبتَ لعلَّةٍ زال بزوالها.

المثال الثالث: الأغذية الطيِّبة النافعة إذا خالطت باطنَ الحيوانِ واستقرَّت هناك خرجت عن حالتها التي خُلِقَتْ عليها، واكتسبَتْ بهذه المخالطة والمجاورةِ خبثًا وفسادًا لم يكن فيها، لسلوكها في غير طرقها التي بها كمالها.

ولمَّا أنزلَ اللهُ الماءَ طاهرًا نافعًا، فمازج الأرضَ، وسالت به أوديتها، أوجدَ -جل جلاله- بينهما بسبب هذه المخالطة والممازجة أنواعَ الثمارِ والفواكه والزروع والنخيل والزيتون وسائر الأغذية والأقوات، وأوجدَ مع ذلك المُرَّ والشوكَ والحنظلَ وغير ذلك. واللقاح واحد، ولكن الأم مختلفة. قال تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

ثـمَّ إنَّه سبحانه يُصرِّف ما أخرجه من هذا الماءِ، ويُقلِّبه، ويحيل بعضَه إلىٰ بعض، وينقل بعضه بالمخالطة والمجاورة عن طبيعته إلىٰ طبيعة أخرىٰ. وهذا كما خلق كلَّ دابَّةٍ من ماءٍ، ثمَّ خالفَ بين صورها وقواها ومنافعها وأوصافها وما تصلح له، وأمشىٰ بعضَها علىٰ بطنه، وبعضَها علىٰ رجلين، وبعضَها علىٰ أربع؛ حكمة بالغة، وقدرة باهرة.

وكذلك سبحانه يقلِّب الليل والنهار، ويقلِّب ما يوجد فيهما، ويقلِّب أحوال العالم كما يشاء، ويسلك بذلك كلِّه مسلك الحكمة البالغة التي بها يتم

مراده، ويظهر ملكه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهذا القرآن المجيد عمدتُه ومقصودُه الإخبارُ عن صفات الربّ جلّ جلاله وأسمائه وأفعاله وأنواعِ حمده والثناءِ عليه، والإنباءُ عن عظمته وعلائه وحكمته وإبداع صنعه، والتقدُّمُ إلىٰ عباده بأمره ونهيه علىٰ ألسنة رسله، وتصديقُهم بما أقامه من الشواهد والدلالات علىٰ صدقهم وبراهين ذلك ودلائله، وتبيينُ مراده من ذلك كلّه. وكان من تمام ذلك: الإخبارُ عن الكافرين والمكذّبين، وذكرُ ما أجابوا به رسلهم وقابلوا به رسالاتِ ربهم، ووصفُ كفرهم وعنادهم وكيف كذَبوا علىٰ الله، وكذَّبوا رسلَه، وردُّوا أمره ونصائحه. وكان في اجتلاب ذلك من العلوم والمعارف والبيانِ وضوحُ شواهد الحقّ، وقيامُ أدلّته، وتنوُّعُها.

وكان موقع هذا من خلقه موقعَ تسبيحه تعالىٰ وتنزيهه من الثناءِ عليه، فإن أسماءَه تعالىٰ الحسنىٰ وصفاتِه العلىٰ هي موضع الحمد، ومن تمام حمده تسبيحُه وتنزيهُه عمَّا وصفه به أعداؤه والجاهلون به مما لا يليق به. وكان في تنوّع تنزيهه عن ذلك من العلوم والمعارف وتقرير صفات الكمال وتكميل أنواع الحمد ما في بيان محاسن الشيء وكماله عند معرفة ما يضادُّه ويخالفه. ولهذا كان تسبيحُه تعالىٰ من تمام حمده، وحمدُه من تمام تسبيحه؛ ولهذا كان التسبيح والتحميد قرينين، فكان ما نسبه إليه أعداؤه والمعطّلون لصفات كماله -من علّوه علىٰ خلقه وإنزاله كلامه الذي تكلّم به علىٰ رسله وغير ذلك من صفات كلامه- موجبًا لتنزيه رسله له وتسبيحهم عن ذلك مما نزَّه عنه نفسَه وسبَّح به نفسَه. وكان في ذلك ظهورُ حمده لخلقه، وتنوُّعُ أسبابه، وكثرةُ

شواهده، وسعةُ طرق الثناءِ عليه به، وتقريرُ عظمته ومعرفته في قلوب عباده. فلولا معرفةُ الأسباب التي يُسبَّح ويُنزَّه ويتعالىٰ عنها، وخَلْقُ مَن يضفيها إليه ويصفه بها، لما قامت حقيقة التسبيح، ولا ظهر لقلوب أهل الإيمان عن أيِّ شيءٍ يُسبِّحونه وعمَّاذا ينزّهونه. فلما رأوا في خلقه مَن قد نسبه إلىٰ ما لا يليق به، وجحد مِن كماله ما هو أولىٰ به، سبَّحوه حينئذ تسبيحَ مُجِلٍّ له، مُعظِّمٍ له، منزِّهٍ له عن أمرٍ قد نسبه إليه أَعداؤه والمعطّلون لصفاته.

ونظير هذا اشتمال كلمة الإسلام -وهي شهادة أن لا إله إلّا الله- علىٰ النفي والإثبات. فكان في الإتيان بالنفي في صدر هذه الكلمة من تقرير الإثبات، وتحقيق معنىٰ الإلهية، وتجريد التوحيد الذي يُقصد بنفي الإلهيَّة عن كلّ من ادُّعِيَتْ فيه سوىٰ الإله الحق تبارك وتعالىٰ. فتجريدُ هذا التوحيد من العقد واللسان بتصوُّر إثبات الإلهيَّة لغير الله -كما قاله أعداؤه المشركون- ونفيُه وإبطالُه من القلب واللسان من تمام التوحيد وكماله، وتقريره، وظهور أعلامه، ووضوح شواهده، وصدق براهينه.

ونظير ذلك أيضًا أنّ تكذيبَ أعداءِ الرسل لهم وردَّهم ما جاؤوهم به كان من الأسباب الموجِبة ظهورَ براهينِ صدقِ الرسل، ودفعَ ما احتجّ به أعداؤهم عليهم من الشبه الداحضة، ودحضَ حججهم الباطلة، وتقريرَ طرق الرسالة، وإيضاحَ أدلتها. فإنّ الباطل كلّما ظهر فسادُه وبطلانُه أسفر وجهُ الحقّ، واستنارت معالمه، ووضحت سبُلُه، وتقرَّرَت براهينُه. فكسرُ الباطل ودحضُ حججه وإقامةُ الدليل علىٰ بطلانه من أدلّة الحق وبراهينه.

فتأمَّلْ كيف اقتضىٰ الحقُّ وجودَ الباطل، وكيف تمَّ ظهورُ الحق بوجود

الباطل، وكيف كان كفرُ أعداءِ الرسل بهم وتكذيبُهم لهم ودفعهُم ما جاؤوا به هو من تمام صدق الرسل، وثبوت رسالات الله، وقيام حججه علىٰ العباد.

ولنضربْ لذلك مثالًا يتبيَّن به، وهو: مَلِكٌ له عبدٌ قد توحَّد في العالم بالشجاعة والبسالة، والناس بين مصدِّق ومكذِّب. فمِن قائلٍ: هو كذلك، ومِن قائلٍ: هو بخلاف ما يُظَنّ به، فإنّه لم يقابل الشجعان، ولا واجه الأقران. ولو نازل الأقران، وقابل الشجعان، لظهر أمرُه، وانكشف حالُه. فسمع به شجعانُ العالم وأبطالُهم، فقصدوه من كلّ أوب، وأمُّوه من كلّ قطر، فأراد الملك أن يُظهر لرعيَّته ما هو عليه من الشجاعة، فمكّن تلك الشجعان والأبطال من منازلته ومقاومته، وقال: دونكم وإيّاه، وشأنكم به. فهل تسليطُ المِلك لأولئك علىٰ عبده ومملوكه إلَّا لإعلاءِ شأنه، وإظهار شجاعته في العالم، وتخويف أعدائه به، وقضاءِ الملِك أوطارَه به؟

وكما يترتّب علىٰ هذا إظهارُ شجاعة عبده وقوَّته، وحصولُ مقصوده بذلك؛ فكذلك يترتَّب عليه ظهورُ كذبِ من ادَّعىٰ مقاومته، وظهورُ عجزهم، وفضيحتُهم وخزيهم، وأنهم ليسوا ممن يصلح لمهمَّات الملِك وحوائجه. فإذا عدَل بهم عن مهمَّاته وولاياته وعدَل بها عنهم كان ذلك مقتضىٰ حكمة الملك وحسن تصرّفه في ملكه، وأنّه لو استعملهم في تلك المهمَّات لتشوَّش أمرُ المملكة، وحصل الخلل والفساد. فالله أعلم حيث يجعل رسالاته، وهو أعلم بالشاكرين.

والمقصود أنّ خلقَ الأسبابِ المضادَّةِ للحقّ وإظهارها في مقابلة الحق من أبيَن دلالاتِه وشواهدِه، فكان في خلقها من الحكمة ما لو فاتت لفاتت بها تلك الحكمةُ، وهي أحبُّ إلىٰ الله تعالىٰ من تفويتها بتقدير تفويت هذه الأسباب. والله أعلم.

١/ ٣٤٧

قاعدة

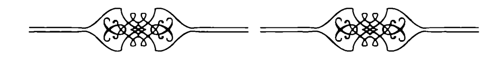
أسباب تخلف كمال العبد وصلاحه

كمال العبد وصلاحه يتخلَّف عنه من أحد جهتين:

إمَّا أن تكون طبيعته يابسةً قاسيةً غيرَ ليّنة ولا منقادة ولا قابلة لما به كمالُها وفلاحُها.

وإمَّا أن تكون ليّنة منقادة سلسة القياد، لكنَّها غيرُ ثابتة علىٰ ذلك، بل سريعة الانتقال عنه كثيرة التقلّب.

فمتىٰ رُزق العبدُ انقيادًا للحقّ وثباتًا عليه فَلْيُبْشِرْ، فقد يُسِّر لِكلّ خير، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.



١/ ٣٤٨

قاعدة

من علامة سعادة العبد أن يرده البلاء إلىٰ ربه

إذا ابتلىٰ الله عبدَه بشيء من أنواع البلايا والمحن، فإنْ ردَّه ذلك الابتلاءُ والامتحان إلىٰ ربّه، وجمعه عليه، وطرحه ببابه، فهو علامة سعادته وإرادة الخير به. والشدَّة بَتْراءُ لا دوام لها وإن طالت، فتُقْلِع عنه حين تُقلع وقد عُوِّض منها أجلَّ عوض وأفضلَه، وهو رجوعُه إلىٰ الله بعد أن كان شاردًا عنه، وإقبالُه عليه بعد أن كان نائيًا عنه، وانطراحُه علىٰ بابه وقد كان معرضًا، وللوقوف علىٰ أبواب غيره متعرّضًا.

وكانت البليةُ في حقِّ هذا عينَ النعمة، وإن ساءَتْه، وكرهها طبعه، ونفرت منها نفسه.

فربّما كان مكروهُ النفوسِ إلىٰ ... محبوبِها سببًا ما مثله سببُ[1]

وقوله تعالىٰ في ذلك هو الشفاءُ والعصمة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وإن لم يردَّه ذلك البلاءُ إليه، بل شرَّد قلبَه عنه، وردَّه إلىٰ الخلق، وأنساه ذكرَ ربِّه، والضراعةَ إليه، والتذلّلَ بين يديه، والتوبةَ والرجوع إليه؛ فهو علامة شقاوته وإرادةِ الشرّ به. فهذا إذا أقلع عنه البلاءُ ردَّه إلىٰ حكم طبيعته، وسلطان شهوته، ومرحه وفرحه؛ فجاءَتْ طبيعتُه عند القدرة بأنواع الأشَر والبطَر والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسرَّاء، كما أعرض عن ذكره والتضرُّع إليه في الضرَّاءِ. فبليَّةُ هذا وبالٌ عليه وعقوبة ونقص في حقّه، وبليةُ الأوّل تطهير له ورحمة وتكميل. وبالله التوفيق.

---

(١) هو من أبيات أوردها ابن العديم في «بغية الطلب» (٣٧٩٢).

قاعدة

في مشاهد الناس في المعاصي والذنوب

الناس في البلوىٰ التي تجري عليهم أحكامُها بإرادتهم وشهواتهم متفاوتون -بحسب شهودهم لأسبابها وغايتها- أعظم تفاوت. **وجماع ذلك ثمانية مشاهد**[1]:

أحدها: شهود السبب الموصل إليها، والغاية المطلوبة منها فقط. **وهو شهود الحيوانات**، إذ لا تشهد إلّا طريق قضاء وطَرها، وبرد النفس بعد تناولها. وهذا الضرب من الناس ليس بينه وبين الحيوان البهيم في ذلك فرق إلَّا تدقيق الحيلة في الوصول إليها، وربَّما زاد غيرُه من الحيوانات عليه في تناولها ولذَّته بها.

المشهد الثاني: من يشهد مع ذلك مجرَّدَ الحكم القدري وجريانه عليه، ولا يتجاوز شهوده ذلك. وربما رأىٰ أنّ الحقيقة هو توفية هذا المشهد حقَّه، ولا يتمُّ له ذلك إلّا بالفناءِ عن شهود فعله هو جملةً، فيشهد الفاعلَ فيه غيرَه والمحرّكَ له سواه، فلا ينسب إلىٰ نفسه فعلًا، ولا يرىٰ لها إساءَة، ويزعم أنّ هذا هو التحقيق والتوحيد.

المشهد الثالث: مشهد الفعل الكسبيّ القائم بالعبد فقط، ولا يشهد إلّا صدورَه عنه وقيامه به، ولا يشهد مع ذلك مشيئةَ الربّ له، ولا جريانَ حكمه القدريّ به، ولا عزّةَ الربّ تعالىٰ في قضائه ونفوذ أمره. بل قد فني بشهود معصيته وذنبه وقبح ما اجترمه عن شهود المشيئة النافذة والقدر السابق، إمَّا

---

(١) لم يذكر المؤلف المشهد الثامن. وانظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣-٥١) حيث ذكر فيه ثلاثة عشر مشهدًا.

لعدم اتساع قلبه لشهود الأمرين، فقد امتلأ من شهود ذنبه وجرمه وفعله، مع أنَّه مؤمن بقضاءِ الربّ وقدره، وأنَّ العبد أقلُّ قدرًا من أن يُحدِث في نفسه ما لم يسبق به مشيئةُ بارئه وخالقه. وإمَّا لإنكاره القضاءَ والقدر جملةً، وتنزيهه للرب تعالىٰ أن يُقدِّر علىٰ العبد شيئًا ثمَّ يلومه عليه.

المشهد الرَّابع: مشهد التوحيد والأمر، فيشهد انفرادَ الرب تعالىٰ بالخلق، ونفوذَ مشيئته، وتعلقَ الموجودات بأسرها بها، وجريانَ حكمه علىٰ الخليقة، وانتهاءها إلىٰ ما سبق في علمه، وجرىٰ به قلمه. ويشهد مع ذلك أمرَه ونهيه وثوابه وعقابه، وارتباطَ الجزاء بالأعمال واقتضاءها له، ارتباطَ المسبَّبات بأسبابها، التي جُعِلَت أسبابًا مقتضيةً له شرعًا وقدرًا وحكمة.

فشهودُه توحيدَ الرب تعالىٰ وانفرادَه بالخلقِ ونفوذَ مشيئته وجريانَ قضائه وقدره يفتحُ له بابَ الاستعانة به ودوام الالتجاء إليه والافتقار إليه. وذلك يُدنيه من عتبة العبودية، ويطرحه بالباب فقيرًا عاجزًا مسكينًا، لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا. وشهودُه أمرَه تعالىٰ ونهيَه وثوابَه وعقابَه يُوجِبُ له الجِدَّ والتشمير، وبذلَ الوسع، والقيامَ بالأمر، والرجوع علىٰ نفسه باللّوم والاعتراف بالتقصير. فيكون سيرُه بينَ شهودِ العزَّةِ والحكمة والقدرة الكاملة والعلم السابق والمنَّة العظيمة، وبينَ شهودِ التقصير والإساءةِ منه وتطلّب عيوبِ نفسه وأعمالها. فهذا هو العبدُ الموفَّق المعان، الملطوف به، المصنوع له، الذي أقيم مقام العبودية، وضُمِنَ له التوفيق.

وهذا هو مشهد الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، فهو مشهد أبيهم آدم، إذ يقول: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ومشهد أوَّل الرسل نوح، إذ يقول: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

ومشهد إمام الحنفاءِ وشيخ الأنبياء إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إذ يقول: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٢].

وقال في دعائه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فعلِمَ ﷺ أنَّ الذي يحول بين العبدِ وبينِ الشرك وعبادة الأصنام هو الله لا ربَّ غيره، فسأله أن يجنِّبه وبنيه عبادةَ الأصنام.

وهذا هو مشهد موسىٰ إذ يقول في خطابه لربِّه: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وهذا مشهد ذي النون، إذ يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فوحَّد ربَّه تعالىٰ، ونزَّهه عن كلِّ عيبٍ، وأضافَ الظلم إلىٰ نفسه.

وهذا مشهد صاحب سيِّد الاستغفار، حين يقول في دعائه: **«اللَّهم أنت ربِّي لا إلهَ إلا أنتَ، خَلَقْتَني وأنا عبدُكَ، وأنا علىٰ عَهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذُ بِكَ من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لَكَ بنعمتك عليَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي، إنَّه لا يغفرُ الذنوب إلا أنتَ»**[1].

---

(١) سبق تخريجه.

١/ ٣٥٩

فصل

أصناف الناس في مشهد التوحيد والأمر

ثمَّ أصحاب هذا المشهد فيه قسمان:

أحدهما: من يشهد تسلُّطَ عدوه عليه، وقِيادَه إيَّاه بسلسلة الهوىٰ، وكبحَه إيَّاه بلجام الشهوة. فهو أسيرٌ معه بحيث يسوقه إلىٰ ضرب عنقه، وهو مع ذلك ملتفت إلىٰ ربِّه وناصره ووليه، عالم بأنَّ نجاته في يديه، وأنَّ ناصية عدوه بيده، وأنَّه لو شاءَ طرده عنه وخلَّصه من يديه. فكلَّما قاده عدوُّه وكبحه بلجامه أكثر الالتفاتَ إلىٰ وليِّه وناصره، والتضرعَ إليه، والتذللَ بين يديه. وكلَّما زاد اغترابُه وبعدُه عن بابه تذكّر عطفَه وبرَّه وإحسانَه وجودَه وكرمَه وغناه وقدرته ورأفته ورحمته، فانجذبت دواعي قلبه هاربةً إليه، متراميةً علىٰ بابه منطرحةً علىٰ فنائه؛ كعبدٍ قد شُدَّتْ يداه إلىٰ عنقه، وقُدِّمَ لتضرب عنقُه، وقد استسلم للقتل، فنظرَ إلىٰ سيِّده أمامه، وتذكَّر عطفَه ورأفته به، ووجدَ فُرجةً، فوثب إليه منها. فهَبْه طرَحَ نفسه بين يديه، ومدَّ له عنقَه، وقال: أنا عبدك ومسكينك، وهذه ناصيتي بين يديك، ولا خلاص لي من هذا العدوّ إلّا بك، وإنّي مغلوب فانتصر. فهذا مشهد عظيم المنفعة جليل الفائدة تحته من أسرار العبودية ما لا يناله الوصف.

وفوقه مشهد أجلُّ منه وأعظم وأخصّ، تجفو عنه العبارة، وإن أشارت إليه بعضَ الإشارة. وتقريبه إلىٰ الفهم بضرب مثل يُعْبَر منه إليه، وذلك مثَلُ عبدٍ أخذه سيّده بيده، وقدّمه ليضرب عنقَه بيده، فهو قد أحكم ربطَه، وشدَّ عينيه، وقد أيقن العبد أنّه في قبضته، وأنّه هو قاتله لا غيره. وقد علم مع ذلك برَّه به ولطفَه، ورحمته ورأفته، وجوده وكرمه؛ فهو يناشده بأوصافه، ويدخل

عليه به، قد ذهب عن وهمه وشهوده كلُّ سبب، وانقطع تعلّقه بشيء سواه، فهو معرِض عن عدوه الذي كان سببَ غضب سيِّده عليه، قد محا شهودَه من قلبه، فهو مقصورُ النظر إلىٰ سيّده وكونه في قبضته، ناظرٌ إلىٰ ما يصنعه به، منتظرٌ منه ما يقتضيه عطفه وبرّه وكرمه.

ومثَلُ الأول مثلُ عبدٍ أمسكه عدوُّه وهو يخنقه للموت، وذلك العبد يشهد خنقَ عدوِّه له، ويستغيث بسيّده، وسيّدُه يغيثه ويرحمه.

ولكن ما يحصل للثاني في مشهده ذلك من الأمور العجيبة فوق ما يحصل للأول، وهو بمنزلة من قد أخذه محبوبُه، فهو يخنقه خنقةً، وهو لا يشهد إلّا خنقه له، فهو يقول: اخنُقْ خنقَك، فأنت تعلم أنَّ قلبي يحبُّك!

وفي هذا المثلِ إشارةٌ وكفاية، ومن غلُظَ حجابُه وكثفت طباعُه لا ينفعه التصريحُ، فضلًا عن ضرب الأمثالِ. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا قوَّة إلا باللهِ.

فهذه ستَّة مشاهد.

المشهد السابع: مشهد الحكمة، وهو أن يشهد حكمةَ الله في تخليته بينه وبين الذنب، وإقداره عليه، وتهيئة أسبابه له، وأنَّه لو شاءَ لعصمه وحالَ بينه وبينه، ولكنَّه خلَّىٰ بينه وبينه لحِكَم عظيمةٍ لا يعلم مجموعها إلا الله:

أحدها: أنَّه سبحانه يحب التوابين ويفرح بتوبتهم، فلمحبته للتوبة وفرحه بها قضىٰ علىٰ عبده بالذنب، ثمَّ إذا كان ممَّن سبقت له العنايةُ قضىٰ له بالتوبة.

الثاني: تعريف العبد عزَّةَ الرب تعالىٰ في قضائه، ونفوذ مشيئته، وجريان حكمه.

الثالث: تعريفه حاجتَه إلىٰ حفظه وصيانته، وأنَّه إن لم يحفظه ويَصُنْه فهو هالك ولا بد، والشياطين قد مدَّت أيديها إليه تُمزِّقه كلَّ ممزَّق.

الرابع: استجلابه من العبد استغاثته به، واستعاذته به من عدوِّه وشرِّ نفسه، ودعائه، والتضرع إليه، والابتهال بين يديه.

الخامس: إرادته من عبده تكميلَ مقام الذل والانكسار، فإنَّه متىٰ شهد صلاحه واستقامته شمَخ بأنفه وظنَّ أنَّه... وأنَّه...! فإذا ابتلاه بالذنب تصاغرت عنده نفسُه وذلَّت وتيقَّنَ أنَّه... وأنَّه...!

السادس: تعريفه بحقيقة نفسه، وأنَّها الظالمة الجاهلة، وأنَّ كلَّ ما فيها من علم أو عدلٍ أو خير فمن الله، منَّ به عليه، لا من نفسه.

السابع: تعريفه عبدَه سعةَ حلمه تعالىٰ وكرمَه في ستره عليه، فإنَّه لو شاءَ لعاجله علىٰ الذنب، ولهتكه بين عباده، فلم يصفُ له معهم عيش.

الثامن: تعريفه أنَّه لا طريق إلىٰ النجاة إلا بعفوه ومغفرته.

التاسع: تعريفه كرمَه في قبول توبته، ومغفرتَه له علىٰ ظلمه وإساءته.

العاشر: إقامة الحجة علىٰ عبده، وأنَّه له عليه الحجة البالغة، فإن عذَّبه فبعدله، وببعض حقه عليه، بل اليسير منه.

الحادي عشر: أن يعامل عباده في إساءتهم إليه وزلَّاتهم معه بما يُحبِ أن يعامله اللهُ به، فإنَّ الجزاءَ من جنس العمل، فيعتمد في ذنوب الخلق معه ما يحب أن يصنعه الله بذنوبه.

الثاني عشر: أن يقيم معاذير الخلائق، وتتسع رحمتُه لهم، مع إقامة أمر الله فيهم. فيقيم أمر فيهم رحمةً لهم، لا قسوةً وفظاظةً عليهم.

الثالث عشر: أن يخلع صولة الطاعة والإحسان من قلبه، فتتبدَّل برقَّة ورأفة ورحمة.

الرابع عشر: أن يُعَرِّيه من رداءِ العُجْب بعمله، كما قال النبي ﷺ: «**لو لَمْ تُذْنِبُوا لَخِفْتُ عليكم ما هو أشدُّ منه: العُجْبَ**»[1]، أو كما قال.

(١) أخرجه البزار كما في «كشف الأستار» (٣٦٣٣) من حديث أنس، وضعفه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٠٦).

١/ ٣٧٧

قاعدة

درجات الإنابة

كثيرًا ما يتكرَّر في القرآن ذكر الإنابة والأمرُ بها كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقوله حكايةً عن شعيب أنَّه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقوله عن نبيِّه داود: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

فالإنابةُ: الرجوع إلىٰ الله، وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه. وهي تتضمَّن المحبَّة والخشية، فإنَّ المنيب محب لمن أناب إليه، خاضع له، خاشعٌ ذليلٌ.

والناسُ في إناباتهم علىٰ درجات متفاوتة: فمنهم المنيب إلىٰ الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي. وهذه الإنابة مصدرها: مطالعة الوعيد، والحامل عليها: العلم والخشية والحذر.

ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، فهو ساعٍ فيها بجهده، وقد حُبِّبَ إليه فعلُ الطاعات وأنواع القربات. وهذه الإنابة مصدرها الرجاءُ، ومطالعةُ الوعد والثواب، ومحبَّة الكرامة من الله. وهؤلاء أبسط نفوسًا من أهل القسم الأوَّل، وأشرح صدورًا، وجانبُ الرجاءِ ومطالعةِ الرحمة والمنَّة أغلبُ عليهم؛ وإلا فكلٌّ واحدٍ من الفريقين منيبٌ بالأمرين جميعًا، ولكن خوفُ هؤلاء اندرج في رجائهم، فأنابوا بالعبادات. ورجاءُ الأوَّلين اندرجَ تحت خوفهم، فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم المنيب إلىٰ الله بالتضرع، والدعاء، والافتقار إليه، والرغبة، وسؤال الحاجات كلها منه. ومصدر هذه الإنابة: شهودُ الفضل، والمنَّة، والغنىٰ، والكرم، والقدرة؛ فأنزلوا به حوائجهم، وعلَّقوا به آمالهم. فإنابتهم إليه من هذه الجهة، مع قيامهم بالأمر والنهي، ولكنَّ إنابتهم الخاصَّة إنَّما هي من هذه الجهة. وأمَّا الأعمال فلم يُرزَقوا فيها الإنابةَ الخاصَّة.

ومنهم المنيب إليه عند الشدائد والضراء فقط إنابةَ اضطرار، لا إنابةَ اختيار، كحال الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم ملتفتةً عن الله سبحانه، معرضةً عنه إلىٰ مألوف طبيعي نفساني قد حال بينها وبين إنابتها بذاتها إلىٰ معبودها وإلهها الحق، فهي ملتفتة إلىٰ غيره. ولها إليه إنابةٌ ما بحسب إيمانها به، ومعرفتها له.

فأعلىٰ أنواع الإنابات إنابة الروح بجملتها إليه بشدة المحبة الخالصة المفنية لهم عمَّا سوىٰ محبوبهم ومعبودهم. وحين أنابت إليه أرواحهم لم يختلف منهم شيءٌ عن الإنابة، فإنَّ الأعضاء كلها رعيَّتها، وملكها تبع للروح. فلمَّا أنابت الروح بذاتها إليه إنابةَ محبٍّ صادقِ المحبة، ليس فيه عرق ولا مفصل إلا وفيه حبٌّ ساكن لمحبوبه= أنابت جميعُ القوىٰ والجوارح:

فأناب القلبُ أيضًا بالمحبة والتضرع والذل والانكسار.

وأناب العقلُ بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه، وتسليمه لها، وتحكيمه إيَّاها دون غيرها، فلم يبقَ فيه منازعةُ شبهةٍ معترضة دونها.

وأنابت النفسُ بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية والأخلاق الذميمة والإرادات الفاسدة. وانقادت للأمر خاضعةً له، راغبةً فيه، مُؤْثرِةً إيَّاه علىٰ غيره، فلم يبقَ فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر. وخرجت عن تدبيرها واختيارها تفويضًا إلىٰ مولاها الحق، ورضًىٰ بقضائه، وتسليمًا لحكمه. وقد قيل: إنَّ تدبيرَ العبد لنفسه هو آخر الصفات المذمومة في النفس.

وأنابَ الجسدُ بالأعمالِ والقيام بها فرضِها وسننها علىٰ أكمل الوجوه. وأنابت كل جارحة وعضو إنابتها الخاصَّة.

فلم يبقَ من هذا العبد المنيب عرقٌ ولا مفصلٌ إلا وله إنابة ورجوع إلىٰ الحبيب الحق الذي كلُّ محبَّةٍ سوىٰ محبته عذاب علىٰ صاحبها، وإن كانت عَذْبَةً في مبادئها، فإنَّها عذاب في عواقبها. فإنابةُ العبد -ولو ساعةً- من عمره هذه الإنابة الخالصة أنفعُ له، وأعظمُ ثمرةً من إنابة سنين كثيرة من غيره. فأين إنابة هذا من إنابةِ مَن قبله؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. بل هذا روحه منيبة أبدًا، وإن تواریٰ عنه شهودُ إنابتها باشتغالٍ، فهي كامنة فيها كُمُونَ النَّارِ في الزِّناد.

وأمَّا أصحابُ الإنابات المتقدمة، فإن أناب أحدهم ساعةً بالدعاءِ والذكر والابتهال، فلنفسه وروحه وقلبه وعقله التفاتٌ عمَّن قد أنابَ إليه. فهو ينيب ببعضه ساعةً، ثمَّ يتركُ ذلك مقبلًا علىٰ دواعي نفسه وطبعه.

والله الموفق المعين، لا ربَّ غيره، ولا إله سواه.

١/ ٣٧٧

قاعدة

في ذكر طريق قريب موصِل إلىٰ الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال

وهي شيئان:

أحدهما: حراسة الخواطر وحفظها، والحذر من إهمالها والاسترسال معها. فإنَّ أصلَ الفساد كله من قِبَلها يجيء؛ لأنَّها هي بذر الشيطان، والنفس في أرض القلب، فإذا تمكن بذرُها تعاهدها الشيطان بسقيه مرَّةً بعد أخرىٰ حتَّىٰ تصيرَ إراداتٍ، ثمَّ يسقيها حتَّىٰ تصير عزائم، ثمَّ لا يزال بها حتىٰ تثمر الأعمال.

ولا ريبَ أنَّ دفعَ الخواطر أيسرُ من دفع الإرادات والعزائم، فيجد العبدُ نفسه عاجزًا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرِّط إذ لم يدفعها وهي خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارةٍ من نار وقعت في حطَبٍ يابسٍ، فلمَّا تمكنت منه عجَز عن إطفائها.

فإن قلتَ: **فما الطريقُ إلىٰ حفظ الخواطر؟**

قلتُ: أسباب عدَّة:

أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب تعالىٰ، ونظره إلىٰ قلبك، وعلمه بتفصيل خواطرك.

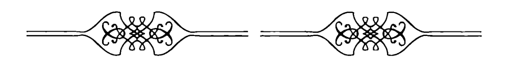
الثاني: حياؤك منه.

الثالث: إجلالك له أن يرىٰ مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلقه لمعرفته ومحبته.

الرابع: خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.

الخامس: إيثارك له أن يساكن قلبك غير محبته.

السادس: خشيتك أن تتولَّد تلك الخواطر، ويستعر شرارُها، فتأكلَ ما في القلب من الإيمان ومحبة اللهِ، وتذهب به جملةً، وأنتَ لا تشعر.



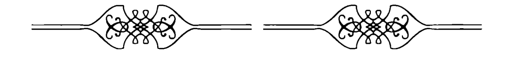
١/ ٣٨٠

فصل

الطريق الثاني الموصل إلىٰ الاستقامة

الثاني: صدق التأهب للقاءِ الله ﷻ. وهذا من أنفع ما للعبدِ وأبلغِه في حصول استقامته. فإنَّ من استعدَّ للقاءِ الله انقطعَ قلبُه عن الدنيا ومطالبها، وخمدت من نفسه نيرانُ الشهوات، وأخبتَ قلبُه إلىٰ ربِّه تعالىٰ، وعكفت همته علىٰ الله وعلىٰ محبته وإيثار مرضاته. واستحدث همَّةً أخرىٰ وعلومًا أُخَر، ووُلِد ولادةً أخرىٰ تكون نسبةُ قلبه فيها إلىٰ الدار الآخرة كنسبة جسمه إلىٰ هذه الدار بعد أن كان في بطن أمِّه، فيولد قلبُه ولادةً حقيقية، كما ولد جسمه حقيقة.

والمقصود أنَّ صدق التأهُّب للقاءِ اللهِ هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة، والأحوال الإيمانية، ومقامات السالكين إلىٰ الله ومنازل السائرين إليه، من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاءِ والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمالِ القلوب والجوارح. فمفتاحُ ذلك كلِّه صدقُ التأهب والاستعداد للقاءِ اللهِ، والمفتاح بيد الفتَّاحِ العليم، لا إلهَ غيره، ولا ربَّ سواه.



١/ ٣٨٣

قاعدة شريفة

الطريق الموصل إلىٰ الله تعالىٰ واحد

الناس قسمان: عِلْية، وسِفْلة، فالعلية من عرف الطريق إلىٰ ربِّه، وسلكها قاصدًا للوصول إليه، وهذا هو الكريم علىٰ ربِّه. والسفلة من لم يعرف الطريق إلىٰ ربِّه، ولم يتعرفها، فهذا هو اللئيم الذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿**وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ**﴾ [الحج: ١٨].

والطريق إلىٰ الله في الحقيقة واحد لا تعدُّدَ فيه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه موصلًا لمن سلكه إليه، قال الله تعالىٰ: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فوحَّدَ سبيلَه لأنَّه في نفسه واحد لا تعدُّدَ فيه، وجمع السُّبُل المخالفة لأنَّها كثيرة متعدِّدة، كما ثبت عن النبي ﷺ أنَّه خطَّ خطًّا، ثمَّ قال: «**هذا سبيل الله**». ثمَّ خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن يساره، ثمَّ قال: «**هذه سُبُل، علىٰ كلِّ سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه**»، ثمَّ قرأ: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ**﴾ [الأنعام:١٥٣] [١].

ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿**ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ**﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فوحَّد النورَ الذي هو سبيلُه، وجمع الظلمات التي هي سُبُل الشيطان.

والمقصودُ أنَّ الطريقَ إلىٰ الله واحد، فإنَّه هو الحقُّ المبين، والحق واحد، مرجعه إلىٰ واحد، وأمَّا الباطل والضلال فلا ينحصر، بل كل ما سواه باطل،

(١) أخرجه أحمد (٤١٤٢)، وصححه ابن حبان (٦، ٧)، وأصله عند البخاري (٦٠٥٤).

وكل طريق إلىٰ الباطل فهو باطل. فالباطل متعدِّد، وطرقه متعددة.

وأمَّا ما يقع في كلام بعض العلماءِ أنَّ الطرق إلىٰ اللهِ متعددة متنوعة، جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها، رحمةً منه وفضلًا، فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق.

وكشف ذلك وإيضاحُه: أنَّ الطريقَ واحدة جامعة لكلِّ ما يرضي الله. وما يرضيه سبحانه متعدِّدٌ متنوعٌ، فجميعُ ما يُرضيه طريق واحد، ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال، فكلُّها طُرُق مرضاته.

وإذا عُلِمَ هذا فمن الناس من يكون سيدُ عمله وطريقُه الذي تعبَّد بسلوكه إلىٰ الله طريق: العلم والتعليم، وقد وفَّرَ عليه زمانَه مبتغيًا به وجه الله. فلا يزال كذلك عاكفًا علىٰ طريق العلم والتعليم حتَّىٰ يصل من تلك الطريق إلىٰ اللهِ، ويفتح له فيها الفتح الخاص، أو يموت في طريق طلبه، فيرجىٰ له الوصول إلىٰ مطلبه بعد مماته. قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]. وقد حكي عن جماعة كثيرة ممَّن أدركه الأجل، وهو حريص طالب للقرآن، أنَّه رُئي بعد موته، وأخبرَ أنَّه في تكميل مطلوبه وأنَّه يتعلَّم في البرزخ؛ فإنَّ العبد يموت علىٰ ما عاش عليه.

ومن الناس من يكون سيّدُ عمله: الذكر، وقد جعله زادَه لمعاده، ورأسَ ماله لمآله، فمتىٰ فتَر عنه أو قصَّر فيه رأىٰ أنّه قد غُبِن وخَسِر.

ومن الناس من يكون سيّد عمله وطريقه: الصلاة، فمتىٰ قصَّر في وِرْده منها، أو مضىٰ عليه وقت، وهو غير مشغولٍ بها أو مستعدٍّ لها، أظلم عليه وقتُه، وضاق صدُره.

ومن الناس من يكون طريقه: الإحسانُ والنفع المتعدِّي، كقضاءِ الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وأنواع الصدقات، قد فتح له في هذا، وسلك منه طريقًا إلىٰ ربه.

ومن الناس من يكون طريقه: تلاوة القرآن، فهي الغالب علىٰ أوقاته، وهي أعظم أوراده.

ومن الناس من يكون طريقه: الصوم، فهو متىٰ أفطر تغيَّر عليه قلبُه، وساءَت حاله.

ومنهم يكون طريقه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد فُتِح له فيه، ونفذ منه إلىٰ ربّه.

ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه: الحجّ والاعتمار.

ومنهم من يكون طريقه: قطع العلائق، وتجريد الهمَّة، ودوام المراقبة، ومراعاة الخواطر، وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم الجامع الفَذّ، السالك إلىٰ الله في كلِّ واد، الواصل إليه من كلّ طريق. فهو جعل وظائفَ عبوديته قِبلةَ قلبه ونصبَ عينه، يؤمُّها أين كانت، ويسير معها حيث سارت، قد ضرب من كلّ فريق بسهم. فأين كانت العبوديةُ وجدتَه هناك: إن كان علمٌ وجدتَه مع أهله، أو جهاد وجدتَه في صفّ المجاهدين، أو صلاة وجدتَه في القانتين، أو ذكر وجدتَه في الذاكرين، أو إحسان ونفع وجدتَه في زمرة المحسنين، أو ومراقبة ومحبَّة وإنابة إلىٰ الله وجدتَه في زمرة المحبّين المنيبين. يدين بدين العبوديَّة أنَّىٰ استقلَّتْ ركائبُها، ويتوجَّه إليها حيث استقرَّت مضاربُها. لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفّذ أوامرَ ربّي حيث

كانت، وأين كانت، جالبةً ما جلبَتْ، مقتضيةً ما اقتضتْ، جمعتني أو فرَّقتني؛ ليس لي مراد إلّا تنفيذها والقيام بأدائها مراقبًا له فيها، عاكفًا عليه بالروح والقلب والبدن والسرّ. قد سلَّمتُ إليه المبيعَ منتظرًا منه تسليمَ الثمن. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فهذا هو العبد السالك إلىٰ ربّه، النافذ إليه حقيقة. ومعنىٰ النفوذ إليه أن يتَّصل به قلبه ويَعْلَق به تعلُّقَ المحبِّ التامِّ المحبَّة لمحبوبه، فيسلو به عن جميع المطالب سواه، فلا يبقىٰ في قلبه إلّا الله وأمرُه وطلبُ التقرّب إليه. فإذا سلك العبد علىٰ هذا الطريق عطف عليه ربُّه، فقرَّبه، واصطفاه، وأخذ بقلبه إليه، وتولاه في جميع أموره في معاشه ودينه، وتولّىٰ تربيته أحسن وأبلغ مما يربّي الوالدُ الشفيقُ ولدَه. فإنّه سبحانه القيُّوم المقيم لكل شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها، فكيف تكون قيوميَّتُه بمن أحبَّه وتولَّاه، وآثره علىٰ ما سواه؛ ورضي به من الناس حبيبًا وربًّا، ووكيلًا وناصرًا ومعينًا وهاديًا؟ فلو كشف الغطاءَ عن ألطافه به وبرِّه وصنعه له، من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم، لذاب قلبُه حبًّا له وشوقًا إليه، وتقطّع شكرًا له. ولكن حجب القلوبَ عن مشاهدة ذلك إخلادُها إلىٰ عالم الشهوات والتعلّق بالأسباب، فصُدَّت عن كمال نعيمها، وذلك تقدير العزيز العليم. وإلَّا فأيُّ قلبٍ يذوق حلاوةَ معرفة الله ومحبّته، ثم يركن إلىٰ غيره، ويسكن إلىٰ ما سواه؟ هذا ما لا يكون أبدًا.

ومن ذاق شيئًا من ذلك، وعرف طريقًا موصلةً إلىٰ الله، ثمَّ تركها، وأقبل علىٰ إراداته وراحاته وشهواته ولذّاته، وقع في آبار المعاطب، وأودع قلبَه سجونَ المضايق، وعُذِّب في حياته عذابًا لم يعذَّبْه أحدٌ من العالمين. فحياته عجز وغمٌّ وحزن، وموته كمد وحسرة، ومعاده أسف وندامة. قد فرط عليه أمرُه، وشُتِّت

عليه شملُه، وأحضِرتْ نفسُه الغمومَ والأحزان. فلا لذّة الجاهلين، ولا راحة العارفين. يستغيث فلا يُغاث، ويشتكي فلا يُشكَىٰ. قد ترحّلت أفراحُه وسروره مدبرةً، وأقبلت آلامُه وأحزانُه وحسراته مقبلةً، قد أبدل بأُنسه وحشةً، وبعزه ذلًّا، وبغناه فقرًا، وبجمعيته تشتّتًا.

وأبعدوه فلم يظفَرْ بقربِهِمْ وأبدلوه مكانَ الأنسِ إيحاشا[1]

ذلك بأنَّه عرف طريقه إلىٰ الله، ثمَّ تركها ناكبًا عنها مكِبًّا علىٰ وجهه، فأبصر ثمَّ عمي، وعرف ثمَّ أنكر، وأقبل ثمَّ أدبر، ودُعي فما أجاب، وفُتِح له فولّىٰ ظهرَه الباب! قد ترك طريق مولاه، وأقبل بكلّيَّته علىٰ هواه. فلو نال بعض حظوظه، وتلذّذ براحاته وشهواته، فهو مقيَّدُ القلب عن انطلاقه في فسيح التوحيد، وميادين الأُنس، ورياض المحبَّة، وموائد القرب.

قد انحطّ بسبب إعراضه عن إلهه الحقّ إلىٰ أسفل السافلين، وحصل في عداد الهالكين. فنارُ الحجاب تطّلِع كلّ وقت علىٰ فؤاده، وإعراضُ الكون عنه -إذ أعرض ربُّه- حائلٌ بينه وبين مراده. قبرٌ يمشي علىٰ وجه الأرض، فروحُه في وحشةٍ من جسمه، وقلبُه في مَلالٍ من حياته. يتمنّىٰ الموت ويشتهيه، ولو كان فيه ما فيه؛ حتّىٰ إذا جاءَه الموت علىٰ تلك الحال -والعياذ بالله- فلا تسأل عمَّا يحِلّ به من العذاب الأليم بسبب وقوع الحجاب بينه وبين مولاه الحقّ، وإحراقه بنار البعد عن قربه والإعراض عنه، وقد حيل بينه وبين سعادته وأمنيَّته.

فلو توهَّم العبدُ المسكين هذه الحالَ، وصوَّرَتْها له نفسُه، وأرته إيّاها

---

(١) من قصيدة في «ديوان الحلاج» (٥٠).

علىٰ حقيقتها، لتقطع واللهِ قلبُه، ولم يلتذَّ بطعام ولا شراب؛ ولخرج إلىٰ الصُّعُدات[(١)] يجأر إلىٰ الله، ويستغيث به، ويستعتبه في زمن الاستعتاب. هذا مع أنّه إذا آثر شهواتِه ولذّاته الفانية التي كخيال طَيف أو مُزنة صيفٍ نُغِّصت عليه لذّتُها أحوجَ ما كان إليها، وحيل بينه وبينها أقدرَ ما كان عليها!

وتلك سنّةُ الله في خلقه، كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

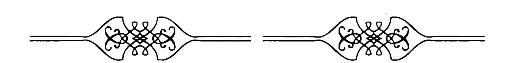
وهذا هو غِبُّ إعراضه وإيثاره شهوتَه علىٰ مرضاة ربّه، فيُعوِّق القدرُ عليه أسبابَ مراده، فيخسر الأمرين جميعًا. فيكون معذَّبًا في الدنيا بتنغيص شهواته وشدة اهتمامه بطلب ما لم يُقسَم له، وإن قُسِم له منه شيء فحَشْوُه الخوفُ والحزن والنكد والألم. فهمٌّ لا ينقطع، وحسرة لا تنقضي، وحرص لا ينفد، وذلّ لا ينتهي، وطمع لا يُقلِع!

هذا في هذه الدار، وأمّا في البرزخ فأضعاف أضعاف ذلك! قد حيل بينه وبين ما يشتهي، وفاته ما كان يتمنّاه من قُرب ربّه وكرامته ونيل ثوابه، وأحضِرَ جميعَ غمومه وأحزانه. وأمّا في دار الجزاءِ فسجنُ أمثاله من المبعودين المطرودين. فواغوثاه ثمَّ واغوثاه بغياث المستغيثين وأرحم الراحمين!

فمن أعرض عن الله بالكلّية أعرض اللهُ عنه بالكلّية. ومن أعرض الله عنه لزمه الشقاءُ والبؤس والبخس في أحواله وأعماله، وقارنه سوءُ الحال وفسادُه

(١) الصعدات: الطرق أو البراري والصحاري. يجأر إلىٰ الله: يتضرَّع إليه بالدعاء. انظر: «تحفة الأحوذي» (٦/ ٤٩٦).

في دينه ومآله. فإنّ الربَّ تعالىٰ إذا أعرض عن جهةٍ دارت بها النُّحوس[1]، وأظلمت أرجاؤها، وانكسفت أنوارُها، وظهر عليها وحشة الإعراض، وصارت مأوىٰ للشياطين، وهدفًا للشرور، ومَصَبًّا للبلاءِ.



(١) النحوس: جمع النَّحْس، وهو ضدُّ السَّعْد من النجوم وغيرها.

١/ ٣٩٧

قاعدة

السير إلىٰ الله لا يتم إلا بقوتين: علمية وعملية

السائر إلىٰ الله تعالىٰ والدار الآخرة، بل كلُّ سائرٍ إلىٰ مقصد، لا يتم سيرُه ولا يصلُ إلىٰ مقصوده إلا بقوَّتين: قوَّة علمية، وقوَّة عملية.

فبالقوَّة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك، فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنب أسبابَ الهلاك، ومواضعَ العطب، وطرقَ المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل. فقوَّتُه العلمية كنورٍ عظيم بيده، يمشي به في ليلة مظلمة شديدة الظلمة. فهو يبصرُ بذلك النورِ ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوِهاد والمَتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره. ويبصر بذلك النور أيضًا أعلامَ الطريق وأدلتها المنصوبة عليها، فلا يضل عنها. فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعاطبها.

وبالقوَّة العملية يسير حقيقةً، بل السيرُ هو حقيقة القوَّة العملية، فإنَّ السيرَ هو عمل المسافر. وكذلك السائر إلىٰ ربِّه إذا أبصرَ الطريق وأعلامَها، وأبصرَ المعاثر والوِهاد والطرق الناكبة عنها، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح. وبقيَ عليه الشطر الآخر، وهو أن يضع عصاه علىٰ عاتقه، ويشمِّر مسافرًا في الطريق، قاطعًا منازلها منزلةً بعد منزلةٍ. فكلَّما قطع مرحلةً استعدَّ لقطع الأُخرىٰ، واستشعر القربَ من المنزل، فهان عليه مشقَّةُ السفر. وكلَّما شَكَتْ نفسُه من كَلالِ السير ومواصلة الشدِّ والرحل وعَدَها قُربَ التلاقي وبردَ العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهمَّة.

١/ ٤٠٠

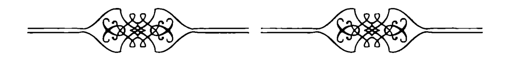
فصل

تقسيم الناس من حيث القوة العلمية والعملية

فمن النَّاسِ من تكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكون هذه القوَّة أغلبَ القوَّتين عليه، ويكون ضعيفًا في القوَّة العملية. يبصر الحقائق ولا يعمل بموجَبها، ويرىٰ المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقَّاها. فهو فقيه ما لم يحضر العمل، فإذا حضر العمل شارك الجُهَّال في التخلف، وفارقهم في العلم. وهذا هو الغالب علىٰ أكثر النفوس المشتغلة بالعلم، والمعصوم من عصمة الله، فلا قوَّة إلا بالله.

ومن النَّاسِ من تكون له القوة العملية الإراديَّة، وتكون أغلبَ القوتين عليه. وتقتضي هذه القوةُ السيرَ والسلوك، والزهدَ في الدنيا، والرغبةَ في الآخرة، والجِدَّ والتشمير في العمل. ويكون أعمىٰ البصر عند ورود الشبهات في العقائد، والانحرافات في الأعمال والأحوال والمقامات، كما كان الأوَّل ضعيفَ العقل عند ورود الشهوات. فداءُ هذا من جهله، وداءُ الأوَّل من فساد إرادته وضعف عقله.

فمن كانت له هاتان القوتان استقام له سيرُه إلىٰ الله تعالىٰ، ورجي له النفوذ، وقوي علىٰ رد القواطع والموانع بحول الله وقوَّته.



١/ ٤٠٣

﴿ قاعدة نافعة ﴾

أقسام الناس في سفرهم إلىٰ ربهم

العبدُ من حين استقرَّتْ قدمُه في هذا الدار فهو مسافر فيها إلىٰ ربِّه، ومدَّة سفره هي عمره الذي كتب له. فالعمر هو مدَّة سفر الإنسان في هذه الدار إلىٰ ربِّه تعالىٰ، ثمَّ قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره، فكلُّ يوم وليلة مرحلةٌ من المراحل، فلا يزالُ يطويها مرحلةً بعد مرحلةٍ حتَّىٰ ينتهي السفر.

فالكيِّس الفطِن هو الذي يجعل كلَّ مرحلة نُصْبَ عينيه، فيهتمُّ بقطعها سالمًا غانمًا، فإذا قطعها جعل الأخرىٰ نصب عينيه. ولا يطول عليه الأمد، فيقسو قلبه، ويمتدُّ أمله، ويحضر بالتسويفُ والوعد والتأخير والمطل؛ بل يعدّ عمرَه تلك المرحلة الواحدة، فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته. فإنَّه إذا تيقَّن قِصَرَها وسرعةَ انقضائها هان عليه العمل، وطوَّعت له نفسه الانقياد إلىٰ التزوُّد؛ فإذا استقبل المرحلة الأخرىٰ من عمره استقبلها كذلك. فلا يزالُ هذا دأبه حتَّىٰ يطوي مراحل عمره كلَّها، فيحمد سعيَه، ويبتهج بما أعدَّه ليوم فاقته وحاجته. فإذا طلع صبح الآخرة، وانقشع ظلام الدنيا، فحينئذٍ يحمد سُراه، وينجلي عنه كَراه[1]. فما أحسنَ ما يستقبل يومَه، وقد لاحَ صباحُه، واستبانَ فلاحُه!

ثمّ النَّاس في قطع هذه المراحل **قسمان:**

فقسم قطعوها مسافرين فيها إلىٰ دار الشقاءِ، فكلَّما قطعوا مرحلةً منها قَرُبوا من تلك الدَّار، وبَعُدُوا عن ربهم وعن دار كرامته. فقطعوا تلك المراحل

(١) الكَرىٰ: النعاس والنوم.

بمساخط الرب ومعاداته، ومعاداة رسله وأوليائه ودينه، والسعي في إطفاء نوره، وإبطال دعوته -دعوة الحق- وإقامة دعوة غيرها. فهؤلاءِ جُعلت أيَّامُهم مراحلَ يسافرون فيها إلىٰ الدار التي خُلِقوا لها، واستُعْمِلوا بعملها، فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكَّلةِ بهم حين يسوقونهم إلىٰ منازلهم سوقًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]، أي تزعجهم إلىٰ المعاصي والكفرِ إزعاجًا، وتسوقهم سوقًا.

القسم الثاني: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلىٰ الله وإلىٰ دار السلام. **وهم ثلاثة أقسام:** ظالمٌ لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله. وهؤلاء كلهم مستعدُّون للسير موقنون بالرُّجعىٰ إلىٰ الله، ولكن متفاوتون في التزوُّد وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفسِ السير وسرعته وبطئه.

فالظالم لنفسه مقصر في الزاد غير آخذٍ منه ما يبلِّغه المنزل، لا في قدره ولا في صفته؛ بل مفرِّط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده. ومع ذلك فهو متزوِّد ما يتأذَّىٰ به في طريقه، ويجد غِبَّ أذاه إذا وصلَ المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضارّ.

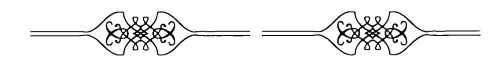
والمقتصد اقتصر من الزاد علىٰ ما يبلّغه، ولم يشدَّ مع ذلك أحمالَ التجارة الرَّابحة، ولم يتزود ما يضره. فهو سالم غانم، لكن فاتته المتاجر الرَّابحة، وأنواع المكاسب الفاخرة.

والسابق بالخيرات همُّه في تحصيل الأرباح، وشدِّ أحمال التجارات، لعلمه بمقدار الربح الحاصل. فيرىٰ خسرانًا أن يدخر شيئًا ممَّا بيده ولا يتَّجر فيه. فيجدُ ربحَه يوم يغتبط التجار بأرباح تجارتهم. فهو كرجل قد علم أنَّ

أمامه بلدةً يكسب الدرهم فيها عشرةً إلىٰ سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل، وله خبرة بطريق ذلك البلد، وخبرة بالتجارة، فهو لو أمكنه بيعُ ثيابه وكلّ ما يملك حتَّىٰ يهيئ به تجارةً إلىٰ ذلك البلد لفعل. فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن ربِّه يرىٰ خسرانًا بيِّنًا أن يمرَّ عليه وقتٌ في غير متجر.

فنذكر بعون الله وفضله **نبذةً من متاجر الأقسام الثلاثة** ليعلم العبد من أي التجار هو:

فأمَّا الظالم لنفسه فإنَّه إذا استقبل مرحلةَ يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلىٰ قلبه، فحرَّكت جوارحَه طالبةً لها ساعيةً فيها. فإذا زاحمَتْها حقوقُ ربِّه فتارةً وتارةً: فمرَّةً يأخذ بالرخصة، ومرَّةً بالعزيمة، ومرَّةً يقدم علىٰ الذنب وتركِ الحقِّ تهاونًا ووعدًا بالتوبة. فهذا حالُ الظالم لنفسه، مع حفظ التوحيد، والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والتصديق بالثواب والعقاب. فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران، وهو للأغلب منهما. فإذا وردَ القيامةَ مُيِّزَ ربحُه من خسرانه، وحُصِّل ربحُه وحده، وخسرانُه وحده، وكان الحكم للرَّاجح منهما. وحكم الله ﷻ من وراءِ ذلك، لا يَعْدَم عبادُه منه فضلَه وعدلَه.



١/ ٤٠٦

فصل

المقتصدون هم المحافظون على الفرائض

وأما المقتصدون: فأدوا وظيفةَ تلك المرحلة، ولم يزيدوا عليها، ولم ينقصوا منها. فلا حصلوا على أرباح التجار، ولا بخسوا الحقَّ الذي عليهم.

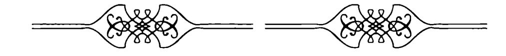
فإذا استقبلَ أحدهم مرحلةَ يومه استقبلها بالطهور التامِّ والصلاة التامَّة في وقتها، بأركانها وواجباتها وشرائطها؛ ثمَّ ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذنَ الله له فيها مشتغلًا بها، قائمًا بأعبائها، مؤديًا واجبَ الربِّ فيها، غير متفرِّغٍ لنوافل العبادات وأوراد الأذكارِ والتوجه.

فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأوَّل، فهو كذلك سائر يومه.

فإذا جاء الليل فكذلك إلى حين النوم، يأخذ مضجعه حتَّى ينشقّ الفجر، فيقوم إلى عَدَّانه[1] ووظيفته.

فإذا جاء الصوم الواجب قام بحقِّه، وكذلك الزكاة الواجبة، والحج الواجب.

وكذلك المعاملة مع الخلق، يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم، ولا يترك حقَّه لهم.



(١) أي إلى عهده.

١/ ٣٧٧

فصل

أنواع السابقين إلىٰ الخيرات

وأمَّا السابقون بالخيرات فهم نوعان: أبرار ومقرَّبون. وهؤلاءِ الأصناف الثلاثة هم أهل اليمين، وهم المقتصدون، والأبرار، والمقرَّبون. وأمَّا الظالم لنفسه فليسَ من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلىٰ أصحاب اليمين، كما أنَّه لا يسمَّىٰ مؤمنًا عند الإطلاق وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه.

وقد اختُلِف في قوله تعالىٰ: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [فاطر: ٣٣] الآية، هل ذلك راجعٌ إلىٰ الأصناف الثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات؛ أو يختص بالقسمَين الأخيرين، وهما: المقتصد، والسابق دون الظالم= علىٰ قولين:

فذهبت طائفة إلىٰ أنَّ الأصناف الثلاثة كلَّهم في الجنَّة، وهذا يروىٰ عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وعائشة أم المؤمنين ﵃.

واحتجت هذه الفرقة بأنَّه سبحانه سمَّىٰ الكلَّ «مصطفين»، وأخبر أنَّه اصطفاهم من جملة العباد. ومحال أن يكون الكافر والمشرك من المصطفَين، لأنَّ الاصطفاء هو الاختيار، وهو الافتعال من صفوة الشيء، وهو خِياره. فعُلِمَ أنَّ هؤلاء الأصناف الثلاثة صفوة الخلق، وبعضُهم خيرٌ من بعض: فسابقُهم مصطفىٰ عليهم، ثمَّ مقتصدهم مصطفىٰ علىٰ ظالمهم، ثمَّ ظالمهم مصطفىٰ علىٰ الكافر والمشرك.

واحتجت أيضًا بآثار روتها تؤيد ما ذهبت إليه.

وقالت طائفة: بل الوعد بالجنَّات إنَّما هو للمقتصد والسابق، دون الظالم لنفسه. فإنَّ الظالم لنفسه لا يدخل تحت الوعد المطلق، والظالم لنفسه هنا هو: الكافر، والمقتصد: المؤمن العاصي، والسابق: المؤمن التقي.

وهذا يروىٰ عن عكرمة، والحسن، وقتادة. وهو اختيار جماعة من المفسرين منهم صاحب «الكشَّاف»، ومنذر بن سعيد في «تفسيره»، والرماني، وغيرهم.

قالوا: وهذه الآية متناولة لجميع أقسام الخلق شقيهم وسعيدهم. وهي نظير آية: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ [الواقعة: ٧- ١٠]. قالوا: فأصحاب الميمنة هم المقتصدون، وأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم، والسابقون هم السابقون بالخيرات.

قالوا: ولم يصطفِ الله من خلقه ظالمًا لنفسه، بل المصطفَون من عباده هم صفوته وخيارهم، والظالمون لأنفسهم ليسوا خيار العباد بل شرارهم، فكيف يوقع عليهم اسم المصطفين ويتناولهم فعل الاصطفاء؟

قالوا: وأيضًا فهذه طريقة القرآن في ذكر أصناف الخلق الثلاثة، كما ذكرهم تعالىٰ في سورة الواقعة والمطففين وسورة الإنسان.

وقالوا: وأمَّا قولكم: إنَّ الاصطفاء افتعال من الصفوة، وهي الخيار، وهي إنَّما تكون في السعداء، فهذا بعينه حجة لنا في أنَّ الظالم لنفسه ليس ممن اصطفاه الله من عباده، وقد تقدم تقريره.

قالوا: وأمَّا الآثارُ التي رويتموها عن النبيّ ﷺ في ذلك فكلها ضعيفة

الأسانيد أو منقطعة لا تثبت، كيف وهي معارَضةٌ بآثار مثلها أو أقوىٰ منها.

قالت الطائفة الأولىٰ: لو تدبرتم القرآن حقَّ تدبره، وأعطيتم الآيات حقَّها من الفهم، وراعيتم وجوهَ الدلالة وسياق الكلام، لعلمتم أنَّ الصوابَ معنا، وأنَّ هذه الأقسام الثلاثة من الأقسام التي خلقت للجنَّة، وهم درجات عند الله؛ وأنّ هذا التقسيم الذي دلّت عليه أخصُّ من التقسيم المذكور في سورة الواقعة والإنسان والمطفّفين. فإنّ ذلك تقسيمٌ للناس إلىٰ شقيّ وسعيد، وتقسيمٌ للسعداء إلىٰ أبرار ومقرّبين، وتلك القسمة خالية عن ذكر العاصي الظالم لنفسه. وأما هذه الآيات ففيها تقسيم الأُمَّة إلىٰ محسن ومسيء، فالمسيء هو الظالم لنفسه، والمحسن نوعان: مقتصد، وسابق بالخيرات. فإنَّ الوجود شامل لهذا القسم، بل هو أغلب أقسام الأمة، فكيف يخلو القرآن عن ذكره وبيان حكمه؟ ثمَّ لمَّا استوفىٰ أقسام الأُمة ذكر الخارجين عنهم، وهم الذين كفروا، فعمَّت الآية أقسامَ الخلق كلِّهم. وعلىٰ ما ذهبتم إليه تكون الآية قد أهملَتْ ذِكرَ القسمِ الأغلب الأكثر، وكرَّرت ذكر حكم الكافر أوَّلًا وآخرًا. ولا ريبَ أنَّ ما ذكرناه أولىٰ لبيان حكم هذا القسم، وعموم الفائدة.

قالوا: وأمَّا قولكم إنَّ الله لا يصطفي من عباده ظالمًا لنفسه، لأنَّ الاصطفاءَ هو الاختيار من الشيء صفوتَه وخيارَه إلىٰ آخر ما ذكرتم، فجوابُه أنّ كون العبد مصطفًىٰ لله وليًّا له محبوبًا له ونحو ذلك من الأسماء الدالّة علىٰ شرف منزلة العبد وتقريب الله له لا ينافي ظلمَ العبدِ نفسَه أحيانًا بالذنوب والمعاصي. بل أبلغُ من ذلك أن صديقيَّته لا تُنافي ظلمه لنفسه. ولهذا قال صدِّيقُ الأمة وخيارُها للنبي ﷺ: علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي، فقال: «**قل: اللهم إني**

ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[(١)].

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٥]، فأخبر سبحانه عن صفات المتقين وأنَّهم يقع منه ظلمُ النفس والفاحشة، لكن لا يصرُّون علىٰ ذلك.

وإذا كان ظلم النفس لا ينافي الصدِّيقيَّة والولاية، ولا يُخرِج العبد عن كونه من المتّقين، بل يجتمع فيه الأمران: يكون وليًّا لله صدِّيقًا متّقيًا، وهو مسيئ ظالمٌ لنفسه= عُلِمَ أنَّ ظلمَه لنفسه لا يُخرجه عن كونه من الذين اصطفاهم الله من عباده وأورثَهم كتابَه، إذ هو مصطفًىٰ من جهة كونه من ورثة الكتاب علمًا وعملًا، ظالمٌ لنفسه من جهة تفريطه في بعض ما أُمر به وتعدِّيه بعضَ ما نهي عنه. كما يكون الرجل وليًّا لله محبوبًا له من جهة، ومبغوضًا له من جهة أخرىٰ.

ونكتةُ المسألة أنَّ الاصطفاء والولاية والصديقيَّة وكون الرجل من الأبرار والمتّقين ونحو ذلك كلها مراتب تقبل التَجَزِّي والانقسام والكمال والنقصان، كما هو ثابتٌ باتفاق السلف في أصل الإيمان، وعلىٰ هذا فيكون هذا القسم مصطفًىٰ من وجه، ظالمًا لنفسه من وجه آخر.

وظلم النفس نوعان: نوعٌ لا يبقىٰ معه شيء من الإيمان والولاية

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥)

والصديقية والاصطفاء، وهو ظلمها بالشرك والكفرِ. ونوع يبقىٰ معه حصَّةٌ من الإيمان والاصطفاء والولاية، وهو ظلمها بالمعاصي، وهو درجات متفاوتة في القدرِ والوصف.

فهذا التفصيل يكشف قناع المسألة ويزيل إشكالها بحمد الله.

قالوا: وأمَّا قولكم: إنَّ هذا الآيات نظير آيات الواقعة وسورة الإنسان وسورة المطفّفين في تقسيم الناس إلىٰ ثلاثة أقسام: أصحابُ الشمال، وأصحابُ اليمين، والمقرَّبون؛ فلا ريب أنَّ هذه الآية وافية بالأقسام الثلاثة مع مزيد تقسيم آخر، وهو تقسيم أصحاب اليمين إلىٰ ظالم لنفسه ومقتصد، فهي مشتملة علىٰ تلك الأقسام وزيادة.

قالوا: وأمَّا قولكم: إنَّ الآثار الدالَّة علىٰ أنَّ الأصناف الثلاثة هم السعداءُ أهل الجنَّة ضعيفة لا تقوم بها حجَّة، فجوابه أنَّها قد بلغت في الكثرة إلىٰ حدٍّ يشدُّ بعضُها بعضًا ويشهد بعضها لبعض.

والمقصود الكلام علىٰ مراحل العالمين وكيفية قطْعِهم إيَّاها، فلنرجع إليه فنقول:

أمَّا الأشقياء فقطعوا تلك المراحل سائرين إلىٰ دار الشقاء متزوِّدين غضبَ الربِّ سبحانه، ومعاداةَ كتبه ورسله وما بُعثِوا به، ومعاداةَ أوليائه، والصدَّ عن سبيله، ومحاربةَ من يدعو إلىٰ دينه، ومقاتلةَ الذين يأمرون بالقسط من النَّاسِ، وإقامةَ دعوةٍ غير دعوة الله سبحانه التي بَعث بها رسلَه لتكون الدعوة له وحده؛ فقطع هؤلاء الأشقياءُ مراحل أعمارهم في ضدّ ما يحبّه ويرضاه.

وأمَّا السائرون إليه، فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته وإيثار شهواته

ولذَّاته علىٰ مراضي الربّ وأوامره، مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه، مأسور مع حظِّه وهواه، يعلم سوءَ حالهٰ، ويعترف بتفريطه، ويعزم علىٰ الرجوع إلىٰ الله. فهذا حال المسلم.

وأمَّا من زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسنًا، وهو غير معترفٍ ولا مقرٍّ ولا عازم علىٰ الرجوع إلىٰ الله الإنابة إليه أصلًا، فهذا لا يكاد إسلامُه أن يكون صحيحًا أبدًا، ولا يكون هذا إلا منسلخ القلب من الإيمان، ونعوذ بالله من الخذلان.

وأمَّا الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله، وعقد القلبِ علىٰ ترك مخالفته ومعاصيه، فهممُهم مصروفة إلىٰ القيام بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة.

فأوَّل ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلىٰ قلبه القيامُ إلىٰ الوضوءِ والصلاة كما أمر الله.

فإذا حضر فرضُ الظهر بادر إلىٰ التطهُّر والسعي إلىٰ الصفِّ الأوَّل من المسجد، فأدَّىٰ فريضته كما أُمِر مكمِّلًا لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدي الرَّبّ.

فينصرف من الصلاة وقد أثَّرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثارًا تبدو علىٰ صفحاته ولسانه وجوارحه. قد نَهَتْه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر، وحبَّبتْ إليه لقاءَ الله ونفَّرتْه من كل قاطع يقطعه عن الله، فهو مغموم مهموم كأنَّه في سجنٍ حتىٰ تحضر الصلاة، فإذا حضرت قام إلىٰ نعيمه وسروره وقرَّة عينه وحياة قلبه، فهو لا تطيب له الحياة إلا بالصلاة.

هذا، وهم في ذلك كلّه مراعون لحفظ السنن لا يُخِلّون منها بشيء ما

أمكنهم. فيقصدون من الوضوءِ أكملَه، ومن الوقت أوَّله، ومن الصفوف أوَّلها عن يمين الإمام أو خلف ظهره.

ويأتون بعد الفريضة بالأذكار المشروعة.

هذا دأبهم في كلِّ فريضة.

فإذا كان قبل غروب الشمس توفَّرُوا علىٰ أذكار المساء الواردة في السنة نظيرَ أذكار الصباح الواردة في أول النهار، لا يُخِلُّون بها أبدًا.

فإذا أخذوا مضاجعهم أتوا بأذكار النوم الواردة في السنّة.

فإذا استيقظ عاد إلىٰ عَدَّانه الأوَّل[1]. ومع هذا فهو قائمٌ بحقوق العباد من عيادة المرضىٰ، وتشييع الجنائز، وإجابة الدعوة، والمعاونة لهم بالجاه والبدن والنفس والمال، وزيارتهم، وتفقُّدهم؛ وقائمٌ بحقوق أهله وعياله. فهو متنقّلٌ في منازل العبوديَّة كيف نقله فيها الأمرُ. فإذا وقع منه تفريط في حقٍّ من حقوق الله بادر إلىٰ الاعتذارِ والتوبة والاستغفار، ومحوه ومداواته بعملٍ صالح يُزيل أثرَه. فهذا وظيفته دائمًا.

وأمَّا السابقون المقرَّبون، فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أوَّلًا مِن وصف حالهم وعدم الاتّصاف به، بل ما شمِمنا له رائحةً، ولكن محبَّة القوم تحمل علىٰ تعرُّف منزلتهم والعلم بها. وإن كانت النفوس متخلفةً منقطعةً عن اللحاق بهم.

فاسمع الآن وصفَ القومِ، وأحضِرْ ذهنك لشأنهم العجيب وخطرهم الجليل. فإن وجدتَ من نفسك حركةً وهمَّةً إلىٰ التشبّه بهم فاحمد الله، وادخل، فالطريق واضح، والباب مفتوح.

(١) أي: إلىٰ عهده الأول.

إذا أعجبتْك خصالُ امرئٍ فكُنْه يكنْ منك ما يُعجِبُك
فليسَ علىٰ الجودِ والمكرماتِ إذا جئتَها حاجبٌ يحجُبُك[١]

فنبأ القومِ عجيب، وحالُهم أعجَب، وأمرُهم أخفىٰ إلا علىٰ من له مشاركة مع القوم، فإنَّه يطّلع من حالهم علىٰ ما يريه إيَّاه القدرُ المشترك.

وجلمة أمرهم: أنَّهم قوم قد امتلأت قلوبُهم من معرفة الله، وعُمِرتْ بمحبَّته وخشيته وإجلاله ومراقبته، فسَرَت المحبَّةُ في أجزائهم فلم يبق فيها عرق ولا مَفْصِل إلا وقد دخله الحبُّ. قد أنساهم حبُّه ذكرَ غيره، وأوحشهم أنسُهم به ممن سواه. قد فنوا بحبه عن حب من سواه، وبذكره عن ذكر من سواه، وبخوفه، ورجائه، والرغبة إليه، والرهبة منه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والسكون إليه، والتذلّل والانكسار بين يديه؛ عن تعلُّق ذلك منهم بغيره.

فإذا وضع أحدُهم جنبَه علىٰ مضجعه صعدت أنفاسُه إلىٰ إلهه ومولاه، واجتمع همُّه عليه، متذكِّرًا صفاتِه العلىٰ وأسماءَه الحسنىٰ، مشاهدًا له في أسمائه وصفاته، قد تجلَّت علىٰ قلبه أنوارُها، فانصبغ قلبُه بمعرفته ومحبَّته، فبات جسمُه في فراشه يتجافىٰ عن مضجعه، وقلبُه قد أوىٰ إلىٰ مولاه وحبيبه، فآواه إليه، وأسجدَه بين يديه خاضعًا خاشعًا ذليلًا منكسرًا من كلِّ جهة من جهاته. فيا لها سجدةً ما أشرَفَها من سجدة، لا يرفع رأسه منها إلىٰ يوم اللقاءِ!

وقيل لبعض العارفين: أيسجد القلبُ بين يدي ربِّه؟ قال: «إي والله، سجدةً لا يرفع رأسه منها إلىٰ يوم القيامة!»[٢].

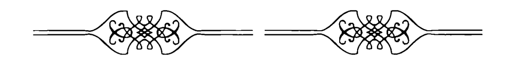
---

(١) من إنشاد أبي العيناء كما في «المحاضرات» للراغب (١/ ٣١٠).
(٢)من كلام سهل بن عبد الله التستري كما في «مجموع الفتاوىٰ» (٢١/ ٢٨٧).

فشتَّان بين قلبٍ يبيت عنه ربِّه، قد قطع في سفره إليه بَيداءَ الأكوان وخرق حُجُبَ الطبيعة، ولم يقف عند رسم، ولا سكن إلىٰ علَم، حتَّىٰ دخلَ علىٰ ربِّه في داره، فشاهد عزَّ سلطانه، وعظمة جلاله، وعلوَّ شأنه، وبهاءَ كماله، وهو مستوٍ علىٰ عرشه يدبِّر أمر عباده، وتصعد إليه شؤونُ العباد، وتُعْرَض عليه حوائجُهم وأعمالُهم، فيأمر فيها بما يشاءُ، فينزل الأمرُ من عنده نافذًا كما أمر، فيشاهد الملِكَ الحقَّ قيَّومًا بنفسه، مقيمًا لكلِّ ما سواهِ، غنيًّا عن كلِّ من سواه، وكلُّ من سواه فقيرٌ إليه. ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]: يغفر ذنبًا، ويفرِّج كربًا، ويفكُّ عانيًا، وينصر ضعيفًا، ويجبُر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويميت ويحيي، ويُسعد ويشقي، ويُضِلّ ويهدي، ويُنعم علىٰ قوم، ويسلب نعمته عن آخرين، ويُعزُّ أقوامًا ويذلُّ آخرين، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين.

فإذا صارت صفاتُ ربِّه وأسماؤه مشهدًا لقلبه أنْسَتْه ذكرَ غيره، وشغلته عن حبِّ من سواه، وجذبت دواعي قلبِه إلىٰ حبِّه تعالىٰ بكلِّ جزءٍ من أجزاءِ قلبه وروحه وجسمه. فحينئذٍ يكون الربُّ تعالىٰ سَمْعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها؛ فبه يسمع. وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي. كما أخبر عن نفسه علىٰ لسان رسوله ﷺ[(١)].

فإذا استيقظ هذا القلب من منامه صعد إلىٰ الله بهمِّه وحبِّه وأشواقه مشتاقًا إليه، طالبًا له، محبًّا له، عاكفًا عليه.



(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، ولكن فيه: «فبي يسمع...» إلخ.

١/ ٤٥٦

فصل

ذكر الله تعالىٰ عند الاستيقاظ

فإذا استيقظ أحدهم، وقد بدر إلىٰ قلبه هذا الشأن، فأوَّلُ ما يجري علىٰ لسانه ذكرُ محبوبه، والتوجُّه إليه، واستعطافُه، والتملُّقُ بين يديه، والاستعانةُ به أن لا يخلّي بينه وبين نفسه، وأن لا يكِلَه إليها، فيكلَه إلىٰ ضَيْعةٍ وعجز وذنب وخطيئة، بل يكلأه كلاءَة الوليد الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

ثمَّ يقوم إلىٰ الوضوء بقلب حاضر مستصحِب لما فيه.

ثمَّ يصلّي ما كتب الله له صلاةَ محبٍّ ناصحٍ لمحبوبه متذلل منكسرٍ بين يديه، لا صلاةَ مُدِلٍّ بها عليه، يرىٰ من أعظم نعم محبوبه عليه أن أقامه وأنام غيرَه، واستزاره وطرد غيرَه، وأهَّله وحرَم غيره، فهو يزداد بذلك محبَّةً إلىٰ محبته. يرىٰ أنَّ قرَّة عينه وحياةَ قلبه وجنَّة روحه ونعيمَه ولذَّته وسرورَه في تلك الصلاة، فهو يتمنَّىٰ طولَ ليله، ويهتمُّ بطلوع الفجر، كما يتمنىٰ المحب الفائز بوصول محبوبه ذلك. فهو كما قيل:

يـودُّ أنَّ ظـلامَ اللّيـل دامَ لـه ... وزِيدَ فيه سوادُ القلبِ والبصَرِ[١]

فهو يتملَّق فيها مولاه تملَّقَ المحب لمحبوبه، العزيز الرحيم، ويناجيه بكلامه معطيًا لكلِّ آية حظّها من العبوديَّة. فتجذب قلبَه وروحَه إليه آياتُ المحبَّة والوداد، والآياتُ التي فيها الأسماءُ والصفات، والآياتُ التي تعرَّفَ بها إلىٰ عباده بآلائه وإنعامه عليهم وإحسانه إليهم. وتطيِّبُ له السيرَ آياتُ

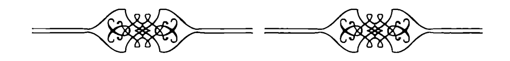
(١) لأبي العلاء في «سقط الزند» (٥٦).

الرجاء والرحمة وسعة البرّ والمغفرة، فتكون له بمنزلة الحادي الذي يطيّب له السيرَ ويهوِّنه عليه. وتُقْلِقُه آياتُ الخوف والعدل والانتقام وإحلال غضبه بالمعرضين عنه، العادلين به غيرَه، المائلين إلىٰ سواه؛ فتجمعه عليه وتمنعه أن يشرد قلبه عنه. فتأمَّلْ هذه النكتةَ، وتفقَّهْ فيها، والله المستعان، ولا حول ولا قوَّة إلا به.

بل ثَمَّ شأن آخر لو فطن له العبد لعلِمَ أنَّه كان قبلُ يلعب.

فوا أسفاه! وواحسرتاه! كيف ينقضي الزمان، وينفد العمر، والقلب محجوب ما شمَّ لهذا رائحة! وخرج من الدنيا كما دخل إليها، وما ذاق أطيبَ ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم، وانتقل منها انتقالَ المفاليس، فكانت حياتُه عجزًا، وموتُه كمدًا، ومعاده حسرةً وأسفًا!

اللهم فلك الحمد، وإليك المشتكىٰ، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بك.



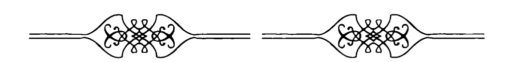
١/ ٤٦٠

فصل

ذكر الله تعالىٰ قبل النوم وبعده

فإذا صلَّىٰ ما كتب الله جلس مُطرقًا بين يدي ربِّه تعالىٰ هيبةً له وإجلالًا، واستغفره استغفارَ من قد تيقَّن أنَّه هالك إن لم يغفر له ويرحمه. فإذا قضىٰ من الاستغفار وطرًا، وكان عليه بعدُ ليلٌ اضطجع علىٰ شقِّه الأيمن مُجِمًّا نفسَه، مريحًا لها، مقوِّيًا علىٰ أداء وظيفة الفرض، فيستقبله نشيطًا بجده وهمته كأنَّه لم يزل نائمًا طول ليلته لم يعمل شيئًا. فهو يريد أن يستدرك ما فاته في صلاة الفجر، فيصلِّي السنة ويبتهل بينها وبين الفريضة، فإنَّ لذلك الوقت شأنًا يعرفه من عرفه. ويكثر فيه من قول «يا حيُّ يا قيوم لا إله إلا أنت»، فلهذا الذكر في هذا الموطن تأثيرٌ عجيب.

ثمَّ ينهض إلىٰ صلاة الصبح قاصدًا الصفَّ الأوَّل عن يمين الإمام أو خلف قفاه. فإن فاته ذلك قصدَ القربَ منه مهما أمكن، فإنَّ للقربِ من الإمام تأثيرًا في سرِّ الصلاة. ولهذا القربِ تأثيرٌ في صلاة الفجر خاصَّةً يعرفه من عرف قوله تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].



١/ ٤٦٦

فصل

ذكر الله تعالىٰ بعد صلاة الصبح

فإذا فرغَ من صلاة الصبح أقبل بكلّيّته علىٰ ذكر الله والتوجّه إليه بالأذكار التي شُرِعَت أوَّل النَّهارِ، فيجعلها وِردًا له لا يُخِلُّ به أبدًا، ثمَّ يزيد عليها ما شاءَ من الأذكار الفاضلة أو قراءة القرآن حتىٰ تطلع الشمس حسنًا. فإذا طلعت فإن شاء ركع ركعتي الضّحىٰ وزاد ما شاء، وإن شاء قام من غير ركوع.

ثمَّ يذهب متضرِّعًا إلىٰ ربِّه، سائلًا له أن يكون ضامنًا عليه، متصرِّفًا في مرضاته بقيّة يومه. فلا ينقلب إلا في شيء يظهر له فيه مرضاةُ ربه، وإن كان من الأفعال العاديّة الطبيعيّة قَلَبه عبادةً بالنية، وقصَدَ الاستعانة به علىٰ مرضاة الربّ. وبالجملة فيقف عند أوَّل الداعي إلىٰ فعله، فيفتّش ويستخرج منه منفذًا ومسلكًا يسلك به إلىٰ ربِّه. فينقلب في حقّه عبادة وقربة. وشتَّان كم بين هذا وبين من إذا عرض له أمر من أوامر الربّ لا بدّ له من فعلِه، وفتَّش فيه علىٰ مرادٍ لنفسه وغرضٍ لطبعه، ففعله لأجل ذلك، وجعل الأمر طريقًا له ومنفذًا لمقصده. فسبحان من فاوت بين النفوس إلىٰ هذا الحد والغاية! فهذا عباداته عادات، والأوَّل عاداته عبادات!

فإذا جاءَ فرضُ الظهر بادرَ إليه كذلك مكمِّلًا له، ناصحًا فيه لمعبوده كنصح المحبّ الصادق المحبّة لمحبوبه الذي قد طلب منه أن يعمل له شيئًا ما، فهو لا يُبقي مجهودًا، بل يبذل مقدوره كلَّه في تحسينه وتزيينه وإصلاحه وإكماله، ليقع موقعًا من محبوبه، فينال به رضاه عنه وقربه منه. أفلا يستحيي العبدُ من ربِّه ومولاه ومعبوده أن لا يكون في عمله هكذا، وهو يرىٰ المحبّين

في أشغال محبوبيهم من الخلقِ كيف يجتهدون في إيقاعها علىٰ أحسن وجه وأكمله، بل هو يجد من نفسه ذلك مع من يحبّه من الخلق، فلا أقلَّ من أن يكون مع ربِّه بهذه المنزلة. ومَن أنصف نفسه وعرف أعمالَه استحيا من الله أن يواجهه بعمله أو يرضاه لربه، وهو يعلم من نفسه أنَّه لو عملِ لمحبوبٍ له من النَّاس لبذل فيه نُصْحَه، ولم يَدَعْ من حسنه شيئًا إلا فعَلَه.

وبالجملةِ، فهذا حال هذا العبد مع ربِّه في جميع أعماله، فهو يعلم أنَّه لا يوفي هذا المقام حقَّه، فهو أبدًا يستغفر الله عقيب كلّ عمل. وكان النبيُّ ﷺ إذا سلَّم من الصلاة استغفر الله ثلاثًا. وقال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، قال الحسن: مدُّوا الصلاة إلىٰ السحر، ثمَّ جلسوا يستغفرون ربَّهم. وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٩٩]، فأمر سبحانه بالاستغفار بعد الوقوف بعرفة والمزدلفة. وشُرع للمتوضئ أن يقول بعد وضوئه: «**اللهُمَّ اجْعَلْنِي من التَّوّابِينَ واجْعَلْنِي من المتطهرين**». فهذه توبة بعد الوضوء، وتوبة بعد الحجِّ، وتوبة بعد الصلاة، وتوبة بعد قيام الليل. فصاحب هذا المقام مضطرٌّ إلىٰ التوبة والاستغفار كما تبيَّن، فهو لا يزال مستغفرًا تائبًا، وكلَّما كثرت طاعاتُه كثرت توبتُه واستغفارُه.

١/ ٤٦٨

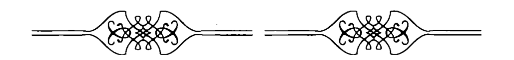
فصل

تكميل العبودية لله ﷻ في الظاهر والباطن

وجماع الأمر في ذلك إنَّما هو بتكميل عبوديَّة الله ﷻ في الظاهر والباطن، فتكون حركات نفسه وجسمه كلُّها في محبوبات الله، فكمالُ عبوديّة العبد موافقتُه لربِّه في محبَّة ما أحبَّه، وبذلُ الجهدِ في فعله؛ وموافقتُه في كراهة ما كرهه، وبذلُ الجهد في تركه. وهذا إنَّما يكون للنفس المطمئنَّة، لا للأمَّارة ولا للّوَّامة. فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل.

وأمَّا من جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرتُه منفتحةً في معرفة الأسماء والصفات والأفعال، له شهود خاصّ فيها مطابقٌ لما جاء به الرسول ﷺ لا مخالفٌ له، فإنَّ بحسب مخالفته له في ذلك يقع الانحراف. ويكون مع ذلك قائمًا بأحكام العبوديّة الخاصَّة التي تقتضيها كلُّ صفة بخصوصها.

فالسيرُ إلىٰ الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجب، وفتحُه عجب. صاحبه قد سبق السُّعاة، وهو مستلقٍ علىٰ فراشه، غيرُ تعب ولا مكدود، ولا مشتَّتٍ عن وطنه، ولا مشرَّدٍ عن سكنه. ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].



١/ ٤٧١

فصل

من كمال العبودية تسليم التدبير لله تعالىٰ

ومن شأن القوم أن تنسلخ نفوسهم من التدبير والاختيار الذي يخالف تدبير ربِّهم تعالىٰ واختياره، بل قد سلَّموا إليه سبحانه التدبير كلَّه، فلا يزاحم تدبيرُهم تدبيرَه ولا اختيارُهم اختيارَه، لتيقُّنِهم أنَّه الملك القاهر القابض علىٰ نواصي الخلق، المتولِّي لتدبير أمر العالم كلَّه، وتيقُّنهم مع ذلك أنَّه الحكيم في أفعاله الذي لا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والرحمة. فلم يُدخلوا أنفسهم معه في تدبيره لملكه وتصريفِه أمورَ عباده بـ«لو كان كذا وكذا»، ولا بـ«عسىٰ ولعلَّ»، ولا بـ«ليتَ»، بل ربُّهم تعالىٰ أجل وأعظم في قلوبهم من أن يعترضوا عليه، أو يسخطوا تدبيرَه.

وبعض العارفين يجعل عيب المخلوقات وتنقيصها بمنزلة العيب لصانعها وخالقها؛ لأنَّها صُنْعُه وأثرُ حكمته. وهو سبحانه أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقه، وأتقن كلَّ شيءٍ، فهو أحكمُ الحاكمين وأحسن الخالقين، له في كلِّ شيءٍ حكمةٌ بالغة، وفي كلِّ مصنوعٍ صُنْعٌ متقَن. والرجلُ إذا عابَ صنعةَ رجلٍ آخر وذمَّها سرىٰ ذاك إلىٰ الصانع، لأنَّه كذلك صنعَها، وعن حكمته أظهرَها، إذ كانت الصنعة مجبولةً لم تصنع نفسها، ولا صُنْعَ لها في خلقها. فالعارفُ لا يعيب إلا ما عابه الله، ولا يذمُّ إلا ما ذمَّه.

وإذا سبقَ إلىٰ قلبه ولسانه عيبُ ما لم يعِبْه الله وذمُّ ما لم يذمَّه، تاب إلىٰ الله منه كما يتوب صاحبُ الذنبِ من ذنبه، فإنَّه يستحيي من الله أن يكون في داره وهو يعيب آلات تلك الدار وما فيها. فهو يرىٰ نفسه بمنزلة رجلٍ دخل إلىٰ دار

ملِك من الملوك، ورأىٰ ما فيها من الآلات والبناءِ والترتيب، فأقبل يعيب منها بعضَها ويذمُّه ويقول: لو كان كذا بدل كذا لكان خيرًا، ولو كان هذا في مكان هذا لكان أولىٰ.

والمقصود أنَّ مِن شأن القوم تركَ الاهتمام بالتدبير والاختيار، بل همُّهم كلّه في إقامة حقّه عليهم. وأمَّا التدبير العام والخاصّ فقد سلَّموه لوليّ الأمر كله ومالكه الفعَّال لما يريد.

هذا فيما يجري علىٰ أحدهم من فعل الله وحكمه وقضائه الكوني. فإذا جاءَ الأمرُ جاءت الإرادة والاختيار، والسعي والجِدّ واستفراغ الفكر وبذل الجهدِ. فهو قويٌّ حيٌّ فعَّال، يشاهد عبودية مولاه في أمره، فهو متحرك فيها بظاهره وباطنه، قد أخرج مقدوره من القوَّة إلىٰ الفعل. وهو مع ذلك مستعين بربِّه، قائمٌ بحوله وقوته، ملاحِظ لضعفه وعجزه، قد تحقَّق بمعنىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فهو ناظرٌ بقلبه إلىٰ مولاه الذي حرَّكه، مستعين به في أن يوفّقه لما يحبُّه ويرضاه، عينُه في كلِّ لحظةٍ شاخصةٌ إلىٰ حقّه المتوجِّه عليه لربِّه، ليؤديه في وقته علىٰ أكمل أحواله.

فإذا وردت عليهم أقدارُه التي تصيبهم بغير اختيارهم قابلوها بمقتضاها من العبودية، وهم فيها علىٰ مراتب ثلاثة:

أحدها: الرضا عنه فيها والمزيد من حبه والشوق إليه. وهذا نشأ من مشاهدتهم لِلُطْفه فيها وبرّه وإحسانه العاجل والآجل، ومن مشاهدتهم حكمتَه فيها ونصبَها سببًا لمصالحهم، وسَوقهم بها إلىٰ حبّه ورضوانه. ولهم في ذلك مشاهد أُخَر لا تسعها العبارة، وهي فتح من الله علىٰ العبد لا يبلغه علمه ولا عمله.

المرتبة الثانية: شكره عليها كشكره علىٰ النعم. وهذا فوق الرضا عنه بها. ومنه ينتقل إلىٰ هذه المرتبة، فهذه مرتبتان لأهل هذا الشأن.

والثالثة: للمقتصدين وهي مرتبة الصبر التي إذا نزل منها نزل إلىٰ نقصان الإيمان وفواته، من التسخُّط والتشكّي، واستبطاء الفرج، واليأس من الرَّوح، والجزَع الذي لا يفيد إلا فواتَ الأجر وتضاعُف المصيبة. فالصبر أوَّل منازل الإيمان ودرجاته، وأوسطها، وآخرها؛ فإنَّ صاحب الرضا والشكر لا يعدم الصبرَ في مرتبته، بل الصبر معه، وبه يتحقّق الرضا والشكر، لا تصوُّرَ ولا تحقّقَ لهما دونه.

وهكذا كلُّ مقامٍ مع الذي فوقه، كالتوكّل مع الرضا، وكالخوف والرجاء مع الحبِّ، فإنَّ المقام الأوَّل لا ينعدم بالترقّي إلىٰ الآخر -ولو عُدِم لخلفه ضدُّه، وذلك رجوع إلىٰ نقص الطبيعة وصفات النفس المذمومة- وإنَّما يندرج حكمُه في المقامِ الذي هو أعلىٰ منه، فيصير الحكم له، كما يندرج مقام التوكّل في مقام المحبَّة والرضا. وليس هذا كمنازل سير الأبدان الذي إذا قطع منها منزلًا خلَّفه وراءَ ظهره، واستقبل المنزل الآخر معرضًا عن الأوَّل تاركًا له. بل هذا كمنزلة التَّاجر الذي كلَّما باع شيئًا من ماله وربح فيه، ثمَّ باع الثاني وربح، فقد ربح بهما معًا، وهكذا أبدًا يكون ربحُه في كلِّ صفقة متضاعفًا بانضمامه إلىٰ ما قبله، فالربح الأوَّل اندرج في الثاني ولم يُعْدَم.

فتأمَّل هذا الموضع وأعطه حقَّه يَزُلْ عنك ما يعرض من الغلط في علل المقامات ودعوىٰ المدَّعي أنها من منازل العوام.

مسألة شريفة

٢/ ٤٩٤

أيهما أفضل؟ من له داعية وشهوة وهو يحبسهما أو من لا داعية له؟

وقد اختلف أرباب السلوك وأهل الطريق أيُّهما أفضل: مَن له داعية وشهوة وهو يحبسها لله، ولا يطيعها حبًّا له وحياءً منه وخوفًا. أو من لا داعية له تنازعه، بل نفسه خالية من تلك الدواعي والشهوة، قد اطمأنَّت إلىٰ ربِّها واشتغلت به عن غيره، وامتلأت بحبه وإرادته، فليس فيها موضع لإرادة غيره ولا حبّه؟

فرجَّحت طائفة الأولَ، وقالت: هذا يدلُّ علىٰ قوَّة تعلّقه وشدَّة محبّته، فهو يُعاصي دواعيَ الطبع والشهوة، ويقهرها سلطانُ محبّته وإرادته وخوفه من الله. وهذا يدلّ علىٰ تمكُّنه من نفسه، وتمكُّن حاله مع الله، وغلبة داعي الحق عنده علىٰ داعي الطبع والنفس.

قالوا: وأيضًا فله مزيد في حاله وإيمانه بهذا الإيثار والترك مع حضور داعي الفعل عنده، ومزيد مجاهدة عدوّه الباطن ونفسه وهواه، كما يكون له مزيد مجاهدة عدوّه الظاهر.

قالوا: والذوق والوجد يشهد بمزيده من الحبّ والأنس والسرور والفرح بربِّه عند إيثاره علىٰ دواعي الهوىٰ والنفس. والمطمئنُّ الذي ليس فيه هذا الداعي ليس له مزيد من هذه الجهة. وإن كان مزيده من جهة أخرىٰ، فهي مشتركة بينهما، ويختصُّ هذا بمزيده من الإيثار والمجاهدة.

قالوا: وأيضًا فهذا مبتلًىٰ بهذه الدواعي والإرادات، وذلك معافًىٰ منها.

وقد جرت سنَّة اللهِ في المؤمنين مِن عباده أن يبتليهم علىٰ حسب إيمانهم، فمن ازداد إيمانُه زيد في بلائه، كما ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**يبتلىٰ المرءُ علىٰ حسب دينه، فإنْ كان في دينه صلابة شُدِّدَ عليه البلاء، وإنْ كان في دينه رقَّة خفِّف عنه البلاءُ**»[1]. والمراد بالدين هنا: الإيمان الذي يثبت عند نوازل البلاءِ، فإنَّ المؤمن يبتلىٰ علىٰ قدر ما يحمله إيمانه من وارد البلاءِ.

قالوا: فالبلاءُ بمخالفة دواعي النفس والطبع من أشدِّ البلاءِ، فإنَّه لا يصبر عليه إلا الصدِّيقون. وأمَّا البلاءُ الذي يجري علىٰ العبد بغير اختياره كالمرض والجوع والعطش ونحوها، فالصبر عليه لا يتوقُّف علىٰ الإيمان، بل يصبر عليه البَرُّ والفاجر، ولا سيَّما إذا علم أنَّه لا مُعوَّل له إلا الصبر، فإنَّه إن لم يصبر اختيارًا صبر اضطرارًا.

ولهذا كان بين ابتلاءِ يوسف الصدّيق عليه السلام لِما فعل به إخوتُه من الأذىٰ، والإلقاءِ في الجُبِّ، وبيعه بيع العبيد، والتفريق بينه وبين أبيه؛ وابتلائه بمراودة المرأة له وهو شابٌّ عَزَبٌ غريب بمنزلة العبد لها، وهي الداعية له إلىٰ ذلك= فرقٌ عظيم لا يعرفه إلا من عرف مراتبَ البلاءِ. فإنَّ الشباب داعٍ إلىٰ الشهوة، والشابُ قد يستحيي بين أهله ومعارفه من قضاءِ وطره، فإذا صار في دار الغُربة زال ذلك الاستحياء والاحتشام، وإذا كان عزَبًا كان أشدَّ لشهوته، وإذا كانت المرأة هي الطالبة كان أشدّ، وإذا كانت جميلةً كان أعظم، فإن كانت ذاتَ منصبٍ كان أقوىٰ في الشهوة، فإن كان ذلك في دارها وتحت حكمها بحيث لا يخاف الفضيحةَ ولا الشهرة كان أبلغ، فإن استوثقت بتغليق الأبواب

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وصححه الترمذي، وابن حبان (٢٩٢١).

والاحتفاظ من الداخل كان أقوىٰ أيضًا للطلب، فإن كان الرجل مملوكها وهي الحاكمة عليه الآمرة النَّاهية له كان أبلغَ في الداعي، فإذا كانت المرأة شديدة العشق والمحبَّة للرجل قد امتلأ قلبها من حبّه= فهذا الابتلاءُ الذي يصبر معه إلا مثلُ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولا ريب أنَّ هذا الابتلاء أعظمُ من الابتلاء الأوَّل، بل هو من جنس ابتلاءِ الخليل ﷺ بذبح ولده، إذ كلاهما ابتلاءٌ بمخالفة الطبع ودواعي النفس والشهوة، ومفارقة حكم الطبع جملة. وهذا بخلاف البلوىٰ التي أصابت ذا النون، والتي أصابت أيوب صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قالوا: وأيضًا فإنَّ هذه هي النكتة التي من أجلها كان صالحو البشر أفضلَ من الملائكة؛ لأنَّ الملائكة عبادتهم بريئة عن شوائب دواعي النفس والشهوات البشرية، فهي صادرةٌ عن غير معارضة ولا مانع ولا عائق، وهي كالنَّفَس للحيِّ. وأمَّا عبادات البشر، فمع منازعات النفوس، وقمع الشهوات، ومخالفة دواعي الطبع؛ فكانت أكمل. ولهذا كان أكثر النَّاس علىٰ تفضيلهم علىٰ الملائكة لهذا المعنىٰ ولغيره، فمن لم يخلق له تلك الدواعي والشهوات فهو بمنزلة الملائكة، ومن خُلِقَت له وأعانه الله علىٰ دفعها وقهرها وعصيانها كان أكمل وأفضل.

قالوا: وأيضًا فإنَّ حقيقة المحبَّة إيثارُ المحبوب ومرضاته علىٰ ما سواه. قالوا: وكيف يصحّ الإيثار ممن لا تنازعه نفسه وطبعه إلىٰ غير المحبوب؟

فهذا ونحوه ممَّا احتجَّ به أرباب هذا القول.

واحتجَّ أرباب القول الثاني -وهم الذين رجَّحوا من لا منازعة في طباعه، ولا هوىٰ له يغالبه- بأن قالوا: كيف تستوي النفسُ المطمئنّة إلىٰ ربِّها، العاكفةُ علىٰ حُبِّهِ، التي لا منازعةَ فيها أصلًا ولا داعيةَ تدعوها إلىٰ الإعراض عنه؛ والنفسُ المشغولةُ بمحاربة هواها ودواعيها وجواذبها؟

قالوا: وأيضًا ففي الزمن الذي يشتغل هذا بنفسه ومحاربة هواه وطبعه يكون صاحبُ النفس المطمئنّة قد قطع مراحل من سيره، وفاز بقربٍ فات صاحبَ المحاربة والمنازعة.

قالوا: وهذا كما لو كان رجلان مسافرين في طريق، فطلع علىٰ أحدهما قاطعٌ اشتغل بدفعه عن نفسه ومحاربته ليتمكَّن من سيره؛ والآخر سائرٌ لم يعرض له قاطع، بل هو علىٰ جادَّة سيره، فإنَّ هذا يقطع من المسافة أكثرَ ممَّا يقطع الأوَّل، ويقرب إلىٰ الغاية أكثرَ من قربه.

قالوا: وأيضًا فإن للقلبِ قوَّةً يسير بها، فإذا صرفَ تلك القوَّة في دفعِ العوارض والدواعي القاطعة له عن السير اشتغلَ قلبُه بدفعها عن السيرِ في زمن المدافعة.

قالوا: ولأنَّ المقصودَ بالقصد الأوَّل إنَّما هو السيرُ إلىٰ اللهِ، والاشتغال بدفع العوارض مقصود لغيره، والاشتغال بالمقصود لنفسه أولىٰ وأفضل من الاشتغال بالوسيلة.

قالوا: وأيضًا فالعوارضُ المانعة للقلب من سيره هي من باب المرض، واجتماعُ القلب علىٰ الله وطمأنينتُه به وسكونُه إليه بلا منازعٍ ولا جاذب ولا معارض هو صحّتُه وحياتُه ونعيمُه. فكيف يكون القلبُ الذي يعرض له مرض

وهو مشغول بدوائه أفضلَ من القلب الذي لا داء به ولا علَّة؟

قالوا: وأيضًا فالحسُّ والوجود شاهد بأنَّ قلبَ المحب متىٰ خلا من غير المحبوب، واجتمعت شؤونه كلّها علىٰ محبوبه، ولم يبقَ فيه التفات إلىٰ غيره، كان أكمل محبَّةً من القلب الملتفت إلىٰ الرُّقَباءِ، المهتم بمحاربتهم ومدافعتهم والهرب منهم والتواري عنهم.

قالوا: وأيضًا فدواعي الطبع وإرادات النفس وشهواتها مصدرها إمَّا جهل وإمَّا ضعف. فإنَّها لا تصدر إلا من جهل العبد بآثارها وموجباتها، أو يكون عالمًا بذلك، لكن فيه ضعف وعجز يمنعه عن محوها من قلبه بالكلية. وما كان سببه جهلًا أو عجزًا لا يكون كمالًا ولا مستلزمًا لكمالٍ. وأما القلب الخالي منها ومن الاشتغال بدفعها، فقلب شريف قويّ عُلْويّ رفيع.

قالوا: وأيضًا فإنَّ هذه الدواعي والإرادات إنَّما تُحمَد عاقبتُها إذا ردّت صاحبَها إلىٰ حال السليم منها، فيكون كماله في تشبّهه به وسيره معه؛ فكيف يكون أكملَ ممَّن كمالُه إنّما هو في تشبُّهه به؟

قالوا: وأيضًا فالنفوس ثلاثة: أمَّارة، ولوَّامة، ومطمئنَّة. والنفس الأمَّارة هي المطيعة لدواعي طباعها وشهواتها، فمبادئ كونها أمَّارة هي تلك الدواعي والإرادات، فتستحكم، فتصير عَزمات، ثمَّ تُوجِب الأفعال؛ فمبدأُ صفة الذم فيها تلك الدواعي. وأمَّا النفس المطمئنّة فهي التي عَدِمتْ هذه المبادئ فعدِمت غاياتها. فكيف تكون مبادئ النفس الأمَّارة ممَّا يوجب لها مزيَّةً علىٰ النَّفسِ المطمئنّة؟

فهذا ونحوه ممَّا احتجَّت به هذه الطائفة أيضًا لقولها.

والحقّ أنَّ كلا الطائفتين علىٰ صوابٍ من القول، لكن كلُّ فرقة لحظت غيرَ ملحظِ الفرقة الأخرىٰ، فكأنَّهما لم يتواردا علىٰ محلٍّ واحدٍ. بل الفرقة الأولىٰ نظرت إلىٰ نهاية خير المجاهد لنفسه وإرادته وما ترتَّب له عليها من الأحوالِ والمقاماتِ، فأوجب لها شهودُ نهايته رجحانَه، فحكمت بترجيحه، وأسجلَت بتفضيله. والفرقة الثانية نظرت إلىٰ بدايته في شأنه ذلك ونهاية النفس المطمئنَّة، فأوجبَ لها شهودُ الأمرين الحُكمَ بترجيحِ القلب الخالي من تلك الدواعي ومجاهدتها. وكلّ واحدة من الطائفتين فقد أدْلَتْ بحججٍ لا تمانَع، وأَتَتْ ببيناتٍ لا تُرَدُّ ولا تُدافَع.

حال العبد بعد التوبة من المعصية

وفصل الخطاب في هذه المسألة يظهر بمسألة ترتضع معها من لبانها، وتخرج من مشكاتها، وهي أنَّ العبدَ إذا كان له حال أو مقام مع الله، ثمَّ نزل عنه إلىٰ ذنب ارتكبه، ثمَّ تاب من ذنبه، هل يعود إلىٰ مثل ما كان؟ أو لا يعود، بل إنْ رجع رجعَ إلىٰ أنزلَ من مقامه وأنقصَ من رتبته؟ أو يعود خيرًا ممَّا كان؟

فقالت طائفة: يعود بالتوبة إلىٰ مثل حاله الأوَّل، فإنَّ «**التَّائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[1]، وإذا محي أثرُ الذنب بالتوبة صار وجوده كعدمه، فكأنَّه لم يكن، فيعود إلىٰ مثل حاله.

قالوا: ولأنَّ التوبة هي الرجوع إلىٰ الله بعد الإباق منه، فإنَّ المعصية إباق العبد من ربِّه، فإذا تابَ إلىٰ الله فقد رجع إليه. وإذا كان مسمَّىٰ التوبة هو الرجوع، فلو لم يَعُد إلىٰ حالته الأولىٰ مع الله لم تكن توبته تامَّة، والكلام إنَّما هو في التوبة النصوح.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، وحسّنه ابن حجر كما في «المقاصد الحسنة» (١٨٢).

قالوا: ولأنَّ التوبة كما ترفع أثرَ الذنب في الحالِ بالإقلاع عنه وفي المستقبل بالعزمِ علىٰ أن لا يعود، فكذلك ترفع أثره في الماضي جملةً. ومِن أثره في الماضي انحطاطُ منزلته عند الله ونقصانه عنده، فلا بدَّ من ارتفاع هذا الأثر بالتوبة، وإذا ارتفع بها عاد إلىٰ مثل حاله.

قالوا: ولأنَّه لو بقي نازلًا من مرتبته منحطًّا عن منزلته بعد التوبة كما كان قبلها، لم تكن التوبة قد مَحتْ أثرَ الذنب ولا أفادت في الماضي شيئًا. وإن عاد إلىٰ دون منزلته ولم يبلغها، فبلوغُه تلك الدرجة إنَّما كان بالتوبة، فلو ضَعُف تأثيرُ التوبة عن إعادته إلىٰ منزلته الأولىٰ لَضعُف عن تبليغه تلك المنزلة التي وصل إليها. وإن لم تكن التوبة ضعيفةَ التأثير عن تبليغه تلك المنزلة لم تكن ضعيفةَ التأثير عن إعادته إلىٰ المنزلة الأولىٰ.

قالوا: وأيضًا فالله سبحانه ربط الجزاءَ بالأعمالِ ربطَ الأسبابِ بمُسَبِّباتها، فالجزاءُ من جنس العمل. فكما رجع التائب إلىٰ الله بقلبه رجوعًا تامًّا، رجع الله عليه بمنزلته وحاله. بل ما رجع العبدُ إلىٰ الله تعالىٰ حتىٰ رجعَ الله بقلبه إليه أوَّلًا، فرجع الله إليه وتاب عليه ثانيًا. فتوبةُ العبدِ محفوفةٌ بتوبتين من الله: توبةٍ منه إذنًا وتمكينًا، فتاب بها العبد، وتاب الله عليه قبولًا ورضًا. فتوبة العبد بين توبتين من الله، وهذا يدلُّ علىٰ عنايته سبحانه وبرِّه ولطفه بعبده التائب. فكيف يقال: إنَّه لا يعيده مع هذا اللطف والبرِّ إلىٰ حاله؟

قالوا: وأيضًا فإنَّ التوبة من أجلِّ الطاعات، وأوجَبِها علىٰ المؤمنين، وأعظمها غَناءً عنهم، وهم إليها أحوجُ من كلِّ شيء. وهي من أحبِّ الطاعات إلىٰ الله سبحانه، فإنَّه يحب التّوابين، ويفرح بتوبة عبده إذا تابَ إليه أعظم فرح وأكمله. وإذا كانت بهذه المثابة فالآتي بها آتٍ بما هو من أفضل القربات وأجلّ

الطاعات. فإذا كان قد حصل له بالمعصية انحطاطٌ ونزولُ مرتبةٍ، فبالتوبة يحصل له مزيدُ تقدمٍ وعلوُّ درجةٍ، فإن لم تكن درجتُه بعد التوبة أعلىٰ فإنَّها لا تكون أنزَل.

قالوا: وأيضًا فإنَّا إذا قابلنا بين جناية المعصية والتقرب بالتوبة وجدنا الأثر الحاصل من التوبة أرجَحَ من الأثرِ الحاصل من المعصية، والكلام إنَّما هو في التوبة النصوح الكاملة؛ وجانب الفضل أرجح من جانب العدل، ولهذا كان مِن جانب العدل آحادًا بآحاد، وجانب الفضل آحادًا بعشراتٍ إلىٰ سبعمائةٍ إلىٰ أضعاف كثيرة، وهذا يدلُّ علىٰ رجحان جانب الفضل وغلبته. وكذلك مصدرهما من الغضب والرحمة، فإنَّ رحمةَ الربِّ تعالىٰ تغلب غضبَه.

قالوا: وأيضًا فالذنب بمنزلة المرض، والتوبة بمنزلة العافية. والعبد إذا مرض ثمَّ عوفي وتكاملت عافيتُه رجعت صحَّتُه إلىٰ ما كانت، بل ربَّما ترجع أقوىٰ وأكمل ممَّا كانت عليه، لأنَّه ربما كان معه في حال العافية آلامٌ وأسقامٌ كامنة، فإذا اعتلَّ ظهرت تلك الأسقام، ثمَّ زالت بالعافية جملةً، فتعودُ قوَّته خيرًا ممَّا كانت وأكمل. وفي مثل هذا قال الشاعر:

لعلَّ عتبَك محمودٌ عواقبُه ... ورّبما صحَّت الأجسامُ بالعِلَلِ[١]

وهذا الوجه هو أحد ما احتجَّ به من قال: **إنَّه يعود خيرًا مما كان قبل التوبة.**

واحتجُّوا لقولهم أيضًا بأنَّ التوبة تثمر للعبد محبَّةً من الله خاصَّةً لا تحصل بدون التوبة، بل التوبة شرط في حصولها. وإن حصل له محبّة أخرىٰ

(١) للمتنبي في «ديوانه» (٤٩٤).

بغيرها من الطاعات فالمحبَّةُ الحاصلة له بالتوبة لا تنال بغيرها، فإنَّ الله يحبّ التوّابين، ومن محبَّته لهم فرحُه بتوبة أحدهم أعظمَ فرحٍ وأكملَه. فإذا أثمرت له التوبةُ هذه المحبّة، ورجع بها إلىٰ طاعاته التي كان عليها أوَّلًا، انضمَّ أثرُها إلىٰ أثر تلك الطاعات، فقوي الأثران، فحصل له المزيد من القرب والوسيلة.

وهذا بخلاف ما يظنُّه من نقصت معرفته بربِّه من أنَّه سبحانه إذا غفر لعبده ذنبَه فإنَّه لا يعودُ الودُّ الذي كان له منه قبل الجناية. واحتجُّوا في ذلك بأثر إسرائيليّ مكذوب أنَّ الله سبحانه قال لداود عليه السلام: «يا داود أمَّا الذنب فقد غفرناه، وأمَّا الود فلا يعود». وهذا كذب قطعًا، فإنَّ الودَّ يعود بعد التوبة النصوح أعظمَ ممَّا كان، فإنَّه سبحانه يحب التوابين، ولو لم يَعُد الودُّ لما حصلت له محبَّته. وأيضًا فإنَّه يفرح بتوبة التائب، ومحال أن يفرح بها أعظمَ فرحٍ وأكملَه وهو لا يحبُّه.

وتأمَّلْ سرَّ اقتران هذين الاسمين في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٣- ١٤] تجِدْ فيه من الردِّ والإنكار علىٰ من قال: لا يعودُ الودُّ والمحبة منه لعبده أبدًا= ما هوَ من كنوز القرآن ولطائف فهمه. وفي ذلك ما يَهيج القلبَ السليمَ، ويأخذ بمجامعه، ويجعله عاكفًا علىٰ ربِّه -الذي لا إلهَ له غيره، ولا ربَّ له سواه- عكوفَ المحبّ الصادق علىٰ محبوبه، الذي لا غنىٰ له عنه، ولا بُدَّ له منه، ولا تندفع ضرورته بغيره أبدًا.

واحتجُّوا أيضًا بأنَّ العبدَ قد يكون بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة، لأنَّ الذنبَ يُحدِث له من الخوف والخشية، والانكسار والتذلّل لله، والتضرّع بين يديه، والبكاءِ علىٰ خطيئته، والندم عليها، والأسف والإشفاق، ما هو من أفضل

أحوال العبدِ وأنفعها له في دنياه وآخرته. ولم تكن هذه الأمور لتحصل بدون أسبابها، إذ حصول الملزوم بدون لازمة محال. والله تعالىٰ يحبّ من عبده كسرتَه، وتضرُّعَه، وذلّه بين يديه، واستعطافه، وسؤاله أن يعفو عنه، ويغفر له، ويتجاوز عن جرمه وخطيئته. فإذا قضىٰ عليه بالذنب فترتَّبت عليه هذه الآثار المحبوبة له كان ذلك القضاءُ خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن.

قالوا: وأيضًا فقد ثبت عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**لَلَّهُ أشدُّ فرحًا بتوبةِ عبدِه من أحدكم أضلَّ راحلتَه**»[1].

قالوا: وهذا أعظم ما يكون من الفرح وأكملُه، فإنَّ صاحب هذه الراحلة كان عليها مادةُ حياته من الطعام والشراب، وهي مركبه الذي يقطع به مسافة سفره، فلو عَدِمَه لانقطع في طريقه، فكيف إذا عدم مع مركبه طعامَه وشرابَه! ثمَّ إنَّه عدِمَها في أرض دَوِّيَّةٍ لا أنيس بها ولا مُعين، ولا من يأوي له ويرحمه ويحمله، ثمَّ إنَّها مَهلَكةٌ لا ماءَ بها ولا طعام. فلمَّا أَيِسَ من الحياةِ بفقدها، وجلس ينتظر الموت، إذا هو براحلته قد أشرفت عليه ودنَتْ منه، فأيُّ فرحةٍ تعدل فرحةَ هذا؟ ولو كان في الوجود فرحٌ أعظمَ من هذا لمثَّل به النبي ﷺ. ومع هذا ففرَحُ الله بتوبة عبده إذ تابَ إليه أعظمُ من فرحِ هذا براحلته.

فرَحُ الربِّ تعالىٰ هذا الفرحَ العظيمَ بتوبة عبده إذا تاب إليه هو من ملزومات محبَّته ولوازمها، أعني كونَه محِبًّا لعباده المؤمنين، محبوبًا لهم. وإنَّما خلق خلقَه لعبادته المتضمَّنةِ لكمال محبَّته والخضوع له، ولهذا خلق الجنَّة والنَّار، ولهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب. وهذا هو الحق الذي خلق به

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧).

السماوات والأرضِ، وأنزل به الكتاب. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٣-٥].

والمقصود أنَّه سبحانه يحبُّ نفسَه أعظمَ محبَّة، ويحبُّ مَن يحبُّه. وخلق خلقه لذلك، وشرع شرائعه وأنزل كتبه لأجل ذلك، وأعدَّ الثواب والعقاب لأجل ذلك. وهذا هو محض الحقِّ الذي به قامت السماوات والأرضِ، وكان الخلقُ والأمر. فإذا قامَ به العبدُ فقد جاء منه الأمر الذي خُلِقَ له، فرضيَ عنه صانعُه وبارئُه وأحبَّه، إذ كان كما يحب ويرضىٰ.

فإذا صدف عن ذلك، وأعرض عنه، وأبق عن مالكه وسيِّده؛ أبغضه ومقته، لأنَّه خرج عمَّا خُلِقَ له، وصار إلىٰ ضدِّ الحال التي هُيِّئ لها، فاستوجب منه غضبه بدلًا من رضاه، وعقوبتَه بدلًا من رحمته. فكأنَّه استدعىٰ من ربِّه أن يعامله من نفسه بخلاف ما يحبُّ، فإنَّه سبحانه عفوٌّ يحبُّ العفو، محسنٌ يحبّ الإحسان، جوادٌ يحبُّ الجود، سبقت رحمتُه غضبَه. فإذا أبقَ منه العبدُ، وخامرَ[1] عليه ذاهبًا إلىٰ عدوِّه، فقد استدعىٰ منه أن يجعل غضبَه غالبًا علىٰ رحمته، وعقوبَته علىٰ إحسانه؛ وهو سبحانه يحبُّ من نفسه الإحسان والبر والإنعام، فقد استدعىٰ من ربِّه فعلَ ما غيرُه أحبُّ إليه منه.

(١) المخامرة علىٰ فلان: المؤامرة والمواطأة عليه.

وهو بمنزلة عبد السَّوءِ الذي يحمل أستاذَه من المخلوقين المحسنَ إليه، الذي طبيعتُه الإحسان والكرم، علىٰ خلاف مقتضىٰ طبيعته وسجيَّته. فأستاذه يحب بطبعه الإحسانَ، وهو بإساءته ولؤمه يُكلِّفه ضدَّ طباعه، ويحمله علىٰ خلاف سجيته. فإذا راجع هذا العبدُ ما يحبُّ سيِّدُه، ورجع إليه، وأقبل عليه، وأعرض عن عدوِّه؛ فقد صار إلىٰ الحالِ التي تقتضي محبَّة سيِّده له وإنعامَه عليه وإحسانَه إليه، فيفرح به -ولا بُدَّ- أعظمَ فرحٍ، وهذا الفرحُ هو دليلٌ علىٰ غاية الكمال والغنىٰ والمجد.

فليتدبّر اللبيبُ وجود هذا الفرح ولوازمه وملزوماته يجدْ في طيِّه من المعارف الإلهية ما لا تتَّسع له إلا القلوب المهيَّأة لهذا الشأن المخلوقةُ له. وهذا فرحُ محسنٍ برٍّ لطيف جواد غني حميد، لا فرَحُ محتاجٍ إلىٰ حصول ما يفرح به، مستكملٍ به، مستفيدٍ له من غيره. فهو عين الكمالِ، لازم للكمال، ملزوم له.

وألطف من هذا الوجهِ أنَّ الله سبحانه خلق عباده المؤمنين، وخلق كلَّ شيءٍ لأجلهم، كما قال تعالىٰ لصالحيهم وصفوتهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١]. واتَّخذ منهم الخليلَين، والخلَّة أعلىٰ درجات المحبة، وقد جاءَ في بعض الآثار: يقول تعالىٰ: «ابن آدم خلقتُك لنفسي، وخلقتُ كلَّ شيءٍ لك، فبحقِّي عليك لا تشتغل بما خلقتُه لك عمَّا خلقتُك له»[1].

وفي أثر آخر يقول تعالىٰ: «ابنَ آدم، خلقتُك لنفسي، فلا تلعبْ؛ وتكفَّلتُ

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٣٠٥).

برزقك، فلا تتعَبْ. ابنَ آدمَ اطلبني تجدْني، فإن وجدتني وجدتَ كلَّ شيءٍ، وإنْ فُتُّكَ فاتك كل شيءٍ، وأنا أحبّ إليك من كلِّ شيءٍ»[١].

فالله سبحانه خلق عبادَه له، ولهذا اشترىٰ منهم أنفسهم، وهذا عقدٌ لم يعقده مع خَلْقٍ غيرهم -فيما أخبر به علىٰ لسان رسوله ﷺ- ليسلِّموا إليه النفوسَ التي خلقها له. وهذا الشِّرَىٰ دليلٌ علىٰ أنها محبوبةٌ له مصطفاةٌ عنده، مرضيّةٌ لديه. وقدرُ السلعة يُعْرَفُ بجلالة قدر مشتريها وبمقدار ثمنها. هذا إذا جُهِلَ قدرُها في نفسها، فإذا عُرِفَ قدرُ السلعة، وعُرِفَ مشتريها، وعرف الثمن المبذول فيها= عُلِمَ شأنُها ومرتبتُها في الوجود. فالسلعة أنت، والله المشتري، والثمنُ جنَّتُه والنظرُ إلىٰ وجهه وسماعُ كلامه في دار الأمن والسلام. والله سبحانه لا يصطفي لنفسه إلا أعزَّ الأشياءِ وأشرفها وأعظمها قيمةً. وإذا كان قد اختار العبدَ لنفسه، وارتضاه لمعرفته ومحبته، وبنىٰ له دارًا في جواره وقربه، وجعل ملائكته خدَمه يسعون في مصالحه في يقظته ومنامه وحياته وموته؛ ثمَّ إنَّ العبد أبق عن سيِّده ومالكه ذاهبًا عنه، معرضًا عن رضاه؛ ثمَّ لم يكفه ذلك حتىٰ خامر عليه، وصالح عدوَّه، ووالاه من دونه، وصارَ من جنده، مؤثرًا لمرضاته علىٰ مرضاة وليّه ومالكه= فقد باعَ نفسه -التي اشتراها منه إلهه ومالكه، وجعلَ ثمنها جنَّته والنظرَ إلىٰ وجهه- من عدوِّه وأبغضِ خلقه إليه، واستبدل غضبَه برضاه، ولعنتَه برحمته ومحبّته. فأيُّ مقتٍ خلَّىٰ هذا المخدوعُ عن نفسه لم يتعرّض له من ربِّه؟

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

---

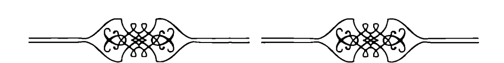
(١) أثر إسرائيلي، وقد تقدَّم.

فتأمَّل ما تحت هذه المعاتبة وما في طيِّ هذا الخطاب من سوءِ حالِ هذا العبد، وما تعرَّض له من المقتِ والخزي والهوان؛ ومن استعطافِ ربِّه واستعتابه ودعائه إيَّاه إلىٰ العود إلىٰ وليِّه ومولاه الحقّ الذي هو أولىٰ به. فإذا عادَ إليه وتابَ إليه فهو بمثابة من أسرَ له العدوُّ محبوبًا له، واستولوا عليه، وحالوا بينه وبينه، فهرب منهم ذلك المحبوب، وجاءَ إلىٰ مُحبِّه اختيارًا وطوعًا حتَّىٰ توسَّد عتبةَ بابه، فخرج المحِبُّ من بيته، فوجد محبوبه متوسِّدًا عتبة بابه واضعًا خدَّه وذقنَه عليها، فكيف يكون فرحه به؟ ولله المثل الأعلىٰ.

ويكفي في هذا: المثلُ الذي ضربه رسوله ﷺ لمن فتح الله عينَ قلبه، فأبصرَ ما في طيِّه وما في ضمنه، وعلم أنَّه ليس كلامُ مجازفةٍ ولا مبالغةٍ ولا تخييل، بل كلامُ معصومٍ في منطقة وعلمه وقصده وعمله. كلُّ كلمةٍ منه في موضعها ومنزلتها ومقرّها، لا يتعدّىٰ بها عنه، ولا يقصّر بها.

والذي يزيد هذا المعنىٰ تقريرًا أنّ محبّة الرّب لعبده سبقَتْ محبَّةَ العبد له سبحانه، فإنَّه لولا محبّةُ الله له لما جعَل محبّتَه في قلبه. فلمَّا أحبَّه ألهمه حبَّه، وآثره به؛ فلمَّا أحبَّه العبدُ جازاه علىٰ تلك المحبّة محبّةً أعظمَ منها. فإنّه مَن تقرَّب إليه شبرًا تقرَّب إليه ذراعًا، ومن تقرَّب إليه ذراعًا تقرَّب إليه باعًا، ومن أتاه مشيًا أتاه هرولةً. وهذا دليل علىٰ أنَّ محبَّة الله لعبده الذي يحبُّه فوق محبة العبد له. فإذا تعرَّض هذا المحبوبُ لمَساخطِ حبيبه فهو بمنزلة المحبوب الذي فرَّ من مُحبّه وآثر غيرَه عليه. فإذا عاوده، وأقبل إليه، وتخلَّىٰ عن غيره، فكيف لا يفرح به محبُّه أعظمَ فرح وأكملَه؟ والشاهدُ أقوىٰ شاهدٍ بهذا والفطرةُ والعقل، فلو لم يخبِر الصادقُ المصدوقُ بما أخبر به من هذا الأمر العظيم

لكان في الفطرة والعقل ما يشهد به، فإذا انضافت الشِّرعة المنزلة إلىٰ الفطرة المُكمِّلة إلىٰ العقل الصحيح المنوَّر، فذلك الذي لا غاية بعده. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



٢/ ٥٢٩

فصل

كل تائب لا بد له في أول توبته من همّ أو حزن

ومتىٰ أراد العبد شاهِدَ هذا من نفسه فلينظر إلىٰ الفرحة التي يجدها بعد التوبة النصوح، والسرور واللذّة التي تحصل له؛ والجزاءُ من جنس العمل. فلمَّا تاب إلىٰ الله، ففرح الله بتوبته، أعقبه فرحًا عظيمًا.

وهاهنا دقيقة قلّ من يتفطّن لها إلَّا فقيه في هذا الشأن. وهي أنَّ كلَّ تائب لا بدَّ له في أوَّل توبته من عَصرة وضَغطة في قلبه، من همٍّ أو غمٍّ أو ضيق أو حزن، ولو لم يكن إلَّا تألُّمٌ بفراق محبوبه، فينضغط لذلك وينعصر قلبه، ويضيق صدره؛ فأكثرُ الخلق رجعوا من التوبة ونُكِسوا علىٰ رؤوسهم لأجل هذه المحنة. والعارف الموفَّق يعلم أنَّ الفرحة والسرور واللذّة الحاصلة عقيبَ التوبة تكون علىٰ قدر هذه العصرة، فكلَّما كانت أقوىٰ وأشدَّ كانت الفرحة واللذّة أكمل وأتمّ.

والمقصود أنَّ هذا الفرح من الله بتوبة عبده -مع أنَّه لم يأتِ نظيرُه في غيرها من الطاعات- دليلٌ علىٰ عِظَمِ قدر التوبة وفضلها عند الله، وأنَّ التعبُّد له بها من أشرف التعبُّدات. وهذا يدلّ علىٰ أنَّ صاحبها يعود أكملَ ممَّا كان قبلها.

فهذا بعض ما احتُجَّ به لهذا القول.

وأمَّا الطائفة التي قالت: لا يعودُ إلىٰ مثل ما كان، بل لا بدَّ أن ينقص حاله، فاحتجُّوا بأنّ الجِناية تُوجب الوحشةَ وزوالَ المحبَّة ونقصَ العبوديَّة بلا ريب، فليس العبدُ المُوفِّرُ أوقاتَه علىٰ طاعة سيّده كالعبد المفرِّط في حقوقه، وهذا ممَّا لا يمكن جحدُه ومكابرته. فإذا تاب إلىٰ ربّه ورجع إليه أثّرت توبتُه تركَ مؤاخذته بالذنب والعفوَ عنه، وأمَّا مقام القرب والمحبّة، فهيهات أن يعود!

قالوا: ولأنَّ هذا في زمن اشتغاله بالمعصية قد فاته فيه السيرُ إلىٰ الله. فلو كان واقفًا في موضعه لفاته التقدُّمُ، فكيف وهو في زمن المعصية كان سيرُه إلىٰ وراءَ وراءَ؟ فإذا تاب واستقبل سيره، فإنَّه يحتاج إلىٰ سيرٍ جديدٍ وقطع مسافةٍ حتّىٰ يصل إلىٰ الوضع الذي تأخّر منه.

قالوا: ونحن لا ننكر أنّه قد يأتي بطاعات وأعمال تبلّغه إلىٰ منزلته، وإنّما أنكرنا أن يكون بمجرَّد التوبة النصوح يعود إلىٰ منزلته وحالته. وهذا ممّا لا يكون، فإنَّه بالتوبة قد وجَّه وجهه إلىٰ الطريق، فلا يصل إلىٰ مكانه الذي رجع منه إلّا بسيرٍ مستأنَفٍ يُوصله إليه. ونحن لا ننكر أنَّ العبد بعد التوبة يعمل أعمالًا عظيمةً لم يكن ليعملَها قبل الذنب تُوجِب له التقدّم.

قالوا: وأيضًا فلو رجع إلىٰ حاله التي كان عليها أو إلىٰ أرفع منها لكان بمنزلة المداوم علىٰ الطاعة أو أحسنَ حالًا منه، فكيف يكون هذا؟ وأين سيرُ صاحبِ الطاعة في زمن اشتغالِ هذا بالمعصية؟ وكيف يلتقي رجلان: أحدُهما سائرٌ نحوَ المشرق، والآخرُ نحوَ المغرب، فإذا رجع أحدهما إلىٰ طريق الآخر، والآخرُ مجِدٌّ علىٰ سيره؟ فإنّه لا يزال سابقَه ما لم يَعرِض له فتور أو توانٍ. هذا مما لا يمكن جحدُه ودفعه.

قالوا: وأيضًا فمرضُ القلب بالذنوب علىٰ مثال مرضِ الجسم بالأسقام، والتوبة بمنزلة شرب الدواءِ. والمريض إذا شرب الدواءَ وصحَّ، فإنّه لا تعود إليه قوّتُه قبل المرض؛ وإن عادت فبعدَ حين.

قالوا: وأيضًا فهذا في زمن معالجة التوبة ملبوك في نفسه،[١] مشغول

(١) أي: مضطرب في نفسه، مُتورِّط بها، يجذبها وتجذبه.

بمداواتها ومعالجتها؛ وفي زمن الذنب مشغول بشهواتها. والسالم من ذلك مشغول بربّه، قد قرُبَ منه في سيره. فكيف يلحقه هذا؟

فهذا ونحوه مما احتجَّت به هذه الطائفة لقولها.

وجرت هذه المسألة بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية، فسمعتُه يحكي هذه الأقوال الثلاثة حكاية مجرَّدة. فإمَّا سألتُه، وإمَّا سُئل عن الصواب منها، فقال: الصواب أنَّ من التائبين من يعود إلىٰ مثل حاله، ومنهم من يعود إلىٰ أكمل مما كان، ومنهم من يعود أنقص ممَّا كان. فإن كان بعد التوبة خيرًا ممَّا كان قبل الخطيئة، وأشدَّ حذرًا، وأعظمَ تشميرًا، وأعظم ذلًّا وخشيةً وإنابةً، عاد إلىٰ أرفع ممَّا كان. وإن كان قبل الخطيئة أكمل في هذه الأمور، ولم يعُدْ بعد التوبة إليها، عاد إلىٰ أنقصَ ممَّا كان عليه. وإن كان بعد التوبة مثل ما كان قبل الخطيئة رجع إلىٰ مثل منزلته. هذا معنىٰ كلامه رضي الله عنه.

التائب هل تمحىٰ عنه سيئاته أم لا؟

قلتُ: وهاهنا مسألةٌ، هذا الموضعُ أخصُّ المواضعِ ببيانها. وهي أنّ التائب إذا تاب إلىٰ الله توبةً نصوحًا، فهل تمُحىٰ تلك السيئات، ويذهب لا له ولا عليه، أو إذا مُحِيتْ أُثبِتَ له مكان كلّ سيِّئةٍ حسنةٌ؟

هذا مما اختلف الناس فيه من المفسِّرين وغيرهم قديمًا وحديثًا. فقال الزجَّاج: «ليس يُجعَل مكان السيئة الحسنة، لكن يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة»[١].

قال ابن عطية: «يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأولىٰ طاعة. فيكون ذلك

---

(١) بهذا اللفظ في «معاني القرآن» للنحاس (٨٤١). وانظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٧٦).

سببًا لرحمة الله إيَّاهم. قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن»، وردَّ علىٰ من قال: هو في يوم القيامة. قال: «وقد ورد حديث في كتاب مسلم من طريق أبي ذرٍّ يقتضي أنَّ الله سبحانه يوم القيامة يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحّدين بدل سيئاته حسنات، وذكره الترمذي والطبري. وهذا تأويل سعيد بن المسيِّب في هذه الآية». قال ابن عطية: «وهو معنىٰ كرم العفو»[1]. هذا آخر كلامه.

قلت: سيأتي إن شاءَ الله ذكرُ الحديث بلفظه والكلام عليه.

قال المهدوي: «وروي معنىٰ هذا القول عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما».

وقال الثعلبي: «قال ابن عبَّاس وابن جريج والضحَّاك وابن زيد: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ [الفرقان: ٧٠]: يبدّلهم الله بقبيح أعمالهم في الشرك محاسنَ الأعمال في الإسلام، فيبدِّلهم بالشرك إيمانًا، وبقتل المؤمنين قتلَ المشركين، وبالزنا عفَّةً وإحصانًا. وقال آخرون: يعني يبدِّل الله سيِّئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم حسناتٍ يوم القيامة»[2].

وأصل القولين أنّ هذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة؟ فمن قال: إنه في الدنيا قال: هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها، وهي حسنات، وهذا تبديل حقيقة. والذين نصروا هذا القول احتجُّوا بأنّ السيّئة لا تنقلب حسنةً، بل غايتها أن تُمْحىٰ وتُكَفَّر ويذهب أثرها. فأما أن تنقلب حسنةً فلا، فإنَّها لم تكن طاعة، وإنّما كانت بغيضة مكروهة للربّ، فكيف تنقلب محبوبة مرضيَّة؟

(١) «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٢١).
(٢) «الكشف والبيان» (٤/ ٤٣٣).

قالوا: وأيضًا فالذي دلَّ عليه القرآن إنّما هو تكفير السيّئات ومغفرة الذنوب، كقوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقوله: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورىٰ: ٢٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]. والقرآن مملوءٌ من ذلك.

وفي «الصحيح»[1] من حديث قتادة، عن صفوان بن مُحرِز قال: قال رجل لابن عمر ﵄: كيف سمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول في النجوىٰ؟ قال: سمعتُه يقول: «**يُدنىٰ المؤمنُ يومَ القيامة مِن ربّه حتَّىٰ يضعَ عليه كنَفَه، فيقرِّرُه بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: ربِّ أعرِفُ. قال: فإنّي قد سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. فيعطَىٰ صحيفةَ حسناتِه. وأمَّا الكفّار والمنافقون فيُنادىٰ بهم علىٰ رؤوس الأشهاد: هؤلاءِ الذين كذبوا علىٰ الله عزّ وجلّ**». فهذا الحديث المتفَق عليه الذي يتضمَّن العنايةَ بهذا العبد إنّما فيه سترُ ذنوبه عليه في الدنيا ومغفرتُها له يوم القيامة. ولم يقل له: وأعطيتُك بكلّ سيّئة منها حسنة؛ فدلّ علىٰ أنّ غاية السيّئات مغفرتُها وتجاوزُ الله عنها.

وقد قال تعالىٰ في حقّ الصادقين: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥]. فهؤلاءِ خيار الخلق، وقد أخبر أنَّه يكفِّر عنهم سيئاتِ أعمالهم، ويجزيهم بأَحسن ما عملوا، وأحسنُ ما عملوا إنّما هو الحسنات لا السيّئات؛ فدلّ علىٰ أنَّ الجزاء بالحسنىٰ إنّما يكون علىٰ الحسنات وحدها. وأمَّا السيّئات فحَسْبُها أن تلغىٰ ويبطُلَ أثرُها.

قالوا: وأيضًا فلو انقلبت السيّئاتُ أنفسُها حسناتٍ في حقِّ التائب لكان

---

(١) البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

أحسنَ حالًا من الذي لم يرتكب منها شيئًا، وأكثرَ حسناتٍ منه، لأنَّه إذا شاركه في حسناته التي فعلها، وامتاز عنه بتلك السيّئات، ثمَّ انقلبت له حسناتٍ= ترجَّحَ عليه! وكيف يكون صاحبُ السيّئات أرجحَ ممَّن لا سيِّئة له؟

قالوا: وأيضًا فكما أنَّ العبد إذا فعل حسناتٍ، ثمَّ أتىٰ بما يُحبِطها، فإنَّها لا تنقلب سيّئاتٍ يعاقَبُ عليها، بل يبطل أثرُها، ويكون لا له ولا عليه، وتكون عقوبتُه عدمَ ترتُّب ثوابِه عليها؛ فهكذا مَن فعل سيّئاتٍ ثمَّ تاب منها، فإنَّها لا تنقلب حسنات. فإن قلتم: وهكذا التائبُ يكون ثوابُه عدمَ ترتُّبِ العقوبة علىٰ سيِّئاته، لم نُنازِعْكم في هذا. وليس هذا معنىٰ الحسنة، فإنّ الحسنة تقتضي ثوابًا وجوديًّا.

واحتجَّت الطائفة الأخرىٰ التي قالت: هو تبديل السيِّئة بالحسنة حقيقةً يوم القيامة بأن قالت: حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيّئة. وهذا إنَّما يكون في السيّئة المحقَّقة، وهي التي قد فُعِلتْ ووقَعتْ؛ فإذا بُدِّلت حسنةً كان معناه أنّها مُحِيت وأُثبتَ مكانها حسنةٌ.

قالوا: ولهذا قال سبحانه: ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، فأضاف السيئات إليهم لكونهم باشروها واكتسبوها، ونكَّر الحسناتِ ولم يُضفها إليهم لأنَّها من غير صنعهم وكسبهم، بل هي مجرَّد فضل الله وكرمه.

قالوا: وأيضًا فالتبديل في الآية إنَّما هو فعل الله، لا فعلهم؛ فإنَّه أخبر أنَّه هو يُبدِّل سيِّئاتِهم حسناتٍ. ولو كان المراد ما ذكرتم لأضافَ التبديل إليهم، فإنَّهم هم الذين بدَّلوا سيِّئاتهم حسنات. والأعمال إنَّما تضاف إلىٰ فاعلها وكاسبها، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ [البقرة: ٥٩].

وأمَّا ما كان مِن غير الفاعل فإنَّه يجعله من تبديله هو، كما قال تعالىٰ: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦]. فلمَّا أخبر سبحانه أنَّه هو الذي يبدِّل سيئاتهم حسنات، دلَّ علىٰ أنَّه شيءٌ فعله هو سبحانه بسيِّئاتهم، لا أنَّهم فعلوه من تلقاءِ أنفسهم، وإن كان سببُه منهم، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح.

قالوا: ويدلّ عليه ما رواه مسلم في «صحيحه»[1] من حديث الأعمش، عن المَعْرُور بن سُويد، عن أبي ذرٍّ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي لأعلم آخرَ أهلِ الجنَّة دخولًا الجنَّة، وآخِرَ أهل النَّارِ خروجًا منها: رجلٌ يُؤتَىٰ به يومَ القيامة فيقال: اعرضُوا عليه صغارَ ذنوبه، وارفعوا عنه كبارَها. فتُعرَضُ عليه صغارُ ذنوبه فيقال: عملتَ يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا؟ فيقول: نعم. لا يستطيع أن يُنكر، وهو مشفِق من كبار ذنوبه أن تُعرَضَ عليه. فيقال له: فإنَّ لك مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً. فيقول: ربِّ، قد عملتُ أشياءَ لا أراها ههنا**» ، فلقد رأيتُ رسول الله ﷺ ضحِكَ حتَّىٰ بدَتْ نواجذُه.

قالوا: وهؤلاء هم الأبدال في الحقيقة، فإنَّهم إنَّما سُمُّوا «أبدالًا» لأنهم بدَّلوا أعمالهم السيِّئة بالأعمال الحسنة، فبدَّل اللهُ سيِّئاتِهم التي عملوها حسناتٍ.

قالوا: وأيضًا فالجزاءُ من جنس العمل، فكما بدَّلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة، بدَّلها اللهُ من صُحُفِ الحَفَظة حسناتٍ جزاءً وفاقًا.

قالت الطائفة الأولىٰ: كيف يمكنكم الاحتجاجُ بحديث أبي ذرٍّ علىٰ صحَّة قولكم وهو صريح في أنَّ هذا الذي قد بُدِّلت سيِّئاته حسنات قد عُذِّبَ عليها في النَّار حتَّىٰ كان آخرَ أهلها خروجًا منها؟ فهذا قد عوقب علىٰ سيِّئاته، فزال

---

(١) برقم (١٩٠).

أثرُها بالعقوبة، فبُدِّل مكانَ كلِّ سيّئةٍ منها حسنةً. وهذا حكمُ غير ما نحن فيه، فإنَّ الكلام في التائب من السيّئات، لا فيمن مات مصرًّا عليها غيرَ تائب منها، فأين أحدهما من الآخر؟

قالوا: وأمَّا ما ذكرتم من أنَّ التبديل هو إثبات الحسنة مكان السيّئة، فحقٌّ. وكذلك نقول إنَّ الحسنة المفعولة صارت في مكان السيّئة التي لولا الحسنة لحلَّت محلّها.

قالوا: وأمَّا احتجاجكم بإضافةِ السيّئاتِ إليهم، وذلك يقتضي أن تكون هي السيّئات الواقعة؛ وتنكيرِ الحسنات، وهو يقتضي أن تكون حسناتٍ من فضل الله= فهو حقٌّ بلا ريب، ولكن من أين يُنفَىٰ أن يكون فضلُ الله بها مقارنًا لكسبهم إيَّاها بفضله؟

قالوا: وأمَّا قولكم: إنَّ التبديل مضاف إلىٰ الله لا إليهم، وذلك يقتضي أنَّه هو الذي بدَّلها سبحانه من الصحف، لا أنَّهم هم الذين بدَّلوا الأعمال بأضدادها= فهذا لا دليلَ لكم فيه، فإنَّ الله خالق أفعال العباد، فهو المبدِّل للسيّئات حسناتٍ خلقًا وتكوينًا، وهم المبدّلون لها فعلًا وكسبًا.

قالوا: وأمَّا احتجاجكم بأنَّ الجزاءَ من جنس العمل، فكما بدَّلوا سيّئاتِ أعمالهم بمحاسنهم، بدَّلها اللهُ كذلك في صحف الأعمال= فهذا حقّ، وبه نقول، وأنَّه بدِّلت السيّئات التي كانت مهيَّأةً معدَّة أن تحلَّ في الصحف بحسناتٍ حلَّت موضعها.

فهذا منتهىٰ إقدام الطائفتين، ومحطّ نظر الفريقين. وإليك أيّها المنصف الحُكمَ بينهما، فقد أدلىٰ كلّ منهما بحجّته، وقام ببيِّنته، والحقُّ لا يعدوهما

ولا يتجاوزهما. فأرشدَ اللهُ من أعانَ علىٰ هدًىٰ، فنال به درجةَ الدَّاعين إلىٰ الله القائمين ببيان حججه ودينه؛ أو عذَرَ طالبًا منفردًا في طريق مطلبه، قد انقطع رجاؤه من رفيق في الطريق، فغايةُ أمنيَّته أن يُخلَّىٰ بينه وبين سيره، وأن لا يُقطع عليه طريقُه. فمن رُفع له مثل هذا العَلَم، ولم يشمِّرْ إليه، فقد رضي بالدون، وحصل علىٰ صفقة المغبون. ومن شمَّر إليه، ورامَ أن لا يعارضه معارض، ولا يتصدَّىٰ له ممانع، فقد منَّىٰ نفسه المحال! وإن صبر علىٰ لَأْوائها وشدَّتها، فهو -واللهِ- الفوز المبين والحظُّ الجزيل. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكّلت، وإليه أنيب.

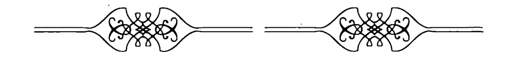
فالصواب -إن شاء الله- في هذه المسألة أن يقال: لا ريب أنَّ الذنب نفسه لا ينقلب حسنة، والحسنة إنَّما هي أمرٌ وجوديٌ يقتضي ثوابًا، ولهذا كان تارك المنهيَّات إنَّما يثاب علىٰ كفِّ نفسه وحبسها عن مواقعة المنهي، وذلك الكفُّ والحبس أمرٌ وجوديٌّ هو متعلَّق الثواب. وأمَّا من لم يخطر بباله الذنبُ أصلًا، ولم يحدِّث به نفسَه، فهذا كيف يثاب علىٰ تركه؟ ولو أثيب مثلُ هذا علىٰ ترك هذا الذنب لكان مثابًا علىٰ ترك ذنوب العالَم التي لا تخطر بباله، وذلك أضعاف حسناته بما لا يحصىٰ، فإنَّ الترك مُسْتصحَب معه، والمتروك لا ينحصر ولا ينضبط، فهل يثاب علىٰ ذلك كلّه؟ هذا ممَّا لا يُتوهَّم. وإذا كانت الحسنة لا بدّ أن تكون أمرًا وجوديًا، فالتائب من الذنوب التي عملها قد قارن كلَّ ذنب منها ندمًا عليه، وكفَّ نفسِه عنه، وعزمَه علىٰ تركِ معاودته، وهذه حسنات بلا ريب، وقد محت التوبةُ أثرَ الذنب، وخلَفَه هذا الندم والعزمُ، وهو حسنةٌ، فقد بُدِّلت تلك السيّئةُ حسنةً. وهذا معنىٰ قول بعض المفسِّرين: «يجعل مكان السيّئة التوبة[1]، والحسنة مع التوبة». فإذا كانت كلُّ سيّئةٍ من سيّئاته قد تاب

(١) هو قول الزجاج، كما سبق.

منهـا، فتوبتـه منهـا حسـنةٌ حلَّـت مكانهـا، فهـذا معنـىٰ التبديـل، لا أنَّ السـيِّئة نفسَـها تنقلـب حسـنة. ولهـذا قـال بعـض المفسّـرين في هـذه الآيـة: «يعطيهـم بالنـدم علىٰ كلّ سيِّئة أساؤوها حسنة».

وعلىٰ هـذا فقـد زالَ بحمـد الله الإشـكالُ، واتَّضـح الصـوابُ، وظهـر أنَّ كلَّ واحـدة مـن الطائفتيـن مـا خرجـت عـن موجَـب العلـم والحجّـة.

وأمَّـا حديـث أبـي ذرّ -وإن كان التبديـل فيـه في حقِّ المصرِّ الـذي عُذِّب علىٰ سـيِّئاته- فهـو يـدلّ بطريق الأولىٰ علىٰ حصول التبديل للتائـب المقلع النادم علىٰ سـيِّئاته. فـإنَّ الذنـوب التـي عُذِّب عليهـا المصرُّ لمَّـا زال أثرُها بالعقوبـة بقيت كأن لـم تكـن، فأعطـاه الله مـكان كلّ سـيئة منهـا حسـنةً، لأنَّ ما حصلَ له يـوم القيامة من النـدم المفـرِط عليهـا مـع العقوبة اقتضـىٰ زوال أثرها وتبديلها حسـناتٍ؛ فإنَّ النَّدم لـم يكـن في وقـت ينفعـه، فلمَّـا عوقـب عليهـا وزال أثرُهـا بدَّلهـا الله لـه حسـناتٍ؛ فـزوالُ أثرهـا بالتوبـة النصـوح أعظـمُ مـن زوال أثرهـا بالعقوبـة، فـإذا بدلـت بعـد زوالـه بالعقوبـة حسـناتٍ، فـلأَنْ تُبَـدَّل بعـد زوالها بالتوبة حسـناتٍ أولـىٰ وأحرىٰ. وتأثيـر التوبـة في هـذا المحـو والتبديـل أقـوىٰ مـن تأثيـر العقوبـة، لأنَّ التوبـة فعـل اختيـاري أتـىٰ بـه العبـدُ طوعًـا ومحبَّـةً لله وفرَقًـا منه. وأمَّـا العقوبة فالتكفيـر بها من جنس التكفيـر بالمصائـب التـي تصيبـه بغيـر اختيـاره، بـل بفعـل الله، ولا ريـب أن تأثيـرَ الأفعـال الاختياريـة التـي يحبهـا الله ويرضاهـا في محو أثر الذنـوب أعظـمُ من تأثيـر المصائـب التـي تناله بغيـر اختياره.



فصل

الزهد علىٰ أربعة أقسام

الزهد علىٰ أربعة أقسام:

أحدها: فرض علىٰ كل مسلم، وهو الزهد في الحرام. وهذا متىٰ أخلَّ به انعقد سببُ العقاب، فلا بدَّ من وجود مسبَّبه، ما لم ينعقد سبب آخر يضادُّه.

الثاني: زهد مستحبٌّ، وهو علىٰ درجات في الاستحباب بحسب المزهود فيه. وهو الزهد في المكروه وفضول المباحات والتفُّنن في الشهوات المباحة.

الثالث: زهد الدَّاخلين في هذا الشأن، وهم المشمِّرون في السير إلىٰ الله. وهو نوعان:

أحدهما: الزهد في الدنيا جملةً، وليس المراد تخليتها من اليد ولا إخراجها وقعوده صِفْرًا منها، وإنَّما المراد إخراجها من قلبه بالكلّية، فلا يلتفت إليها، ولا يدعها تُساكِن قلبَه، وإن كانت في يده. فليس الزهدُ أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنَّما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك. وهذا كحال الخلفاء الرَّاشدين، وعمر بن عبد العزيز الذي يُضرب بزهده المثل، مع أنَّ خزائن الأموال تحت يده، بل كحال سيِّد ولد آدم ﷺ حين فُتِحَ عليه من الدنيا ما فُتِحَ، ولا يزيده ذلك إلا زهدًا فيها.

ومن هذا الأثر المشهور، وقد روي مرفوعًا وموقوفًا: «**ليس الزهدُ في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعةِ المال، ولكنَّ الزهدَ في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثقَ منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أُصِبْتَ بها أرغبَ منك فيها لو أنَّها بقيتْ لك**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٠)، وابن ماجه (٤١٠٠) مرفوعًا، وضعفه الترمذي=

والذي يصحّح هذا الزهد ثلاثةُ أشياء:

أحدها: علم العبد أنَّها ظلٌّ زائل، وخيالٌ زائر، وأنَّها كما قال تعالىٰ فيها: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وسمَّاها سبحانه: «متاع الغرور»، ونهىٰ عن الاغترار بها، وأخبرنا عن سوءِ عاقبة المغترِّين بها، وحذَّرنا مثل مصارعهم، وذمَّ من رضي بها واطمأنَّ إليها.

وقال النبيّ ﷺ: «**ما لي وللدنيا! إنَّما أن كراكبٍ قال في ظلّ شجرةٍ ثمَّ راحَ وتركَها**»(١).

وفي «المسند»(٢) عنه ﷺ حديث معناه: «أنَّ الله جعل طعام ابن آدم وما يخرج منه مثلًا للدنيا، فإنَّه وإن قزَحه(٣) وملَحه فلينظر إلىٰ ماذا يصير!».

= وأخرجه ابن أبي عاصم في «الزهد» (١٨) من قول أبي مسلم الخَولاني رحمه الله موقوفًا عليه.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وصححه الترمذي والحاكم (٧٨٥٨).

(٢) برقم (٢١٢٣٩) وهو من زوائد عبد الله، وصححه ابن حبان (٧٠٢).

(٣) قزح الطعام وقزّحه: تَوبَلَه، من «القِزح»، وهو التابل الذي يطرح في القدر كالكمُّون والكزبرة ونحو ذلك. «النهاية» (٤/ ٥٨).

فما اغترَّ بها ولا سكن إليها إلا ذو همَّة دنيّة، وعقلٍ حقير، وقدر خسيس!

الثاني: علمُه أنَّ وراءها دارًا أعظمَ منها قدرًا وأجلَّ خطرًا، وهي دار البقاء؛ وأنَّ نسبتها إليها كما قال النبيُّ ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يُدخِل أحدُكم إصبعَه في اليمّ، فلينظر بمَ ترجع؟**»[(١)]، فالزاهد فيها بمنزلة رجل في يده درهم زغَل قيل له: اطرحه ولك عوضُه مائةُ ألفِ دينارٍ مثلًا، فألقاه من يده رجاءَ ذلك العوض، فالزاهد فيها لكمال رغبته فيما هو أعظم منها زَهِد فيها.

الثالث: معرفته أنَّ زهدَه فيها لا يمنعه شيئًا كُتِبَ له منها، وأنَّ حرصه عليها لا يجلُب له ما لم يُقضَ له منها. فمتىٰ تيقَّن ذلك، وصار له علم اليقين، هان عليه الزهد فيها؛ فإنَّه متىٰ تيقَّن ذلك وثلَج له صدرُه وعلم أنَّ مضمونه منها سيأتيه بقي حرصُه وتعبه وكدُّه ضائعًا، والعاقل لا يرضىٰ لنفسه بذلك.

فهذه الأمور الثلاثة تُسهِّل علىٰ العبد الزهدَ فيها، وتُثبِّت قدمَه في مقامه. والله الموفّق لمن يشاء.

النوع الثاني: الزهد في نفسك، وهو أصعب الأقسام وأشقّها، وأكثر الزاهدين إنَّما وصلوا إليه ولم يلِجوه، فإنَّ الزاهد يسهِّل عليه الزهدَ في الحرام سوءُ مغبَّته وقبحُ ثمرته، وحمايةً لدينه، وصيانةً لإيمانه، وإيثارًا للَّذةِ والنعيم علىٰ العذاب، وأنفةً من مشاركة الفساق والفجرة، وحميَّةً من أن يستأسرَ لعدوِّه. ويسهِّل عليه الزهدَ في المكروهاتِ وفضولِ المباحات علمُه بما يفوته بإيثارها من اللذّة والسرور الدائم والنعيم المقيم. ويسهّل عليه زهدَه في الدنيا معرفتُه بما وراءها وما يطلبه من العوض التامّ والمطلب الأعلىٰ. وأمَّا الزهد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨).

في النفس فهو ذبحها بغير سكِّين، وهو نوعان:

أحدهما وسيلة وبداية. وهو أن تُميتَها، فلا تُبقيَ لها عندك من القدر شيئًا، فلا تغضب لها، ولا ترضىٰ لها، ولا تنتصر لها، ولا تنتقم لها. قد سبَّلتَ عِرضَها ليوم فقرها وفاقتها، فهي أهوَنُ عليك من أن تنتصر لها، أو تنتقم لها، أو تجيبَها إذا دعتك، أو تكرمَها إذا عصَتْك، أو تغضبَ لها إذا ذُمَّتْ، بل هي عندك أنجسُ ممَّا قيلَ فيها، أو ترفِّهَها عمَّا فيه حظُّك وفلاحُك وإن كان صعبًا عليها.

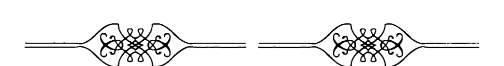
وهذا وإن كان ذبحًا لها وإماتةً عن طباعها وأخلاقها، فهو عينُ حياتها وصحَّتها، ولا حياة لها بدون هذا البتَّة. وهذه العَقَبة هي آخر عقبةٍ يُشرِف منها علىٰ منازل المقرّبين، وينحدر منها إلىٰ وادي البقاء، ويشرب من عين الحياة، وتخلص روحُه من سجون المحن والبلاء وأسر الشهوات، وتتعلَّق بربِّها ومعبودها ومولاها الحق. فيا قرَّةَ عينها به! ويا نعيمَها وسرورَها بقربه! ويا بهجتَها بالخلاص من عدوِّها، ومصيرها إلىٰ وليّها ومولاها ومالك أمرها ومتولِّي مصالحها!

وهذا الزهد هو أوَّل نَقْدةٍ من مَهر الحبّ، فيا مفلسُ تأَخَّرْ!

والنوع الثاني: غاية وكمال. وهو أن تَبذُلَها للمحبوب جملةً بحيث لا تستبقي منها شيئًا، بل تزهد فيها زهدَ المحبّ في قدرٍ خسيس من ماله، قد تعلَّقت رغبةُ محبوبه به، فهل يجد من قلبه رغبةً في إمساك ذلك القدر وحبسه عن محبوبه؟ فهكذا زهد المحبّ الصادق في نفسه، قد خرج عنها، وسلَّمها لربّه، فهو يبذلها له دائمًا يتعرّض منه لقبولها.

وجميع مراتب الزهد المتقدّمة مَبادٍ ووسائلُ لهذه المرتبة، ولكن لا يصحُّ

إلا بتلك المراتب. فمن رامَ الوصول إلىٰ هذه المرتبة بدون ما قبلها فمُتَعنٍّ مُتَمنٍّ، كمن رام الصعود إلىٰ أعلىٰ المنارة بلا سلَّم، كما قال بعض السلف: «إنَّما حُرموا الوصول بتضييع الأصول»[1]، فمَن ضيَّع الأصولَ مُنِعَ الوصول.



(١) قاله محمد بن أبي الورد (ت٢٦٣هـ)، كما في «الحلية» (١٠/ ٣٣٦).

٢/ ٥٥٥

فصل



في التوكّل

التوكّلُ مصاحبٌ للصادق من أوَّل قدم يضعه في الطريق إلىٰ نهايته، وكلَّما ازداد قربُه وقوِي سيرُه ازداد توكّله. فالتوكّل مَركَبُ السائر الذي لا يتأتّىٰ له السيرُ إلا به، ومتىٰ نزل عنه انقطع لوقته.

وهو من لوازم الإيمان ومقتضياته. قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. فجعل التوكّل شرطًا في الإيمان، فدلَّ علىٰ انتفاءِ الإيمان عند انتفاء التوكّل. وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] فجعل دليلَ صحَّة الإسلام التوكّل. وقال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، فذِكرُ اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليلٌ علىٰ استدعاءِ الإيمان للتوكّل، وأنَّ قوَّة التوكّل وضعفه بحسب قوَّة الإيمان وضعفه. فكلَّما قوي إيمانُ العبد كان توكّله أقوىٰ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكّل، وإذا كان التوكّل ضعيفًا فهو دليل علىٰ ضعف الإيمان ولا بدّ.

والله تعالىٰ يجمع بين التوكّل والعبادة، وبين التوكّل والإيمان، وبين التوكّل والتقوىٰ، وبين التوكّل والإسلام، وبين التوكّل والهداية.

فأمَّا التوكّل والعبادة، فقد جمع سبحانه بينهما في سبعة مواضع من كتابه:

أحدها: في سورة أمّ القرآن فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

الثاني: قوله حكايةً عن نبيّه شعيب ﷺ أنَّه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنَّهم قالوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

الرابع: قوله تعالىٰ لنبيّه محمّد ﷺ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨-٩].

الخامس: قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

السادس: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

السابع: قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهذه السبعُ مواضع جمعت الأصلين: التوكّل وهو الوسيلة، والإنابة وهي الغاية؛ فإنَّ العبد لا بدَّ له من غايةٍ مطلوبة، ووسيلةٍ مُوصِلة إلىٰ تلك الغاية. فأشرفُ غاياته التي لا غاية له أجلّ منها عبادةُ ربِّه والإنابة إليه، وأعظمُ وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتّة التوكّلُ علىٰ الله والاستعانة به، ولا سبيل له إلىٰ هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة. فهذه أشرف الغايات، وتلك أشرف الوسائل.

وأمَّا الجمع بين الإيمان والتوكّل، ففي مثل قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]. ونظيره قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وأمَّا الجمع بين التوكّل والإسلام، ففي قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وأمَّا الجمعُ بين التقوىٰ والتوكّل، ففي مثل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [الأحزاب: ١- ٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢- ٣].

وأمَّا الجمع بين التوكّل والهداية، ففي مثل قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لقومهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]. وقال ﷻ لنبيّه ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، فأمر سبحانه رسولَه بالتوكّل عليه، وعقَّب هذا الأمر بما هو موجِبٌ للتوكّل، مصحِّحٌ له، مستدعٍ لثبوته وتحقّقه، وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾. فإنَّ كونَ العبد علىٰ الحقِّ يقتضي تحقيق مقام التوكّل علىٰ الله، والاكتفاء به، والإيواء إلىٰ ركنه الشديد. فإنَّ الله هو الحقّ، وهو وليّ الحقّ وناصره ومؤيّده، وكافي من قام به؛ فما لصاحب الحقّ أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو علىٰ الحقّ؟ كما قالت الرسل لقومهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، فعجبوا من تركهم التوكّلَ علىٰ الله وقد هداهم، وأخبروا أنَّ ذلك لا يكون أبدًا. وهذا دليل علىٰ أنَّ الهداية والتوكّل متلازمان.

فصاحبُ الحقِّ -لعلمه بالحقّ ولِثقته بأنَّ الله وليّ الحق وناصرُه- مضطرٌّ إلىٰ توكّله علىٰ الله، لا يجد بدًّا من توكّله. فإنَّ التوكّل يجمع أصلين: علم القلب وعمله. أمَّا علمه: فيقينه بكفايةِ وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأنَّ

غيره لا يقوم مقامه في ذلك. وأمَّا عمله، فسكونه إلىٰ وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرُّفه له فوق رضاه بتصرُّفه هو لنفسه. فبهذين الأصلين يتحقّق التوكّل، وهما جِماعه، وإن كان التوكّل أدخلَ في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: «التوكّل عمل القلب»[١]؛ ولكن لا بدَّ فيه من العلم، وهو إمَّا شرط فيه، وإمَّا جزءٌ من ماهيّته.

والمقصود أنَّ القلب متىٰ كان علىٰ الحقِّ كان أعظمَ لطمأنينته، ووثوقه بأنَّ الله وليّه وناصره، وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكّل علىٰ ربِّه؟ وإذا كان علىٰ الباطل علمًا وعملًا أو أحدهما لم يكن مطمئنًّا واثقًا بربِّه، فإنَّه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده؛ فإنَّ الله سبحانه لا يتولّىٰ الباطل ولا ينصره، ولا يُنسب إليه بوجه، فهو منقطع النسبة إليه بالكليَّة. فإنَّه سبحانه هو الحق، وقوله الحقّ، ودينه الحقّ، ووعده حقّ، ولقاؤه حقّ، وفعله كلّه حقّ. ليس في أفعاله شيء باطل، بل أفعاله بريئة من الباطل، كما أقواله سبحانه كذلك. فلمَّا كان الباطل لا يتعلّق به سبحانه، بل هو مقطوع عنه البتّة، كان صاحبه كذلك. ومن لم يكن له تعلّق بالله، وكان منقطعًا عن ربّه، لم يكن اللهُ وليَّه ولا ناصرَه ولا وكيله.

فتدبَّر هذا السرَّ العظيم في اقتران التوكّل والكفاية بالحقّ والهدىٰ، وارتباط أحدهما بالآخر. ولو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السَّرِيَّة[٢] لكانت حقيقةً أن تودَع في خزانة القلب؛ لشدَّة الحاجة إليها. والله المستعان وعليه التكلان.

فظهر أنَّ التوكّل أصلٌ لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال

---

(١) قائله الجنيد كما في «الرسالة القشيرية» (٤٧).

(٢) أي: الشريفة الجليلة.

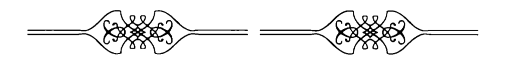
الإسلام، وأنَّ منزلته منها منزلةُ الجسد من الرأس. فكما لا يقوم الرأس إلا علىٰ البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا علىٰ ساق التوكّل. والله أعلم.

التوكل علىٰ الله نوعان

التوكّل علىٰ الله نوعان: أحدهما: توكّلٌ عليه في تحصيل حظّ العبد من الرزق والعافية وغيرها. والثاني: توكّلٌ عليه في حصول مرضاته سبحانه.

فأمَّا النوع الأول فغايته المطلوبة وإن لم تكن عبادةً -لأنَّها محض حظّ العبد- فالتوكّل علىٰ الله في حصوله عبادةٌ، فهو منشأٌ لمصلحة دينه ودنياه.

والنوع الثاني فغايته عبادة، وهو في نفسه عبادة.



٢/ ٥٧٥

فصل



في الصبر

الصبر نصف الدين، فإنَّ الإيمان نصفان: نصفٌ صبر، ونصف شكرٌ. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٩] وقال النبيُّ ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له: إن أصابَتْه سرَّاءُ شكرَ فكان خيرًا له، إن أصابته ضرَّاءُ صبرَ فكان خيرًا له. وليس ذلك إلا للمؤمن**»[1]. فمنازل الإيمان كلُّها بين الصبر والشكر. والذي يوضِّح هذا:

أنَّ العبد لا يخلو قطُّ من أن يكون في نعمة أو بليَّة. فإن كان في نعمة ففرضُها الشكر والصبر. أمَّا الشكر فهو قيدها وثباتها والكفيلُ بمزيدها. وأمَّا الصبر فعن مباشرة الأسباب التي تسلُبها، وعلىٰ القيام بالأسباب التي تحفظُها؛ فهو أحوجُ إلىٰ الصبرِ فيها من حاجة المبتلىٰ.

ومن هنا يعلم سرُّ مسألة الغنيّ الشاكر والفقير الصابر وأنَّ كلًّا منهما محتاج إلىٰ الشكر والصبر، وأنَّه قد يكون صبرُ الغنيّ أكملَ من صبر الفقير، كما قد يكون شكرُ الفقير أكمل من شكر الغنيّ، فليس التفضيل بينهما بالغنىٰ والفقر، وإنَّما هو بالأعمال. فأفضلهما أعظمُهما شكرًا وصبرًا، فإن فضل أحدُهما في ذلك فضل صاحبُه. فالشكر مستلزم للصبر لا يتمُّ إلا به. والصبر مستلزم للشكر لا يتمُّ إلا به. فمتىٰ ذهب الشكر ذهب الصبر، ومتىٰ ذهب الصبر ذهب الشكر.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

وإن كان في بليَّة ففرضها الصبر والشكر أيضًا. أمَّا الصبر فظاهر، وأمَّا الشكر فللقيام بحقّ الله عليه في تلك البليَّة. فإنَّ لله علىٰ العبد عبوديّةً في البلاء، كما له عليه عبوديةٌ في النعماءِ، وعليه أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا، فعُلِمَ أنَّه لا انفكاك له عن الصبر، ما دام سائرًا إلىٰ الله.

والصبر ثلاثة أقسام: إمَّا صبرٌ عن المعصية فلا يرتكبها، وإمَّا صبرٌ علىٰ الطاعة حتَّىٰ يؤدّيها، وإمَّا صبرٌ علىٰ البليَّة فلا يشكو ربَّه فيها. وإذا كان العبدُ لا بدَّ له من واحد من هذه الثلاث، فالصبر لازم له أبدًا، لا خروجَ له عنه البتة.

والله تعالىٰ ذكر الصبر في كتابه في نحو تسعين موضعًا، فمرَّةً أمر به، ومرَّةً أثنىٰ علىٰ أهله، ومرَّةً أمر نبيَّه ﷺ أن يبشّرهم، ومرَّةً جعله شرطًا في حصول النصر والكفاية، ومرَّةً أخبر أنَّه مع أهله.

وأثنىٰ به علىٰ صفوته من العالمين، وهم أنبياؤه ورسله، فقال عن نبيّه أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وقال تعالىٰ لخاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال يوسف الصديق عليه السلام وقد قال له إخوته: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الصبر من أجلّ مقامات الإيمان، وأنَّ أخصَّ النَّاس بالله وأولاهم به أشدُّهم قيامًا وتحقّقًا به.

والصبر سبب في حصول كلّ كمال ممكن، فأكملُ الخلقِ أصبرُهم، ولم يتخلَّف عن أحدٍ كمالُه الممكن إلا من ضعف صبره. فإنَّ كمال العبدِ بالعزيمة

والثبات، فمن لم تكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص. فإذا انضمَّ الثبات إلىٰ العزيمة أثمرَ كلَّ مقامٍ شريفٍ وحالٍ كاملٍ، ولهذا في دعاء النبيّ ﷺ الذي رواه الإمام أحمد وابن حبَّان في «صحيحه»[1]: «**اللّهمّ إنِّي أسألك الثباتَ في الأمر والعزيمةَ علىٰ الرشد**». ومعلوم أنَّ شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا علىٰ ساق الصبر، فلو عَلِم العبدُ الكنزَ الذي تحت هذه الأحرف الثلاثة -أعني اسم «الصبر»- لما تخلَّف عنه. قال النبيُّ ﷺ: «**ما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصبر**»[2]. وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: «خيرُ عيشٍ أدركناه بالصبر»[3]. وفي مثل هذا قال القائل:

نَزِّهْ فؤادَكَ عن سوانا وَالْقَنا فجنابُنا حِلٌّ لِكلِّ منزِّهِ
والصبرُ طِلَّسْمٌ لكنزِ وصالنا مَن حَلَّ ذا الطِّلَّسْمَ فاز بكنزِه[4]

فالصبر طلَّسم علىٰ كنز السعادة، مَن حلّه ظفِر بالكنز.

واختلف النَّاس أيُّ الصبرَين أعلىٰ وأفضل: الصبر له أو به؟ فقالت طائفة منهم صاحبُ كتاب «منازل السائرين»: «وأضعفُ الصبرِ الصبرُ لله، وهو صبر العامة. وفوقه الصبر بالله، وهو صبر المريد، وفوقهما الصبر علىٰ الله، وهو صبر السالك»[5].

ووجه هذا القول أنَّ الصبر لله هو صبر العابد الذي يُصبِّر نفسَه لأمر الله

(١) أحمد (١٧١٤٤)، وابن حبان (٩٣٥)، وأخرجه أيضا الترمذي (٣٤٠٧).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).
(٣) أخرجه البخاري تعليقا في كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله.
(٤) الطلّسم: السر المكتوم، وقد كثر استعماله في كلام الصوفية. وأصله لفظ يوناني لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز.
(٥) «منازل السائرين» (٣٩).

طالبًا لمرضاته وثوابه، فهو صابر علىٰ العمل، صابر عن المحرمات. وأمَّا الصبر به فهو تبرّؤٌ من الحول والقوَّة، وإضافةُ ذلك إلىٰ الله عزَّ وجلّ وهو صبر المريد. وأمَّا الصبرُ علىٰ الله فصبر السالك علىٰ ما تجيء به أقداره وأحكامه.

والصواب أنَّ الصبرَ لله أكملُ من الصبر به، فإنَّ الصبر له متعلّق بإلهيَّته ومحبّته، والصبر به متعلّق بربوبيته ومشيئته. وما له أكملُ ممَّا هو به، فإنَّ ما هو له هو الغاية، وما به هو الوسيلة، فالصبر به وسيلة، والصبر له غاية، وبينهما من التفاوت ما بين الغايات والوسائل.

وأيضًا فإنَّ الصبر له متعلق بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، والصبر به متعلّق بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وهاتان الكلمتان منقسمتان بين العبد وبين الله، كما ثبت عن النبيّ ﷺ فيما يروي عن ربه[1]. و«إياك نعبد» هي التي لله، و«إياك نستعين» هي التي للعبد؛ وما لله أكمل ممَّا للعبد، فما تعلَّق بما هو له أفضل مما تعلق بما هو للعبد.

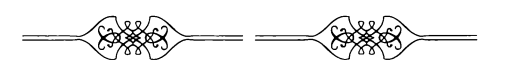
وأيضًا فالصبر له مصدره المحبة، والصبر به مصدره الاستعانة، والمحبّة أكمل من الاستعانة.

وأمَّا الصبر علىٰ الله سبحانه فهو الصبر علىٰ أحكامه الدينية والكونية. فهو يرجع إلىٰ الصبر علىٰ أوامره، والصبر علىٰ ابتلائه، فليس في الحقيقة قسمًا ثالثًا، والله أعلم.

فقد تبيَّن أنَّ الصبر بجميع أقسامه أصل مقامات الإيمان، وهو أصل لكمال العبد الذي لا كمال له بدونه. ولا يذَمُّ منه إلا قسم واحد، وهو الصبر

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥).

عن الله سبحانه فإنَّه صبر المعرضين المحجوبين. فالصبرُ عن المحبوب أقبح شيء وأسوَؤُه، وهو الذي يُسقط المحبَّ من عين محبوبه، فإنَّ المحبّ كلما كان أكمل محبَّةً كان صبره عن محبوبه متعذّرًا.



قاعدة

الأمور التي تعين علىٰ الصبر عن المعصية

الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: علمُ العبد بقبحها ورذالتها ودناءَتها، وأنَّ الله إنّما حرَّمها ونهىٰ عنها صيانةً وحمايةً عن الدنايا والرذائل، كما يحمي الوالدُ الشفيقُ ولدَه عما يضرّه. وهذا السبب يحمل العاقلَ علىٰ تركها، ولو لم يعلَّق عليها وعيدٌ بالعذاب.

السبب الثاني: الحياءُ من الله عزّ وجلّ، فإنّ العبد متىٰ علم بنظره إليه ومقامه عليه وأنّه بمرأىٰ منه ومستَمَع، وكان حَيًّا حَيِيًّا، استحيا من ربّه أن يتعرّض لمساخطه.

السبب الثالث: مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك، فإنَّ الذنوب تزيل النعمَ ولا بدّ. فما أذنبَ عبدٌ ذنبًا إلّا زالت عنه نعمةٌ من الله بحسب ذلك الذنب. فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلُها، وإن أصرَّ لم ترجع إليه. ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمةً نعمةً حتّىٰ يُسلَبَ النعمَ كلّها، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وأعظم النعم الإيمان، وذنبُ الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة تزيلها وتسلبها.

وقال بعض السلف: «أذنبتُ ذنبًا فحُرِمتُ قيامَ الليل سنةً». وقال آخر: «أذنبتُ ذنبًا فحُرِمتُ فهمَ القرآن». وفي هذا قيل:

إذا كنتَ في نعمةٍ فارْعَها ... فإنّ المعاصي تُزيل النِّعَمْ

وبالجملة فإنَّ المعاصي نارُ النعم تأكلها، كما تأكل النارُ الحطبَ، عياذًا بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته.

السبب الرابع: خوف الله وخشية عقابه. وهذا إنَّما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده، والإيمان به وبكتابه وبرسوله. وهذا السبب يقوىٰ بالعلم واليقين، ويضعف بضعفهما. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقال بعض السلف: «كفىٰ بخشية الله علمًا، وبالاغترار بالله جهلًا»[(١)].

السبب الخامس: محبة الله سبحانه، وهي من أقوىٰ الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه. فإنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيع، وكلّما قوي سلطانُ المحبّة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وتركِ المخالفة أقوىٰ، وإنّما تصدر المعصية والمخالفة مِن ضعف المحبّة وسلطانها. وفَرْقٌ بين من يحمله علىٰ ترك معصية سيِّده خوفُه من سوطه وعقوبته، وبين من يحمله علىٰ ذلك حبُّه لسيّده. وفي هذا قال عمر رضي الله عنه: «نعم العبد صهيب، لو لم يخَفِ اللهَ لم يعصِه»[(٢)]، يعني: أنَّه لو لم يخف من الله لكان في قلبه من محبّة الله وإجلاله ما يمنعه من معصيته. فالمحبُّ الصادق عليه رقيبٌ من محبوبه يرعىٰ قلبه وجوارحه، وعلامة صدق المحبّة شهودُ هذا الرقيب ودوامه.

وهاهنا لطيفة يجب التنبه لها، وهي أنَّ المحبة المجرَّدة لا توجب هذا الأثَر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه، فإذا قارنها الإجلالُ والتعظيمُ أوجبت هذا الحياءَ والطاعة، وإلّا فالمحبةُ الخالية عنهما إنَّما توجب نوعَ أُنس وانبساط وتذكّر واشتياق، ولهذا يتخلّف عنها أثرها وموجَبها. ويفتّش العبد قلبَه فيرىٰ نوع محبّةٍ لله، ولكن لا تحمله علىٰ ترك معاصيه، وسبب ذلك تجرُّدُها عن الإجلال

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤٦) من قول ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) أثر مشهور، ولكن لم يوقَف له علىٰ أصل. انظر: «المقاصد الحسنة» (٥٢٦).

والتعظيم. فما عَمَر القلبَ شيءٌ كالمحبّة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه، وتلك من أفضل مواهب الله لعبده أو أفضلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

السبب السادس: شرفُ النفس وزكاؤها وفضلُها وأَنَفتُها وحميَّتُها أن تختار الأسباب التي تحطُّها وتضع قدرها، وتخفض منزلتها وتُحقِّرها، وتسوِّي بينها وبين السَّفِلة.

السبب السابع: قوة العلم بسوءِ عاقبة المعصية، وقبحِ أثرها، والضررِ الناشئ منها: من سواد الوجه، وظلمة القلب، وضيقه وغمِّه، وحزنه وألمه، وانحصاره، وشدّة قلقه واضطرابه، وتمزُّق شمله، وضعفه عن مقاومة عدوه، وتعرِّيه من زينته بالثوب الذي جمَّله الله وزيَّنه به، والعصرة التي تناله، والقسوة والحيرة في أمره، وتخلِّي وليِّه وناصره عنه، وتولِّي عدوِّه المبين له، وتواري العلم الذي كان مستعدًّا له عنه، ونسيان ما كان حاصلًا له أو ضعفه ولا بدّ، ومرضه الذي إذا استحكم به فهو الموت ولا بدّ، فإنّ الذنوب تميت القلوب.

ومنها: زوال الطمأنينةِ بالله والسكون إليه والإيواءِ عنده، واستبدال الطرد والبعد منه.

ومنها: وقوعه في بئر الحسرات. فلا يزال في حسرة دائمة، كلَّما نال لذَّةً نازعَتْه نفسُه إلىٰ نظيرها إن لم يقضِ منها وطرًا، أو إلىٰ غيرها إن قضىٰ وطره منها، وما يعجِز عنه من ذلك أضعافُ أضعافِ ما يقدر عليه، وكلَّما اشتدَّ نزوعُه وعرف عجزَه اشتدَّت حسرته وحزنه. فيا لها نارًا قد عُذِّبَ بها القلبُ في هذه الدار قبل نار الله الموقَدة التي تطّلع علىٰ الأفئدة!

ومنها: ضياع أعزِّ الأشياء عليه وأنفَسِها وأغلاها، وهو الوقت الذي لا عوض منه، ولا يعود إليه أبدًا.

ومنها: طمعُ عدوّه فيه، وظفرُه به. فإنَّه إذا رآه منقادًا له مستجيبًا لما يأمره به اشتدَّ طمعُه فيه، وحدَّث نفسه بالظفر به وجَعْلِه من حزبه، حتَّىٰ يصير هو وليّه دن مولاه الحقّ.

ومنها: الطبع والرّيْن علىٰ قلبه. فإنَّ العبد إذا أذنب نُكِتَ في قلبه نكتةٌ سوداءُ، فإن تاب منها صُقِلَ قلبُه؛ وإن أذنب ذنبًا آخر نُكِتَ فيه نكتةٌ أخرىٰ، ولا تزال حتّىٰ تعلو قلبَه؛ فذلك هو الران. قال تعالىٰ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤].

ومنها: أنَّه يُحرَم حلاوةَ الطاعة، فإذا فعلها لم يجد أثرها في قلبه من الحلاوة والقوَّة ومزيد الإيمان والعقل والرغبة في الآخرة، فإنَّ الطاعة تثمر هذه الثمرات ولا بدَّ.

ومنها: أنَّها تمنع قلبَه من ترحُّله من الدنيا ونزوله بساحة القيامة. فإنَّ القلب لا يزال مشتَّتًا مضيّعًا حتَّىٰ يرحل من الدنيا وينزل في الآخرة، فإذا نزل فيها أقبلت إليه وفودُ التوفيق والعناية من كلِّ جهة، واجتمع علىٰ جمع أطرافه وقضاءِ جَهازه وتعبئة زاده ليوم معاده. وما لم يترحَّلْ إلىٰ الآخرة ويحضُرْها فالتعبُ والعناءُ والتشتّت والكسل والبطالة لازمةٌ له لا محالة.

ومنها: إعراض الله وملائكته وعباده عنه. فإنَّ العبد إذا أعرض عن طاعة الله واشتغل بمعاصيه أعرض الله عنه، فأعرضت عنه ملائكته وعبادهُ؛ كما أنَّه إذا أقبل علىٰ الله أقبل الله عليه وأقبل بقلوب خلقه إليه.

ومنها: أنَّ الذنبَ يستدعي ذنبًا آخر، ثمَّ يقوىٰ أحدُهما بالآخر، فيستدعيان ثالثًا، ثمَّ تجتمع الثلاثة، فتستدعي رابعًا، وهلّم جرًّا، حتَّىٰ تغمره ذنوبه،

وتحيط به خطيئته. قال بعض السلف: «إنَّ من ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها، ومن عقوبة السيِّئةِ السيئةَ بعدها»(١).

ومنها: علمُه بفوات ما هو أحبُّ إليه وخيرٌ له منها من جنسها وغير جنسها. فإنَّه لا يجمع الله لعبده بين لذَّة المحرَّمات في الدنيا ولذَّة ما في الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]. فالمؤمن لا يُذهِبُ طيّباته في الدنيا، بل لا بدَّ أن يترك بعضَ طيِّباته للآخرة. وأمَّا الكافر فلأنَّه لا يؤمن بالآخرة، فهو حريص علىٰ تناول حظوظه كلّها وطيّباته في الدنيا.

ومنها: علمه بأنَّ أعماله هي زاده ووسيلته إلىٰ دار إقامته. فإنْ تزوَّد من معصية الله أوصله ذلك الزادُ إلىٰ دار العصاة والجناة. وإن تزود من طاعته وصل إلىٰ دار أهل طاعته وولايته.

ومنها: علمه بأنَّ عملَه هو وليُّه في قبره وأنيسُه فيه، وشفيعُه عند ربه، والمخاصم والمحاجّ عنه؛ فإن شاء جعله له، وإن شاءَ جعله عليه.

وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثرُ من أن يحيط بها العبد علمًا، وآثارُ الطاعة الحسنة أكثرُ من أن يحيط بها علمًا. فخير الدنيا والآخرة بحذافيره في طاعة الله، وشرُّ الدنيا والآخرة بحذافيره في معصيته. وفي بعض الآثار يقول الله تعالىٰ: «من ذا الذي أطاعني، فشقِيَ بطاعتي؟ ومن ذا الذي عصاني، فسعدَ بمعصيتي؟»(٢).

---

(١) نسبه ابن تيمية إلىٰ سعيد بن جبير. انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ١١).

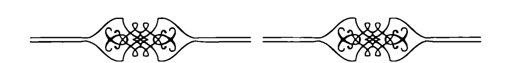
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٩٢) عن وهب بن منبّه رحمه الله فيما نقله من أخبار بعض أنبياء بني إسرائيل.

السبب الثامن: قِصَر الأمل، وعلمُه بسرعة انتقاله، وأنَّه كمسافر دخلَ قريةً وهو مُزمِعٌ علىٰ الخروج منها، أو كراكب قال في ظلّ شجرة ثمَّ سار وتركها، فهو لعلمه بقلَّة مقامه وسرعة انتقاله حريص علىٰ ترك ما يُثقِلُه حملُه ويضرّه ولا ينفعه، حريص علىٰ الانتقال بخير ما بحضرته. فليس للقلب أنفعُ من قِصَر الأمل، ولا أضرُّ من التسويف وطول الأمل.

السبب التاسع: مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس. فإنَّ قوَّة الداعي إلىٰ المعاصي إنَّما تنشأ من هذه الفضلات، فإنَّها تطلب لها مصرفًا، فيضيق عليها المباحُ، فتتعدَّاه إلىٰ الحرام. ومن أعظم الأشياء ضررًا علىٰ العبد بطالتُه وفراغُه، فإنَّ النَّفس لا تقعد فارغة، بل إن لم يَشغَلْها بما ينفعها شَغَلَتْه بما يضرُّه ولا بدّ.

السبب العاشر: وهو الجامع لهذه الأسباب كلّها، وهو: ثبات شجرة الإيمان في القلب. فصبر العبد عن المعاصي إنَّما هو بحسب قوَّة إيمانه، فكلَّما كان إيمانه أقوىٰ كان صبره أتمَّ، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر. فإنَّ مَن باشر قلبَه الإيمانُ بقيام الله عليه، ورؤيته له، وتحريمه لما حرَّم عليه، وبغضه له، ومقتِه لفاعله؛ وباشر قلبَه الإيمانُ بالثواب والعقاب والجنَّة والنَّار= امتنع منه أن لا يعمل بموجَب هذا العلم. ومن ظنَّ أنَّه يقوىٰ علىٰ ترك المخالفات والمعاصي بدون الإيمان الرَّاسخ الثابت، فقد غلط. فإذا قوي سراجُ الإيمان في القلب، وأضاءَت جهاته كلها به، وأشرقَ نورُه في أرجائه؛ سرىٰ ذلك النور إلىٰ الأعضاء، وانبعث إليها، فأسرعت الإجابة لداعي الإيمان، وانقادت له طائعةً مذلَّلةً غيرَ متثاقلةٍ ولا كارهة، بل

تفرح بدعوته حين يدعوها، كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه المحسن إليه إلىٰ محلّ كرامته. فهو كلَّ وقت يرقب داعيه، ويتأهَّب لموافاته. والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



فصل

أيهما أفضل: الصبر على الطاعة أم عن المعصية

والصبر على الطاعة ينشأ من معرفة هذه الأسباب ومن معرفة ما تجلبه الطاعةُ من العواقب الحميدة والآثار الجميلة. ومن أقوى أسبابها الإيمانُ والمحبَّة، فكلَّما قوي داعي الإيمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه.

وهاهنا مسألة تكلَّم فيها النَّاس، وهي: أيّ الصبرين أفضل: صبرُ العبد عن المعصية، أم صبرُه على الطاعة؟

فطائفة رجَّحت الأوَّل، وقالت: الصبر عن المعصية من وظائف الصدِّيقين، كما قال بعض السلف: «أعمال البرّ يفعلها البرّ والفاجر، ولا يقوى على ترك المعاصي إلا صدِّيق»[1].

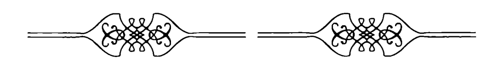
قالوا: ولأنَّ داعي المعصية أشدّ من دواعي ترك الطاعة، فإنَّ داعي المعصية داعٍ إلى أمر وجوديّ تشتهيه النفس وتلتذّ به، والداعي إلى ترك الطاعة الكسل والبطالة والمهانة، ولا ريبَ أنَّ داعي المعصية أقوى.

قالوا: ولأنَّ العصيان قد اجتمع عليه داعي النفس والشيطان والهوى، وأسبابُ الدنيا، وقرناءُ الرجل، وطلب التشبه والمحاكاة، وميل الطبع. وكلّ واحد من هذه الدواعي يجذب العبد إلى المعصية، ويطلب أثره؛ فكيف إذا اجتمعت وتظاهرت على القلب؟ فأيُّ صبر أقوى من صبره عن إجابتها؟ ولولا أنَّ الله يُصبّره لما تأتَّى منه الصبر. وهذا القول -كما ترى- حجَّته في غاية الظهور.

(١) من كلام سهل بن عبد الله التستري كما في «طبقات الصوفية» (٢٠٩).

ورجَّحت طائفةٌ الصبرَ علىٰ الطاعة بناءً منها علىٰ أنَّ فعل المأمورات أفضل من ترك المنهيّات، واحتجَّت علىٰ ذلك بنحو من عشرين حُجَّة. ولا ريب أنَّ فعل المأمورات إنَّما يتمُّ بالصبر عليها، فإذا كان فعلها أفضل كان الصبر عليها أفضل.

وفصل النزاع في ذلك أنَّ هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية، فالصبر علىٰ الطاعة العظيمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنيَّة، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر علىٰ الطاعة الصغيرة، فصبرُ العبد علىٰ الجهاد مثلًا أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره علىٰ صلاة الضحىٰ وصوم يوم تطوعًا ونحوه، فهذا فصل النزاع في المسألة. والله أعلم.



فصل

الأمور التي تعين في الصبر علىٰ البلاء

والصبر علىٰ البلاءِ ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: شهود جزائها وثوابها.

الثاني: شهود تكفيرها للسّيئات ومحوها لها.

الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها، وأنَّها مقدَّرة في أمّ الكتاب قبل أن تخلق، فلا بدَّ منها؛ فجزعه لا يزيده إلا بلاءً.

الرابع: شهوده حقَّ الله عليه في تلك البلوىٰ، وواجبه فيها، وهو الصبرُ بلا خلاف بين الأمّة، أو الصبر والرضا علىٰ أحد القولين. فهو مأمورٌ بأداء حقِّ الله وعبوديته عليه في تلك البلوىٰ، فلا بدَّ له منه، وإلا تضاعفت عليه.

الخامس: شهود ترتُّبها عليه بذنبه، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

وهذا عامٌّ في كلّ مصيبة دقيقة وجليلة، فيَشْغَله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في رفع تلك المصيبة. قال عليّ بن أبي طالب ﷺ: «ما نزل بلاءُ إلّا بذنب، ولا رُفِع بلاءٌ إلّا بتوبة»[1].

السادس: أن يعلم أنَّ الله قد ارتضاها له واختارها وقسَمها، وأنّ العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيّدُه ومولاه. فإن لم يُوفِ هذا المقام حقَّه، فهو لضعفه؛ فلينزل إلىٰ مقام الصبر عليها. فإن نزل عنه نزل إلىٰ مقام الظلم وتعدّي الحق.

(١) روي ذلك من قول العبَّاس بن عبد المطلب ﷺ، أخرجه الدِّينَوَري في «المجالسة وجواهر العلم» (٧٢٧).

السابع: أن يعلم أنَّ هذه المصيبة هي دواءٌ نافع ساقه إليه الطبيبُ العليمُ بمصلحته الرحيمُ به، فليصبرْ علىٰ تجرُّعه، ولا يتقيّأْه بتسخُّطه وشكواه، فيذهبَ نفعه باطلًا.

الثامن: أن يعلم أنَّ في عُقبىٰ هذا الدواءِ من الشفاءِ والعافية والصحّة وزوال الألم ما لا يحصل بدونه. فإذا طالعَتْ نفسُه كراهية هذا الدواءِ ومرارته فلينظر إلىٰ عاقبته وحسن تأثيره. قال الله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وقال: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩]. وفي مثل هذا القائل:

لعلَ عتبَك محمودٌ عواقبُه ... وربّما صحّت الأجسامُ بالعِلَلِ[1]

التاسع: أن يعلم أنَّ المصيبة ما جاءَت لِتُهلِكَه وتقتلَه، وإنَّما جاءَت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبيَّنُ حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟ فإن ثبت اصطفاه واجتباه، وخلع عليه خِلَعَ الإكرام، وألبسه ملابس الفضل، وجعل أولياءَه وحزبه خدَمًا له وعونًا له. وإن انقلب علىٰ وجهه ونكص علىٰ عقبيه طُرِدَ، وصُفِع قفاه، وأُقصِي، وتضاعفت عليه المصيبة. وهو لا يشعر في الحال بتضاعُفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بأنَّ المصيبة في حقّه صارت مصائب، كما يعلم الصابر أن المصيبة في حقّه صارت نِعمًا عديدة. وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين إلّا صبر ساعة، وتشجيع القلب في تلك الساعة. والمصيبة لا بدّ أن تُقلِع عن هذا وهذا، ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات

(١) للمتنبي، وقد سبق.

والخيرات، وعن الآخر بالحرمان والخذلان. ذلك تقدير العزيز العليم، وفضل الله يؤتيه من يشاءُ، والله ذو الفضل العظيم.

العاشر: أن يعلم أنَّ الله يُربِّي عبدَه علىٰ السرَّاءِ والضرَّاءِ، والنعمة والبلاءِ، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال، فإنّ العبد علىٰ الحقيقة مَن قام بعبودية الله علىٰ اختلاف الأحوال. وأمَّا عبدُ السرّاءِ والعافية الذي يعبد الله علىٰ حرف، فإن أصابه خير اطمأنّ به، وإن أصابته فتنةٌ انقلب علىٰ وجهه؛ فليس من عَبِيده الذين اختارهم لعبوديته. ولا ريب أنّ الإيمان الذي يثبت علىٰ محكّ الابتلاءِ والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة. وأمّا إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبدَ ويبلّغه منازلَ المؤمنين، وإنّما يصحبه إيمانٌ يثبت علىٰ البلاء والعافية.

فالابتلاءُ كِيرُ العبد ومحكُّ إيمانه: فإمَّا أن يَخرج تِبـرًا أحمر، وإمَّا أن يَخرج زَغَلًا محضًا، وإما أن يَخرج فيه مادَّتان ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاءُ حتَّىٰ تَخرج المادَّةُ النحاسية من ذهبه، ويبقىٰ ذهبًا خالصًا.

فلو علم العبد أنَّ نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمته عليه في العافية لشغلَ قلبَه بشكره ولسانه بقوله: «اللّهم أعنِّي علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[(١)]. وكيف لا يشكر مَن قيَّضَ له ما يستخرج به خَبَثه ونحاسه، ويُصيّره تِبـرًا خالصًا يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره؟

فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبرَ علىٰ البلاءِ، فإنْ قويت أثمرت الرضا والشكر. فنسأل الله أن يسترنا بعافيته، ولا يفضحنا بابتلائه بمنّه وكرمه.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، وصححه ابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠).

٢/ ٦٠٥

فصل

في الحزن

اعلم أنَّ الحزن من عوارض الطريق، ليس من مقامات الإيمان ولا من منازل السائرين. ولهذا لم يأمر الله به في موضعٍ قطّ، ولا أثنىٰ عليه، ولا رتَّب عليه جزاءً ولا ثوابًا. بل نهىٰ سبحانه عنه في غير موضع، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]. وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]. وقال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. فالحزن هو بليَّةٌ من البلايا التي نسأل الله دفعها وكشفها، ولهذا يقول أهل الجنَّة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، فحمدوه سبحانه علىٰ أن أذهب عنهم تلك البلية ونجَّاهم منها.

وفي «الصحيح»[1] عن النبيِّ ﷺ أنَّه كان يقول في دعائه: «**اللّهم إنِّي أعوذُ بك من الهمِّ والحزَن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضَلَع الدَّينِ[2] وغلبة الرِّجال**». فاستعاذَ ﷺ من ثمانية أشياءَ كلُّ شيئين منها قرينان.

فالهمُّ والحزن قرينان، وهما الألم الوارد علىٰ القلب، فإن كان علىٰ ما مضىٰ فهو الحزن، وإن كان علىٰ ما يستقبل فهو الهمّ. فالألم الوارد إن كان

---

(١) البخاري (٢٨٩٣)، ومسلم (٢٧٠٦).

(٢) ضلع الدين: ثقله.

مصدره فوتَ الماضي أثَّرَ الحزنَ، وإن كان مصدرُه خوفَ الآتي أثَّر الهمَّ.

والعجز والكسل قرينان، فإنَّ تخلُّفَ مصلحةِ العبد وكمالَه عنه إن كان من عدم القدرة فهو عجز. وإن كان من عدم الإرادة فهو كسل.

والجبن والبخل قرينان، فإنَّ الإحسان يفرح القلب، ويشرح الصدر، ويجلب النعم، ويدفع النقم. وتركه يوجب الغمَّ والضيق، ويمنع وصول النعم إليه. فالجبن ترك الإحسان بالبدن، والبخل ترك الإحسان بالمال.

وضلع الدَّين وغلبة الرجال قرينان، فإنَّ القهر والغلبة الحاصلة للعبد إمَّا منه، وإمَّا من غيره. وإن شئت قلت: إمَّا بحقٍّ، وإمَّا بباطل. فضلعُ الدين غلبةٌ سببها منه، وهي غلبة الحقِّ. وغلبةُ الرجال قهرٌ بباطل من غيره.

والمقصود أنَّ النبيّ ﷺ جعل الحزن مما يستعاذ منه. وذلك لأنَّ الحزن يُضعِف القلب، ويُوهِن العزم، ويغيّر الإرادة؛ ولا شيء أحبُّ إلىٰ الشيطان من حزن المؤمن، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة: ١٠].

فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره، والثواب عليه ثواب المصائب التي يُبتلىٰ العبدُ بها بغير اختياره، كالمرض والألم ونحوهما. وأمَّا أن يكون عبادةً مأمورًا بتحصيلها وطلبها فلا. فَفَرْقٌ بين ما يثاب عليه العبد من المأمورات، وما يثاب عليه من البليَّات.

ولكن يُحمَد في الحزن سببُه ومصدرُه ولازمُه، لا ذاته. فإنَّ المؤمن إمَّا أن يحزنَ علىٰ تفريطه وتقصيره خدمة في ربه وعبوديته، وإمَّا أن يحزن علىٰ تورُّطه في مخالفته ومعصيه وضياع أيامه وأوقاته. وهذا يدلُّ علىٰ صحّة الإيمان في

قلبه وعلىٰ حياته، حيث شعر قلبُه بمثل هذا الألم، فحزن عليه. ولو كان قلبه ميّتًا لم يحسَّ بذلك، ولم يحزن، ولم يتألَّم، «فما لِجُرحٍ بميّتٍ إيلام»[(١)]. وكلَّما كان قلبُه أشدَّ حياةً كان شعوره بهذا الألم أقوىٰ، ولكنَّ الحزن لا يُجدي عليه، فإنَّه يُضعِفه، كما تقدّم. بل الذي ينفعه أن يستقبل السيرَ، ويَجِدَّ، ويشمِّر، ويبذل جهده.

وهذا نظيرُ من انقطع عن رُفْقتِه في السفر، فجلس في الطريق حزينًا كئيبًا يشهد انقطاعَه وسبقَ رفقته، فقعودُه لا يجدي شيئًا. بل إذا عرف الطريق فالأولىٰ له أن ينهض، ويجدّ في السير، ويحدّث نفسَه باللَّحاق بالقوم. وكلَّما فترَ وحزِن حدَّث نفسَه باللحاق برفقته، ووعدها -إن صبرَتْ- أن تلحق بهم، وتزول عنها وحشةُ الانقطاع. فهكذا السالك إلىٰ منازل الأبرار، وديار المقرَّبين.

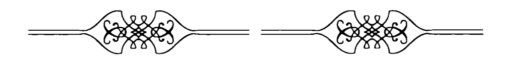
وأخصُّ من هذا: الحزنُ علىٰ قطع الوقت بالتفرقة المضعِفة للقلب عن تمام سيره وجدّه في سلوكه، فإنَّ التفرقة من أعظم البلاءِ علىٰ السالك، ولا سيما في ابتداءِ أمره. فالأول حزن علىٰ التفريط في الأعمال، وهذا حزن علىٰ نقص حاله مع الله، وتفرقة قلبه عنه، وكيف صار ظرفًا لتفرقة حاله، واشتغال قلبه بغير معبوده؟

وأخصُّ من هذا الحزنِ حزنُه علىٰ جزءٍ من أجزاءِ قلبه كيف هو خالٍ من محبة الله؟ وعلىٰ جزءٍ من أجزاءِ بدنه كيف هو متصرِّف في غير محابّ الله؟ فهذا حزن الخاصَّة. ويدخل في هذا حزنهم علىٰ كلِّ مُعارضٍ يَشْغَلهم عمَّا هم بصدده، من خاطر أو إرادة أو شاغل من خارج.

---

(١) عجز بيت للمتنبي في ديوانه (٢٤٥)، وصدره: «من يَهُنْ يَسهُلِ الهوانُ عليه».

فهذه المراتب من الحزن لا بدَّ منها في الطريق، ولكن الكيِّس من لا يدعها تملكه وتُقعِده، بل يجعل عوضَ فكرتِه فيها فكرتَه فيما يدفعها به. فإنَّ المكروه إذا وردَ علىٰ النفس، فإن كانت صغيرةً اشتغلت بفكرها فيه وفي حصوله عن الفكرة في الأسباب التي يدفعها به، فأورثَها الحزن. وإن كانت نفسًا كبيرةً شريفةً لم تفكّر فيه، بل تصرف فكرَها إلىٰ ما ينفعها. فإن علمتْ منه مخرجًا فكَّرتْ في طريق ذلك المخرج وأسبابه، وإن علمتْ أنه لا مخرجَ منه، فكَّرت في عبودية الله فيه، فكان ذلك عوضًا لها من الحزن، فعلىٰ كلّ حالٍ لا فائدة لها في الحزن أصلًا. والله أعلم.



٢/ ٦١٢

فصل

في الخوف

الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها، وهي: الخوف، والرجاءُ، والمحبَّة. وقد ذكره سبحانه في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٦- ٥٧]، فجمع بين المقامات الثلاثة، فإنَّ ابتغاءَ الوسيلة إليه هو التقرُّب إليه بحبِّه وفعلِ ما يحبُّه. ثمَّ قال: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، فذكر الحبّ، والخوف، والرجاءَ. والمعنىٰ أنَّ هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقرّبون إلىٰ ربّهم ويخافونه ويرجونه، فهم عبيده، كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه، وأنتم وهم عبيد له؟

وقد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فجعل الخوف منه شرطًا في تحقُّق الإيمان، وإن كان الشرط داخلًا في الصيغة علىٰ الإيمان فهو المشروط في المعنىٰ، والخوف شرط في حصوله وتحقُّقه. وذلك لأنَّ الإيمان سببُ الخوف الحامل عليه، فحصول المسبَّب شرط في تحقُّق السبب، كما أنَّ حصول السبب موجِب لحصول مسبَّبه. فانتفاءُ الإيمان عند انتفاءِ الخوف انتفاءٌ للمشروط عند انتفاء شرطه، وانتفاءُ الخوف عند انتفاءِ الإيمان انتفاءٌ للمعلول عند انتفاءِ علَّته. فتدبَّره! والمعنىٰ:

إن كنتم مؤمنين فخافوني. والجزاءُ محذوف مدلولٌ عليه بالأوَّل عند سيبويه وأصحابه، أو هو المتقدّم نفسه، وهو جزاءٌ وإن تقدّم كما هو مذهب الكوفيين. وعلىٰ التقديرين فأداة الشرط قد دخلت علىٰ السبب المقتضي للخوف وهو الإيمان. وكلٌّ منهما مستلزمٌ للآخر، لكنَّ الاستلزام مختلف؛ وكلٌّ منهما منتفٍ عند انتفاءِ الآخر، لكن جهة الانتفاءِ مختلفة، كما تقدّم. والمقصود: أنَّ الخوف من لوازم الإيمان وموجَباته، فلا يختلَّف عنه.

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقد أثنىٰ سبحانه علىٰ أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنىٰ عليهم ومدحهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. فالرغَب: الرجاءُ والرغبة، والرهب: الخوف والخشية. وقال عن ملائكته الذين قد آمنهم من عذابه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

وفي «الصحيح»[(١)] عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**إنِّي أعلمُكم بالله وأشدُّكم له خشيةً**». وفي لفظ آخر: «**إنِّي أخوَفكُم لله وأعلمُكم بما أتَّقي**»[(٢)]. وكان ﷺ يصلِّي ولصدره أزيزٌ كأزيز المِرجَل من البكاءِ[(٣)]. وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] فكلَّما كان العبد بالله أعلَم كان له أخوفَ. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كفىٰ بخشية الله علمًا»[(٤)]. ونقصان

---

(١) البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (١١١٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٩٠٤)، والنسائي (٣/ ١٣)، وصححه ابن خزيمة (٩٠٠)، وابن حبان (٦٥٥).

(٤) سبق تخريجه.

الخوف من الله إنَّما هو لنقصان معرفة العبد به، فأعرف الناس أخشاهم لله. ومن عرف الله اشتدَّ حياؤه منه وخوفه له وحبّه له، وكلَّما ازداد معرفةً ازداد حياءً وخوفًا وحبًّا.

فالخوف من أجلّ منازل الطريق، وخوفُ الخاصّة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهو بهم ألصق، ولهم ألزم. فإنَّ العبد إمَّا أن يكون مستقيمًا، أو مائلًا عن الاستقامة. فإن كان مائلًا عن الاستقامة فخوفه من العقوبة علىٰ مَيله، ولا يصحّ الإيمان إلا بهذا الخوف. وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

أحدها: معرفته بالجناية وقبحها.

والثاني: تصديق الوعيد وأنَّ الله رتَّب علىٰ المعصية عقوبَتها.

والثالث: أنَّه لا يعلم لعلّه يُمنَع من التوبة ويُحال بينه وبينها إذا ارتكبَ الذنبَ.

فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه، فإنَّ الحامل علىٰ الذنب إمَّا أن يكون عدم علمه بقبحه، وإمَّا عدم علمه بسوءِ عاقبته، وإمَّا أن يجتمع له الأمران لكن يحمله عليه اتّكاله علىٰ التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان. فإذا علم قبحَ الذنب، وعلم سوءَ مغبّته، وخاف أن لا يُفتح له بابُ التوبة بل يُمنعها ويحال بينه وبينها= اشتدَّ خوفُه. هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشدّ. وبالجملة، فمن استقرَّ في قلبه ذكرُ الدار الآخرة وجزائها، وذكرُ المعصية والتوعّد عليها، وعدمُ الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج من قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتَّىٰ ينجو.

وأمَّا إن كان مستقيمًا مع الله، فخوفه يكون مع جرَيان الأنفاس، لِعلمه بأنَّ الله مقلِّب القلوب، وما من قلب إلا وهو بين إصبَعين من أصابع الرحمن ﷻ،

فإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاءَ أن يُزيغه أزاغه، كما ثبت عن النبيّ ﷺ[(١)]. وكانت أكثر يمينه ﷺ: «**لا ومقلِّب القلوب، لا ومقلِّب القلوب**»[(٢)]. وقال بعض السلف: «القلبُ أشدّ تقلُّبًا من القِدْر إذا استجمعتْ غلَيانًا»[(٣)]. وقال بعضهم: «مثل القلب في سرعة تقلّبه كريشةٍ ملقاةٍ بأرض فلاة تقلبها الرياحُ ظهرًا لبطن»[(٤)]. ويكفىٰ في هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فأيُّ قرار لمن هذه حاله؟ ومن أحقُّ بالخوف منه؟ بل خوفه لازم له في كلِّ حال، وإن تواریٰ عنه بغلبة حالةٍ أخرىٰ عليه. فالخوف حشو قلبه، لكن تواریٰ عنه بغلبة غيره، فوجود الشيء غير العلم به.

فالخوف الأوَّل ثمرة العلم بالوعد والوعيد، وهذا الخوف ثمرة العلم بقدرة الله وعزَّته وجلاله، وأنَّه الفعَّال لما يريد، وأنَّه المحرّك للقلب المصرِّف له، المقلِّب له كيف يشاء لا إله إلا هو.

سبب خوف الملائكة والنبي ﷺ من الله تعالى

فإن قيل: فما وجه خوفِ الملائكة وهم معصومون من الذنوب التي هي أسباب المخافة، وشدَّة خوف النبيّ ﷺ مع علمه بأنَّ الله قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وأنَّه أقرب الخلق إلىٰ الله وسيلة؟

قيل: عن هذا أربعة أجوبة:

الجواب الأوَّل: أنَّ هذا الخوف علىٰ حسب القرب من الله والمنزلة عنده.

---

(١) سبق تخرجه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦١٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٨١٦) مرفوعًا، وصححه الحاكم (٢/ ٢٨٩).

(٤) أخرجه ابن الجعد في «مسنده» (١٤٩٩) عن أبي موسىٰ ﷺ موقوفا عليه.

وكلَّما كان العبد أقرب إلىٰ الله كان خوفه منه أشدّ؛ لأنَّه يطالَب بما لا يطالب به غيره، ويجب عليه من رعاية تلك المنزلة وحقوقها ما لا يجب علىٰ غيره. ونظير هذا في المشاهد أنَّ الماثلَ بين يدي أحد الملوك المشاهِدَ له أشدُّ خوفًا منه من البعيد عنه، بحسب قربه منه ومنزلته عنده ومعرفته به وبحقوقه، وأنَّه يطالَب من حقوق الخدمة وآدابها بما لا يطالَب به غيرُه، فهو أحقّ بالخوف من البعيد.

ومَن تصوَّر هذا حقّ تصوُّره فَهِمَ قوله ﷺ: «**إنِّي أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**»[(١)]، وفهمَ قولَه ﷺ في الحديث الذي رواه أبو داود[(٢)] وغيره من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ الله تعالىٰ لو عذَّب أهلَ سماواته وأهلَ أرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم كانت رحمتُه لهم خيرًا من أعمالهم**».

وليس المراد أنَّه لو عذَّبهم لَتصرَّفَ في ملكه، والمتصرف في ملكه غير ظالم، كما يظنّه كثير من النَّاس؛ فإنَّ هذا لا يتضمَّن مدحًا، والحديث إنَّما سيق للمدح وبيان عِظَم حقِّ الله علىٰ عباده، وأنَّه لو عذَّبهم لعذّبهم بحقّه عليهم، ولم يكن تعذيبه ظلمًا لهم بغير استحقاق، فإنَّ حقَّه سبحانه عليهم أضعافُ أضعافِ ما أتوا. ولهذا قال بعده: «**ولو رحمهم كانت رحمتُه خيرًا لهم من أعمالهم**» يعني أنَّ رحمته لهم ليست ثمَنًا لأعمالهم، ولا تبلغ أعمالُهم رحمتَه، فرحمتُه لهم ليست علىٰ قدر أعمالهم، إذ أعمالهم لا تستقلّ باقتضاءِ الرحمة، وحقوقُ عبوديته وشكره التي يستحقّها عليهم لم يقوموا بها. فلو عذَّبهم -والحالة هذه- لكان تعذيبًا لحقّه، وهو غيرُ ظالم لهم فيه، ولا سيَّما فإنَّ أعمالهم لا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) برقم (٤٦٩٩)، وأخرجه أيضا ابن ماجه (٧٧)، وصححه ابن حبان (٧٢٧).

توازي القليل من نِعَمه عليهم، فتبقىٰ نِعمُه الكثيرة لا مقابِلَ لها من شكرهم، فإذا عذَّبهم علىٰ ترك شكرهم وأداءِ حقّه الذي ينبغي له سبحانه، عذّبهم بحقّه ولم يكن ظالمًا لهم.

فإن قيل: فهم إذا فعلوا مقدورهم من شكره وعبوديته لم يكن ما عداه مما ينبغي له سبحانه مقدورًا لهم، فكيف يَحْسُن العذابُ عليه؟

قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أنَّ المقدور للعبد لا يأتي به كلّه، بل لا بدَّ من فتور وإعراض وغفلة وتوانٍ، وأيضًا ففي نفس قيامه بالعبودية لا يُوفِّيها حقَّها الواجبَ لها من كمال المراقبة والإجلال والتعظيم والنصيحة التامَّة لله فيها، بحيث يبذل مقدوره كلّه في تحسينها وتكميلها ظاهرًا وباطنًا، فالتقصير لازم في حال الترك وفي حال الفعل.

ولهذا لمَّا سأل الصدّيقُ النبيَّ ﷺ دعاءً يدعو به في صلاته، فقال له: «**قل: اللهمّ إنِّي ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوبَ إلا أنتَ، فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني، إنَّك أنت الغفور الرحيم**»[(١)]. فأخبر عن ظلمه لنفسه مؤكِّدًا له بـ«إنَّ» المقتضيةِ ثبوتَ الخبر وتحقُّقَه، ثمَّ أكدَّه بالمصدر النافي للتجوُّز والاستعارة، ثمَّ وصفه بالكثرة المقتضية لتعدّده وتكثّره. ثم قال: «**فاغفر لي مغفرةً من عندك**» أي: لا ينالها عملي ولا سعيي، بل عملي يَقْصُر عنها، وإنَّما هي من فضلك وإحسانك، لا بكسبي ولا باستغفاري وتوبتي. ثمَّ قال: «**وارحمني**» أي: ليس مُعوَّلي إلا علىٰ مجرَّد رحمتك، فإن رحمتَني وإلا فالهلاك لازم لي. فليتدبّر

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

اللبيب هذا الدعاءَ وما فيه من المعارف والعبودية، وفي ضمنه: إنَّك لو عذَّبتني لعدلتَ فيَّ ولم تظلمني، وإنِّي لا أنجو إلا بمغفرتك ورحمتك.

ومن هذا قوله ﷺ: «**لن يُنجيَ أحدًا منكم عملُه**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمّدني اللهُ برحمةٍ منه وفضل**»[(١)]. فإذا كان عملُ العبد لا يستقلّ بالنجاة، فلو لم يُنْجِه الله لم يكن قد بخسه شيئًا من حقّه ولا ظَلَمه، فإنَّه ليس معه ما يقتضي نجاتَه، وعملُه ليس وافيًا بشكر القليل من نِعَمه، فهل يكون ظالمًا له لو عذَّبه؟ وهل تكون رحمتُه له جزاءً لعمله، ويكون العمل ثمنًا لها مع تقصيره فيه وعدم توفيته ما ينبغي له من بذل النصيحة فيه، وكمال العبودية من الحياء والمراقبة والمحبَّة والخشوع وحضور القلب بين يدي الله في العمل له؟

ومَن علِمَ هذا عَلِمَ السرَّ في كون أعمال الطاعات تُختَم بالاستغفار. ففي «صحيح مسلم»[(٢)] عن ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم من صلاته استغفر ثلاثًا. وقال: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**».

قال تعالىٰ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨]. فأخبر عن استغفارهم عقيبَ صلاة الليل. قال الحسن: «مدّوا الصلاة إلىٰ السحرِ، فلما كان السحر جلسوا يستغفرون الله»[(٣)].

وأمر تعالىٰ عبادَه بالاستغفار عقيب الإفاضة في الحجّ فقال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) برقم (٥٩١).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٦/ ٢٠٠).

﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:١٩٩].

وشرع ﷺ للمتوضئ أن يختم وضوءَه بالتوحيد والاستغفار فيقول: «**أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأشْهَدُ أنَّ محمدًا عَبْدُهُ وَرسولُه. اللَّهم اجْعَلْنِي من التَّوابِين واجْعَلْنِي من المُتَطَّهِّرين**»[١].

فهذا ونحوه ممَّا يبيّن حقيقة الأمر، وأنَّ كلَّ أحدٍ محتاج إلىٰ مغفرة الله ورحمته، وأنَّه لا سبيل إلىٰ النجاة بدون مغفرته ورحمته أصلًا.

الجواب الثاني: أنَّه لو فرض أنَّ العبد يأتي بمقدوره كلِّه من الطاعة ظاهرًا وباطنًا، فالذي ينبغي لربّه تعالىٰ فوقَ ذلك وأضعافَ أضعافِه. فإذا عَجَز العبدُ عنه لم يستحقّ ما يترتّب عليه من الجزاءِ. والذي أتىٰ به لا يقابل أقلَّ النعم، فإذا حُرِم جزاءَ العمل الذي ينبغي للربِّ من عبده كان ذلك تعذيبًا له، ولم يكن الربُّ تعالىٰ ظالمًا له في هذا الحرمان. ولو كان عاجزًا عن أسبابه فإنَّه لم يمنعه حقًّا يستحقّه عليه فيكون ظالمًا بمنعه. فإذا أعطاه الثوابَ كان مجرَّدَ صدقةٍ منه وفضلٍ تصدَّق بها عليه، لا ينالها عملُه، بل هي خير من عمله وأفضل وأكثر، ليست معاوضة عليه. والله أعلم.

الجواب الثاني عن السؤال الأوَّل[٢]: أنَّ العبد إذا علم أنَّ الله سبحانه هو مقلَّب القلوب، وأنَّه يحول بين المرءِ وقلبِهِ، وأنَّه سبحانه كلَّ يومٍ هو في شأن، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأنَّه يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء، ويرفع من يشاء، ويخفض من يشاء؛ فما يؤمنه أن يقلب اللهُ قلبَه، ويحول بينه وبينه،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) وهو: ما وجه خوف الملائكة من الله تعالىٰ مع عصمتهم، وخوف النبي ﷺ مع أن الله عفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟

ويزيغه بعد إقامته؟ وقد أثنىٰ الله سبحانه علىٰ عباده المؤمنين بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، فلولا خوف الإزاغة لما سألوه أن لا يُزيغ قلوبَهم.

وكان من دعاء النبيّ ﷺ: «**اللهم مصرِّفَ القلوب، صرِّفْ قلوبَنا علىٰ طاعتك**»[١]. و«**مثبِّتَ القلوب، ثبِّتْ قلوبَنا علىٰ دينك**»[٢].

وفي «الترمذي»[٣] عنه ﷺ أنَّه كان يدعو: «**أعوذ بعزَّتك أن تُضِلَّني، أنت الحيُّ الذي لا تموت**».

وكان من دعائه ﷺ: «**اللّهُمَّ إنِّي أَعوذُ برضاكَ من سَخطِك، وأعوذُ بمعافاتِكَ من عقوبتك، وأعوذُ بِكَ مِنكَ**»[٤].

فاستعاذ بصفة الرضا من صفة الغضب، وبفعل العافية من فعل العقوبة، واستعاذ به منه باعتبارين. وكان في استعاذته به منه جمعًا لما فصَّله في الجملتين قبله. فإنَّ الاستعاذة به سبحانه منه ترجع إلىٰ معنىٰ الكلام قبلها، مع تضمُّنها فائدةً شريفةً وهي كمال التوحيد وأنَّ الذي يستعيذ به العائذ ويهرب منه إنَّما هو فعل الله ومشيئته وقدره، فهو وحده المنفرد بالحكم، فإذا أراد بعبده سوءًا لم يُعِذْه منه إلا هو. فهو الذي يريد به ما يسوؤه، وهو الذي يريد دفعه عنه، فصارَ سبحانه مستعاذًا به منه باعتبار الإرادتين؛ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، فهو الذي يمسّ بالضرّ، وهو الذي يكشفه، لا إله إلا

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).
(٢) أخرجه ابن ماجه (١٩٩)، وصححه ابن حبان (٩٤٣)، والحاكم (١٩٢٦).
(٣) كذا في الأصل، وقد أخرجه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).
(٤) أخرجه مسلم (٤٨٦).

هو. فالمهرب منه إليه، والفرار منه إليه، واللجأ منه إليه، كما أنَّ الاستعاذة منه به، فإنَّه لا ربَّ غيره، ولا مدبِّر للعبد سواه، فهو الذي يحرِّكه ويقلّبه ويصرِّفه كيف يشاء.

الجواب الثالث: أنَّ الله سبحانه هو الذي يخلق أفعال العبد الظاهرة والباطنة، فهو الذي يجعل الإيمان والهدىٰ في القلب، ويجعل التوبة والإنابة والإقبال والمحبَّة والتفويض وأضدادها. والعبدُ في كلِّ لحظةٍ مفتقرٌ إلىٰ هداية يجعلها الله في قلبه، وحركاتٍ يحرِّكه بها في طاعته. وهذا إلىٰ الله سبحانه، فهو خَلَقه وقدَّره.

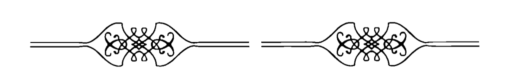
وكان من دعاءِ النبيّ ﷺ: «**اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزَكِّها أنتَ خيرُ من زكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها**»[1]. وعلَّم حُصَين بن المنذر أن يقول: «**اللّهمَّ أَلهِمْني رشدي، وقِني شرَّ نفسي**»[2]، وعامَّةُ أدعيته ﷺ متضمِّنةٌ لطلب توفيق ربّه وتزكيته له واستعماله في محابِّه.

فمَن هُداه وصلاحُه وأسبابُ نجاتِه بيد غيره، وهو المالك له ولها، المتصرِّف فيه بما يشاء، ليس له من أمره شيء= مَن أحقُّ بالخوف منه؟ وهَبْ أنَّه قد خلق له في الحالِ الهدايةَ، فهل هو علىٰ يقينٍ وعلمٍ أنَّ الله سبحانه يخلقها له في المستقبل ويُلهِمه رُشدَه أبدًا؟ فعلم أنَّ خوف المقرَّبين عند ربِّهم أعظمُ من خوف غيرهم، والله المستعان.

ومن هاهنا كان خوف السابقين من فوات الإيمان، كما قال بعض السلف: «أنتم تخافون الذنب، وأنا أخاف الكفر». وكان عمر بن الخطّاب يقول لحذيفة

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٨٣) وضعفه.

رضي الله عنهما: «نشدُتك اللهَ هل سمَّاني لك رسولُ الله ﷺ؟» يعني في المنافقين فيقول: «لا، ولا أزكِّي بعدك أحدًا»(١) يعني: لا أفتح عليَّ هذا الباب في سؤال الناس لي، وليس مراده أنَّه لم يخلُصْ من النفاق غيرُك.



(١) أخرجه البزار في «مسنده» (٢٨٨٥)، وصححه ابن حجر في «مختصر زوائد البزار» (٥٩٠).

٢/ ٦٣٩

فصل

فصل في المحبة

المحبَّة المشتركة ثلاثة أنواع:

أحدها: محبَّة طبيعية مشتركة، كمحبَّة الجائع للطعام، والظمآن للماءِ، وغير ذلك. وهذه لا تستلزم التعظيم.

والنوع الثاني: محبَّةُ رحمةٍ وإشفاقٍ، كمحبَّة الوالد لولده الطفل، ونحوها. وهذه أيضًا لا تستلزم التعظيم.

والنوع الثالث: محبَّة أنسٍ وإلفٍ، وهي محبَّة المشتركين في صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر لبعضهم بعضًا، وكمحبَّة الإخوة بعضهم بعضًا.

فهذه الأنواع الثلاثة هي المحبّة التي تصلح للخلق بعضهم من بعض، ووجودُها فيهم لا يكون شركًا في محبَّة الله. ولهذا كان رسول الله ﷺ يحبُّ الحلواءَ والعسل[1]، وكان أحبُّ الشراب إليه الحُلْوَ البارد[2]، وكان أحبُّ اللحم إليه الذراع[3]. وكان يحبُّ نساءَه، وكانت عائشة رضي الله عنها أحبَّهنَّ إليه[4]، وكان يحبُّ أصحابه، وأحبُّهم إليه الصدِّيق رضي الله عنه[5].

وأمَّا المحبَّة الخاصَّة التي لا تصلح إلا لله وحده، ومتىٰ أحبّ العبدُ بها غيرَه كان شركًا لا يغفره الله، فهي محبّة العبودية المستلزمة للذلّ والخضوع

(١) أخرجه البخاري (٥٤٣١).
(٢) أخرجه الترمذي (٥٩٨١) وضعفه (٦٩٨١).
(٣) أخرجه البخاري (٢١٧٤)، ومسلم (٤٩١).
(٤) أخرجه البخاري (٢٦٣٦)، ومسلم (٤٨٣٢).
(٥) يدل عليه الحديث السابق.

والتعظيم، وكمالِ الطاعة وإيثاره علىٰ غيره. فهذه المحبَّة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلًا، وهي التي سوَّىٰ المشركون بين آلهتهم وبين الله فيها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وأصحُّ القولين أنَّ المعنىٰ: يحبُّونهم كما يحبُّون الله، فيُسوُّون بين الله وبين أندادهم في الحبّ. ثمَّ نفىٰ ذلك عن المؤمنين فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فإنَّ الذين آمنوا وأخلصوا حبَّهم لله لم يشركوا به معه غيره، وأمَّا المشركون فلم يخلصوه لله.

والمقصود من الخلق والأمر إنَّما هو هذه المحبّة وهي أوَّل دعوة الرسل. وآخرُ كلام العبد المؤمن الذي إذا مات عليه دخل الجنَّة اعترافُه وإقرارُه بهذه المحبّة، وإفرادُ الربّ تعالىٰ بها. فهو أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا إلىٰ الله. وجميع الأعمال كالأدوات والآلات لها، وجميع المقامات وسائل إليها، وأسبابٌ لتحصيلها وتكميلها وتحصينها من الشوائب والعلل. فهي قطبُ رحىٰ السعادة، وروحُ الإيمان، وساقُ شجرة الإسلام. ولأجلها أنزل الله الكتاب والحديد: فالكتاب هادٍ إليها، ودالٌّ عليها، ومفصِّل لها. والحديد لمن خرج عنها وأشرك فيها مع الله غيره. ولأجلها خلقت الجنة والنار: فالجنة دار أهلها الذين أخلصوها لله وحده، فأخلصهم لها؛ والنار دار من أشرك فيها مع الله غيره، وسوَّىٰ بينه وبين الله فيها، كما أخبر تعالىٰ عن أهلها أنَّهم يقولون في النار لآلهتهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات بحيث اعتقدوا أنَّها مساوية لله في أفعاله وصفاته، وإنَّما كانت تسويةً منهم بين الله وبينها في المحبَّة

والعبودية فقط، مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها؛ فتصحيحُ هذه المسألة هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله.

فحقيقٌ بمن نصح نفسه وأحبَّ سعادتها ونجاتها أن يتيقَّظ لهذه المسألة علمًا وعملًا وحالًا، وتكون أهمَّ الأشياء عنده، وأجلَّ علومه وأعماله؛ فإنَّ الشأن كلّه فيها، والمدار عليها، والسؤال يوم القيامة عنها. قال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢- ٩٣]. قال غير واحد من السلف: هو عن قول: «لا إله إلا الله»[(١)]. وهذا حقّ، فإنَّ السؤال كلّه عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها، فلا يسأل أحدٌ قطُّ إلا عنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها.

قال أبو العالية: كلمتان يُسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟[(٢)] فالسؤال عمَّاذا كانوا يعبدون هو السؤال عنها نفسها، والسؤالُ عمَّاذا أجابوا المرسلين سؤالٌ عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها: هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها؟ فعاد الأمر كلّه إليها.

وأمرٌ هذا شأنُه حقيقٌ بأن تُثنىٰ عليه الخناصر، ويُعَضَّ عليه بالنواجذ، ويُقبضَ فيه علىٰ الجمر. ولا يؤخذ بأطراف الأنامل، ولا يُطلب علىٰ فضلة؛ بل يُجعل هو المطلب الأعظم، وما سواه إنَّما يطلب علىٰ الفضلة. والله الموفق لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

المحبَّة الخالصة أن تحبَّ المحبوبَ لكماله، وأنَّه أهل أن يُحَبَّ كمحبَّته لذاته وصفاته. وإنَّ الذي توجبه هذه المحبة فناءُ العبد عن إرادته بمراد

---

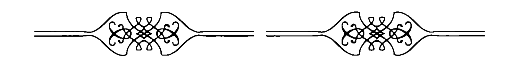
(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ١٣٩- ١٤١).

(٢) «تفسير الطبري» (١٤/ ١٤١).

محبوبه، فيكون عاملًا علىٰ مراد محبوبه منه، لا علىٰ مراده هو من محبوبه. فهذه هي المحبَّة الخالصة من درن العلل وشوائب النفس، وهي التي تستلزم إيثار المحبوب علىٰ غيره ولا بدّ. وكلَّما كان سلطان هذه المحبّة أقوىٰ كان هذا الإيثار أتمّ. وفي مثل هذا قيل:

تعصي الإلهَ وأنت تزعم حبَّه ... هذا لعمرك في القياس شنيعُ
لو كان حبُّك صادقًا لأطعتَه ... إنَّ المحبّ لمن يحبّ مطيعُ[(١)]

وهاهنا دقيقة ينبغي التفطُّن لها، وهي أنَّ إيثار المحبوب نوعان: إيثار معاوضةٍ ومتاجرةٍ، وإيثار حبٍّ وإرادة. فالأوَّل يؤثر محبوبَه علىٰ غيره طلبًا لحظّه منه. فهو يبذل ما يؤثره ليعاوضه بخير منه. والثاني يؤثره إجابةً لداعي محبته. فإنَّ المحبة الصادقة تدعوه دائمًا إلىٰ إيثار محبوبه، فإيثارُه هو أجلّ حظوظه. فحظُّه في نفس الإيثار، لا في العوض المطلوب بالإيثار. وهذا لا يفهمه إلا النفس اللطيفة الوادعة المشرقة. وأمَّا النفس الكثيفة فلا خبر عندها من هذا، وما هو بعُشِّها فَلْتَدْرُجْ![(٢)]



(١) البيتان لمحمود الوراق في «الكامل» (٥١٣)، و«الزهرة» (٥٩).
(٢) من قولهم: «ليس هذا بعُشِّكِ فادرُجي» - مثل يُضرَب لمن أقحم نفسه في أمرٍ ليس له فيه حق. انظر: «الأمثال» للميداني (٣/ ٩٣).

فصل

الدين كله والمعاملة في الإيثار

والدين كلّه والمعاملة في الإيثار، فإنَّه تقديم وتخصيص لمن تؤثره بما تؤثره به علىٰ نفسك، حتىٰ قيل: إنَّ من شرطه الاحتياج من جهة المؤثِر، إذ لو لم يكن محتاجًا إليه لكان بذله سخاءً وكرمًا. وهذا إنَّما يصح في إيثار المخلوق، والله سبحانه يؤثر عبدَه علىٰ غيره، من غير احتياج منه سبحانه، فإنَّه الغني الحميد.

وفي الدعاء المرفوع: «**اللّهم زِدْنَا ولا تنقصْنا، وأعْطِنا ولا تحرِمْنا، وأكرِمْنا ولا تُهِنَّا، وآثِرْنا ولا تُؤْثر علينا، وأرضِنا وارضَ عنَّا**»[1].

وقيل: من آثره الله علىٰ غيره.

والفرق بين الإيثار والأثَرة أنَّ «الإيثار» تخصيص الغير بما تريده لنفسك. و«الأثرة» اختصاصك به علىٰ الغير. وفي الحديث: «بايَعْنا رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة في عُسْرنا ويُسْرنا، ومَنشَطنا ومَكْرَهِنا، وأَثَرةٍ علينا»[2].

إذا عرف هذا، فالإيثار إمَّا أن يتعلّق بالخلق، وإمَّا أن يتعلّق بالخالق. فإن تعلَّق بالخلق، فكماله أن تؤثرهم علىٰ نفسك بما لا يُضيع عليك وقتًا، ولا يفسد عليك حالًا، ولا يهضِم لك دينًا، ولا يسدّ عليك طريقًا، ولا يمنع لك واردًا. فإن كان في إيثارهم شيء من ذلك، فإيثارُ نفسك عليهم أولىٰ، فإنَّ الرجلَ مَن لا يؤثر بنصيبه من الله أحدًا كائنًا من كان.

وهذا في غاية الصعوبة علىٰ السالك، والأول أسهل منه. فإنَّ الإيثار

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٣)، وسنده ضعيف.
(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩).

المحمود الذي أثنىٰ الله علىٰ فاعله الإيثار بالدنيا، لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب. قال الله تعالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. فأخبر تعالىٰ أنَّ إيثارهم إنَّما هو بالشيء الذي إذا وُقِي الرجلُ الشحَّ به كان من المفلحين. وهذا إنَّما هو فضول الدنيا، لا الأوقات المصروفة في الطاعات؛ فإنَّ الفلاح كلّ الفلاح في الشحّ بها، فمن لم يكن شحيحًا بوقته تركه الناس علىٰ الأرض عريانًا مفلسًا، فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله.

وممَّا يدلّ علىٰ هذا أنَّه سبحانه أمر بالمسابقة في أعمال البرّ، والتنافس فيها، والمبادرة إليها؛ وهذا ضدّ الإيثار بها. قال تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. وقال النبيّ ﷺ: «**لو يعلمُ الناسُ ما في النداء والصفّ الأوّل لكانت قُرْعةً**»[1]. والقرعة إنَّما تكون عند التزاحم والتنافس، لا عند الإيثار. فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلًّا للإيثار، بل محلًّا للتنافس والمسابقة، ولهذا قال الفقهاء: «لا يستحبّ الإيثار بالقربات».

والسرّ فيه -والله أعلم- أنَّ الإيثار إنَّما يكون بالشيء الذي يضيق عن الاشتراك فيه، فلا يسع المؤثِرِ والمؤثَرَ، بل لا يسع إلا أحدَهما. وأمَّا أعمال البرِّ والطاعات فلا ضيق علىٰ العباد فيها، فلو اشترك الألوف المؤلّفة في الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم، ووَسِعَتْهم كلَّهم. وإن

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧، ٤٣٩).

قُدِّر التزاحمُ في عمل واحد أو مكان لا يمكن أن يفعله الجميع، بحيث إذا فعله واحدٌ فات علىٰ غيره؛ فإنَّ في العزم والنية الجازمة علىٰ فعله من الثواب ما لفاعله كما ثبت عن النبيّ ﷺ في غير حديث. فإذا قُدِّرَ فوتُ مباشرته له، فلا يفوت عليه عزمُه ونيّتُه لفعله.

وأيضًا: فإنَّه إذا فات عليه كان في غيره من الطاعات والقربات عوضٌ منه: إمَّا مساوٍ له، وإمَّا أزْيَد، وإمَّا دونه. فمتىٰ أتىٰ بالعوض، وعلِم الله من نيته وعزيمته الصادقة إرادتَه لذلك العمل الفائت، أعطاه ثوابَه وثوابَ ما تعوّض به عنه؛ فجمع له الأمرين. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأيضًا: فإنَّ المقصود رغبة العبد في التقرُّب إلىٰ الله، وابتغاء الوسيلة إليه، والمنافسة في محابِّه؛ والإيثار بهذا التقرُّب يدل علىٰ رغبته عنه وتركه له، وعدم المنافسة فيه. وهذا بخلاف ما يحتاج إليه العبد من طعامه وشرابه ولباسه، إذا كان أخوه محتاجًا إليه، فإذا اختصَّ به أحدُهما فات الآخر. فندب الله سبحانه عبده إذا وجد من نفسه قوَّةً وصبرًا علىٰ الإيثار به، ما لم يخرِمْ عليه دِينًا، أو يجلبْ له مفسدةً، أو يقطعْ عليه طريقًا عزم علىٰ سلوكه إلىٰ ربّه، أو يشوِّشْ عليه قلبَه بحيث يجعله متعلِّقًا بالخلق؛ فمفسدة الإيثار هنا أرجح من مصلحته. فإذا ترجَّحت مصلحة الإيثار، بحيث تتضمَّن إنقاذَ نفسٍ من هلكة أو عطب أو شدَّة ضرورة -وليس بالمُؤْثِر نظيرُها- تعيَّن عليه الإيثار. فإن كان به نظيرُها لم يتعيَّن عليه الإيثار، ولكن لو فعله لكان غاية الكرم والسخاءِ والإحسان؛ فإنَّه من آثر حياةَ غيره علىٰ حياته وضرورتَه علىٰ ضرورته، فقد استولىٰ علىٰ أمد الكرم والسخاء، وجاوز قصباته، وضرب فيه بأوفر الحظّ. وفي هذا الموضع مسائل فقهية ليس هذا موضع ذكرها.

فصل

الإيثار المتعلق بالخالق أجل وأفضل الأنواع

والإيثار المتعلِّق بالخالق أجلُّ من هذا وأفضل، وهو إيثارُ رضاه علىٰ رضا غيره، وإيثار حبِّه علىٰ حبِّ غيره، وإيثارُ خوفه ورجائه علىٰ خوف غيره ورجائه، وإيثارُ الذلّ له والخضوع والاستكانة والضراعة والتملُّق علىٰ بذل ذلك لغيره. وكذلك إيثار الطلب منه والسؤال وإنزال الفاقات به علىٰ تعلُّق ذلك بغيره.

فالأوَّل آثر بعضَ العبيد علىٰ نفسه فيما هو محبوب له، وهذا آثر اللهَ علىٰ غيره. ونفسُه من أعظم الأغيار، فآثر اللهَ عليها، فترك محبوبَها لمحبوب الله.

وعلامةُ صحَّة هذا الإيثار شيئان: أحدهما: فعلُ ما يحبّه الله إذا كانت النفسُ تكرهه وتهرب منه. والثاني: ترك ما يكرهه إذا كانت النفس تحبّه وتهواه. فبهذين الأمرين يصحّ مقام الإيثار.

ومؤنة هذا الإيثار شديدةٌ لغلبة الأغيار وقوَّة داعي العادة والطبع. فالمحنة فيه عظيمة، والمؤنة فيه شديدة، والنفس عنه ضعيفة، ولا يتمُّ صلاح العبد وسعادته إلا به، وإنَّه ليسيرٌ علىٰ من يسَّره الله عليه. فحقيق بالعبد أن يتسنَّم إليه وإن صعب المرتقىٰ، وأن يشمِّر إليه وإن عظمت فيه المحنة، ويحتمل فيه خطرًا يسيرًا لملك عظيم وفوز كبير؛ فإنَّ ثمرة هذا في العاجل والآجل ليست تشبه ثمرةَ شيءٍ من الأعمال، واليسير منه يُرقّي العبد ويسيِّره ما لا يرقىٰ غيرُه إليه في المدد المتطاولة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ولا تتحقَّق المحبَّة إلا بهذا الإيثار. والذي يُسهِّله علىٰ العبد أمور: أحدها:

أن تكون طبيعته ليِّنة منقادة سلسة، ليست بجافية ولا قاسية، بل تنقاد معه بسهولة. الثاني: أن يكون إيمانه راسخًا ويقينُه قويًّا، فإنَّ هذا ثمرة الإيمان ونتيجته. الثالث: قوة صبره وثباته. فبهذه الأمور الثلاثة الأمور ينهض إلىٰ هذا المقام، ويسهل عليه دركه.

والنقص والتخلّف في النفس عن هذا يكون من أمرين: أن تكون جامدةً غير سريعة الإدراك، بل بطيئة. فلا تكاد يرىٰ حقيقة الشيء إلا بعد عُسر، وإن رآها اقترنت به الأوهام والشكوك والشبهات والاحتمالات، فلا يتخلّص له رؤيتها وعيانها.

الثاني: أن تكون القريحةُ وقَّادة درَّاكة، لكن النفس ضعيفة مهينة، إذا أبصرت الحقَّ والرشد ضَعُفَت عن إيثاره. فصاحبها يسوقها سَوق العليل المريض، كلَّما ساقه خطوة وقف خطوة؛ أو كسَوق الطفل الصغير الذي قد تعلَّقت نفسه بشهواته ومألوفاته، فهو يسوقه إلىٰ رشده، وهو ملتفت إلىٰ لهوه ولعبه لا ينساق معه إلا كرهًا. فإذا رُزِق العبدُ قريحةً وقَّادةً، وطبيعةً منقادةً: إذا زجرها انزجرت، وإذا قادها انقادت بسهولة وسرعة ولين؛ وأُيِّدَ مع ذلك بعلمٍ نافع وإيمان راسخ= أقبلت إليه وفود السعادة من كلِّ جانب.

ولمَّا كانت هذه القرائح والطبائع ثابتةً للصحابة ﷺ، وكمَّلها الله لهم بنور الإسلام وقوَّة اليقين ومباشرة الإيمان لقلوبهم، كانوا أفضلَ العالمين بعد الأنبياء والمرسلين. وكان مَن بعدهم لو أنفق مثل جبل أحدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَه[(١)].

ومن تصوَّر هذا الموضع حقَّ تصوره علِمَ من أين يلزمه النقص والتأخّر،

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عند البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

ومن أين يتقدم ويترقّىٰ في درجات السعادة. وبالله التوفيق.

وبالجملة فقلبُ المحبّ دائمًا في سفرٍ لا ينقضي نحو محبوبه، كلَّما قطع مرحلةً ومنزلة تبدَّتْ له أخرىٰ، كما قيل:

إذا قطعنَ عَلَمًا بدا عَلَمْ(١)

فهو مسافر بين أهله، وظاعن وهو في داره، وغريب وهو بين إخوانه وعشيرته؛ يرىٰ كلَّ أحد عنده، ولا يرىٰ نفسَه عند أحد. فقوةُ تعلّق المحبّ بمحبوبه تُوجِب له أن لا يستقرَّ قلبه دون الوصول إليه، وكلَّما هدأت حركاته وقلّت شواغله اجتمعت عليه شؤون قلبه، وقوي سيره إلىٰ محبوبه.

ومحك هذه الحال يظهر في مواطن أربعة:

أحدها: عند أخذ مضجعه وتفرُّغ حواسه وجوارحه من الشواغل، واجتماع قلبه علىٰ ما يحبه. فإنَّه لا ينام إلا علىٰ ذكر من يحبُّه وشغل قلبه به.

الموطن الثاني: عند انتباهه من النوم. فأول شيء يسبق إلىٰ قلبه ذكرُ محبوبه. فإنَّه إذا استيقظ ورُدَّتْ إليه روحُه رُدَّ معها إليه ذكرُ محبوبه الذي كان قد غاب عنه في النوم، ولكن كان قد خالط روحَه وقلبَه، فلمَّا ردَّت إليه الروح أسرَعَ من الطرف رُدَّ إليه ذكرُ محبوبه متصلًا بها، مصاحبًا لها، فورد عليه قبل كلِّ واردٍ، وهجم عليه قبل كلِّ طارق. فإذا وردَتْ عليه الشواغل والقواطع وردَتْ علىٰ محلّ ممتلئ بمحبَّة ما يحبه، فوردت علىٰ ساحته مِن ظاهرها. فإذا قضىٰ وطره منها قضاه بمصاحبته لما في قلبه من الحبّ، فإنَّه قد لزمه ملازمة الغريم لغريمه ولذلك يسمَّىٰ «غرامًا»، وهو الحبُّ اللازم الذي

(١) من أرجوزة لجرير في «ديوانه» (٥١٢).

لا يفارق؛ فسمع بمحبوبه، وأبصر به، وبطَش به، ومشىٰ به. فصار محبوبه في وجوده في محلِّ سمعه الذي يسمَع به، وبصرِه الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها.

هذا مَثَلُ محبوبه في وجوده، وهو غير متَّحد به، بل هو قائم بذاته مباين له.

الموطن الثالث: عند دخوله في الصلاة، فإنَّها محكُّ الأحوال وميزان الإيمان، بها يوزن إيمان الرجل، ويتحقّق حاله ومقامه ومقدار قربه من الله ونصيبه منه، فإنَّها محلّ المناجاة والقربة، ولا واسطةَ فيها بين العبد وبين ربِّه. فلا شيءَ أقرُّ لعين المحبّ ولا ألذُّ لقلبه ولا أنعمُ لعيشه منها إن كان محبًّا، فإنَّه لا شيء آثرُ عند المحبّ ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه، ومناجاته له، ومُثُوله بين يديه، وقد أقبل بقلبه علىٰ محبوبه، وقد أقبل محبوبُه عليه. وكان قبل ذلك معذَّبًا بمقاساة الأغيار ومواصلة الخلق والاشتغال بهم، فإذا قام إلىٰ الصلاة هرب من سوىٰ الله إليه، وآوىٰ عنده، واطمأنَّ بذكره، وقرَّت عينُه بالمثول بين يديه ومناجاته. فلا شيء أهمُّ إليه من الصلاة، كأنَّه في سجن وضيق وغمٍّ حتَّىٰ تحضر الصلاة، فيجد قلبه قد انفسخ وانشرح واستراح، كما قال النبي ﷺ لبلال رضي الله عنه: «**يا بلال، أرِحْنا بالصلاة**»[1] ولم يقل: أَرِحْنا منها، كما يقول المبطلون الغافلون.

وقال بعض السلف: ليس بمستكمل الإيمان من لم يزل في همٍّ وغمٍّ حتىٰ تحضر الصلاة، فيزول همُّه وغمُّه، أو كما قال. فالصلاة قرَّة عيون المحبين، وسرور أرواحهم، ولذَّة قلوبهم، وبهجة نفوسهم، يحملون همَّ الفراغ منها إذا دخلوا فيها، كما يحمل الفارغ البطَّال همَّها حتَّىٰ يقضيها بسرعة، فلهم فيها

---

(١) سبق تخريجه.

شأن وللنقَّارين شأن! يشكون إلىٰ الله سوءَ صنيعهم بهم إذا ائتمُّوا بهم، كما يشكوا الغافل المعرض تطويلَ إمامه. فسبحان من فاضَلَ بين النفوس، وفاوتَ بينها هذا التفاوت العظيم!

وبالجملة فمن كان قرَّة عينه في الصلاة فلا شيء أحبُّ إليه ولا أنعمُ عنده منها، وبودِّه أن لو قطع عمرَه بها غيرَ مشتغلٍ بغيرها، وإنَّما يسلّي نفسه إذا فارقها بأنَّه سيعود إليها عن قرب. فهو دائمًا يثوب إليها، ولا يقضي منها وطرًا. فلا يزنُ العبد إيمانَه ومحبَّته لله بمثل ميزان الصلاة، فإنَّها الميزان العادل، الذي وزنه غير عائل[1].

الموطن الرابع: عند الشدائد والأهوال. فإنّ القلب في هذا الموطن لا يذكر إلَّا أحبَّ الأشياءِ إليه، ولا يهرب إلّا إلىٰ محبوبه الأعظم عنده. ولهذا كانوا يفتخرون بذكرهم من يحبّونهم عند الحرب واللقاء، وهو كثير في أشعارهم، كما قال[2]:

ذكرتُكِ والخطّيُّ يخطِر بيننا وقد نهِلَتْ منَّا المثقَّفةُ السُّمْرُ

وقال غيره[3]:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ كأنَّها أشطانُ بئرٍ في لَبان الأدهَمِ

وقد جاء في بعض الآثار: «يقول تبارك وتعالىٰ: إنَّ عبدي كلَّ عبدي

(١) غاير عائل: غير مائل وغير جائر بالنقص أو الزيادة.

(٢) لابن عطاء السندي. انظر: «الحماسة» (١/ ٦٦). والخطي: الرماح. «نهلت منّا» أي: رويت الرماحُ من دمائنا. والمثقَّفة وصف للرماح، وهي المقوَّمة المسوَّاة.

(٣) لعنترة في معلقته، انظر «ديوانه» (ص٢١٦). والأشطان جمع شطن، وهو حبل البئر. واللبان: الصدر. والأدهم يقصد به الفرس.

الـذي يذكـرُني وهـو مـلاقٍ قِرْنَـه»[(١)].

والسرّ في هذا -والله أعلم- أنَّ عند معاينة الشدائد والأهوال يشتدُّ خوف القلب من فوات أحبّ الأشياء إليه، وهي حياته التي لم يكن يؤثرها إلا لقربه من محبوبه، فهو إنَّما يحبُّ حياته لتنعُّمه بمحبوبه، فإذا خاف فوتها بدر إلىٰ قلبه ذكرُ المحبوب الذي يفوت بفوات حياته. ولهذا -والله أعلم- كثيرًا ما يعرض للعبد عند موته لهَجُه بما يحبُّه وكثرةُ ذكره له، وربما خرجت روحه، وهو يلهج به.

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «المحتضرين»[(٢)] عن زُفَر رحمه الله أنَّه جعل يقول عند موته: «لها ثلاثة أخماس الصداق، لها ربع الصداق، لها كذا...» حتَّىٰ مات؛ لامتلاءِ قلبه رحمه الله من محبّة الفقه والعلم.

وأيضًا، فإنَّه عند الموت تنقطع شواغله، وتتعطَّل حواسُّه، فيظهر ما في القلب، ويقوىٰ سلطانه، فيبدو ما فيه من غير حاجب ولا مدافع. وكثيرًا ما سُمِعَ من بعض المحتضرين عند الموت: «شاه مات»[(٣)]. وسُمِعَ من آخر بيتُ شعر لم يزل يغنّي به حتَّىٰ مات، وكان مغنّيًا. وأخبرني رجل عن قرابة له أنَّه حضره عند الموت -وكان تاجرًا يبيع القماش- قال فجعل يقول: «هذه قطعة جيدة، هذه علىٰ قدرك، هذه مشتراها رخيص يساوىٰ كذا وكذا...» حتَّىٰ مات. والحكايات في هذا كثيرة جدًّا.

فمن كان مشغولًا بالله وبذكره ومحبته في حال حياته وجد ذلك أحوجَ

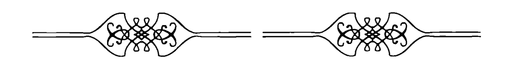
---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٨٠) وضعفه.

(٢) (ص ١٧٨).

(٣) انظر: «محاضرات الأدباء» (٢/ ٥٠٢). و«شاه» من أحجار الشطرنج.

ما هو إليه عند خروج روحه إلىٰ الله. ومن كان مشغولًا بغيره في حال حياته وصحَّته فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت، ما لم تدركه عناية من ربِّه. ولأجل هذا كان جديرًا بالعاقل أن يُلزِم قلبَه ولسانه ذكرَ الله حيثما كان، لأجل تلك اللحظة التي إن فاتته شقي شقاوة الأبد. فنسأل الله أن يعيننا علىٰ ذكره وشكره وحسن عبادته.



فصل

في درجات المحبة

المحبَّة درجات متفاوتة، بعضها أكمل من بعض، وكلُّ درجة خاصَّة بالنسبة إلىٰ ما تحتها، عامَّةٌ بالنسبة إلىٰ ما فوقها؛ فليس انقسامها إلىٰ خاصّ وعامّ انقسامًا حقيقيًّا متميِّزًا بفصلٍ يميِّز أحدَ النوعين عن الآخر. وإنَّما تنقسم باعتبار الباعث عليها وسببها، وتنقسم بذلك إلىٰ قسمين:

أحدهما: محبةٌ تنشأ من الإحسان، ومطالعة الآلاء والنعم، فإنَّ القلوب جُبلت علىٰ حبِّ مَن أحسن إليها، وبغضِ من أساء إليها. ولا أحدَ أعظم إحسانًا من الله سبحانه، فإنَّ إحسانه علىٰ عبده في كلِّ نفَس ولحظة، وهو يتقلَّب في إحسانه في جميع أحواله، ولا سبيل له إلىٰ ضبط أجناس هذا الإحسان فضلًا عن أنواعه أو عن أفراده، ويكفي أنَّ مِن بعض أنواعه نعمةَ النَفس التي لا تكاد تخطر ببال العبد، وله عليه في كلِّ يوم وليلةٍ فيه أربعة وعشرون ألف نعمة، فإنَّه يتنفَّس في اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفَس، وكلُّ نفَس نعمة منه سبحانه. فإذا كان أدنىٰ نعمة عليه في كلِّ يوم أربعة وعشرون ألف نعمة، فما الظنُّ بما فوق ذلك وأعظم منه؟ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

هذا إلىٰ ما يصرف عنه من المضرَّات وأنواع الأذىٰ التي تقصده، ولعلّها توازن النعم في الكثرة، والعبد لا شعور به بأكثرها أصلًا، والله سبحانه يكلؤه منها بالليل والنهار، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]. وسواءٌ كان المعنىٰ: مَن يكلؤكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءًا، ويكون «يكلؤكم» مضمَّنًا معنىٰ «يجيركم وينجيكم من بأسه»؛ أو كانت «مِن»

للبَدَلية أي: من يكلؤكم بدل الرحمن سبحانه، أي: هو الذي يكلؤكم وحده، لا كالئ لكم غيره.

ونظير «مِن» هذه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] علىٰ أحد القولين، أي: عوضكم وبدلكم. واستُشهِد علىٰ ذلك بقول الشاعر:

جاريةٌ لم تأكلِ المرقَّقا ولم تذُقْ من البقول الفُسْتُقا[١]

أي: لم تأكل الفستق بدل البقول.

وعلىٰ كلا القولين فهو سبحانه منعِم عليهم بكلاءَتِهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظَ لهم غيره. هذا مع غناه التامِّ عنهم وفقرهم التامِّ إليه، فإنّه سبحانه غَنيّ عن خلقه من كلّ وجه، وهم فقراءُ محتاجون إليه من كلّ وجه.

وفي بعض الآثار يقول تعالىٰ: «أنا الجواد، ومَن أعظم منّي جودًا وكرمًا؟ أبيت أكلأ عبادي في مضاجعهم وهم يبارزوني بالعظائم»[٢].

وفي «الترمذي»[٣] أنّ النبيّ ﷺ لمّا رأىٰ السحاب قال: **«هذه رَوايا الأرض يسوقها الله إلىٰ قوم لا يذكرونه ولا يعبدونه»**.

وفي «الصحيحين»[٤] عنه ﷺ أنّه قال: **«لا أحدَ أصبَرُ علىٰ أذىٰ سمعه من الله، إنَّهم ليجعلون له الولد، وهو يرزقهم ويعافيهم»**.

---

(١) الرجز لأبي نخيلة. انظر: «الشعر والشعراء» (٦٠٢). والمرقّق: الرغيف الواسع الرقيق.
(٢) أخرج أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥- ٩٦) عن الفضيل بن عياض نحوه.
(٣) برقم (٣٢٩٨)، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».
(٤) سبق تخريجه.

وفي بعض الآثار: «يقول تعالىٰ: ابنَ آدم، خيري إليك نازل، وشرُّك إليَّ صاعد. كم أتحبَّبُ إليك بالنعم، وأنا غنيّ عنك! وكم تتبغَّض إليَّ بالمعاصي، وأنت فقير إليَّ! ولا يزال الملَك الكريم يعرج إليَّ منك بعمل قبيح»[1].

ولو لم يكن مِن تحبُّبه إلىٰ عباده وإحسانه إليهم وبرّه بهم إلَّا أنَّه سبحانه خلق لهم ما في السماوات والأرض وما في الدنيا والآخرة، ثمّ أهَّلَهم وكرَّمهم، وأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وشرع لهم شرائعه، وأذِن لهم في مناجاته كلّ وقت أرادوا. وكتب لهم بكلِّ حسنة يعملونها عشرة أمثالها إلىٰ سبعمائة ضِعف إلىٰ أضعاف كثيرة، وكتب لهم بالسيِّئة واحدةً، فإن تابوا منها محاها وأثبت مكانها حسنةً. وإذا بلغت ذنوبُ أحدهم عَنان السماء ثمَّ استغفره غَفَر له. ولو لقيه بقُراب الأرض خطايا، ثمَّ لقيه بالتوحيد لا يشرك به شيئًا، لأتاه بقُرابها مغفرةً.

وشرع لهم التوبة الهادمة للذنوب، فوفَّقهم لفعلها، ثمَّ قبِلها منهم. وشرع لهم الحجّ الذي يهدم ما قبله، فوفَّقهم لفعله، وكفَّر عنهم سيئاتهم به. وكذلك ما شرعه لهم من الطاعات والقربات، هو الذي أمدَّهم بها، وخلقها لهم، وأعطاهم إيّاها، ورتّب عليها جزاءَها. فمنه السبب، ومنه الجزاءُ، ومنه التوفيق، ومنه العطاءُ أولًا وآخرًا. وهم محلُّ إحسانه فقط، ليس منهم شيء، إنّما الفضل كلُّه والنعمةُ كلُّها والإحسانُ كلُّه منه أولًا وآخرًا. أعطىٰ عبده ماله، وقال: تقرَّبْ بهذا إليَّ أقبَلْه منك. فالعبد له، والمال له، والثواب منه، فهو المعطي أولًا وآخرًا.

فكيف لا يحَبُّ مَن هذا شأنه؟ وكيف لا يستحيي العبد أن يصرف شيئًا من

(١) سبق تخريجه.

محبته إلىٰ غيره؟ ومَن أولىٰ بالحمد والثناءِ والمحبة منه سبحانه؟ ومن أولىٰ بالكرم والجود والإحسان منه؟ فسبحانه وبحمده، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

ويفرح سبحانه بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظمَ فرحٍ وأكمله، ويكفّر عنه ذنوبَه، ويُوجِب له محبَّتَه بالتوبة؛ وهو الذي ألهمه إيّاها، ووفَّقه لها، وأعانه عليها. وملأ سبحانه سماواته من ملائكته، واستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض. واستعمل حمَلةَ العرش منهم في الدعاءِ لعباده المؤمنين، والاستغفارِ لذنوبهم ووقايتهم عذابَ الجحيم، والشفاعة إليه بإذنه أن يُدخلهم جنَّاتِه. فانظر إلىٰ هذه العناية، وهذا الإحسان، وهذا التحنُّن والعطف والتحبُّب إلىٰ العباد، واللطف التامّ بهم!

ومع هذا كلِّه بعد أن أرسل إليهم رسُله، وأنزل عليهم كتُبه، وتعرَّف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه؛ ينزل كلَّ ليلة إلىٰ سماء الدنيا يسأل عنهم، ويستعرض حوائجهم بنفسه، ويدعوهم إلىٰ سؤاله، فيدعو مُسيئَهم إلىٰ التوبة، ومريضهم إلىٰ أن يسأله أن يشفيه، وفقيرهم إلىٰ أن يسأله غناه، وذا حاجتهم يسأله قضاءها كلَّ ليلة. ويدعوهم سبحانه إلىٰ التوبة، وقد حاربوه، وعذَّبوا أولياءه، وأحرقوهم بالنار. قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ** ﴾ [البروج: ١٠]. وقال بعض السلف: انظروا إلىٰ كرمه، كيف عذَّبوا أولياءَه، وحرَّقوهم بالنار؛ ثمَّ هو يدعوهم إلىٰ التوبة!

فهذا الباب يدخل منه كلُّ أحدٍ إلىٰ محبته سبحانه، فإنَّ نعمه علىٰ عباده مشهودة لهم، يتقلَّبون فيها علىٰ عدد الأنفاس واللحظات. وقد روي في بعض الأحاديث مرفوعًا: «**أحِبُّوا الله لِما يغذوكم به من نعمه، وأحِبّوني بحب الله**»[(١)].

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٨٩) وحسنه، وصححه الحاكم (٤٧١٦).

فهذه محبة تنشأ من مطالعة المنن والإحسان ورؤية النعم والآلاء، وكلَّما سافر القلب بفكره فيها ازدادت محبته وتأكَّدت. ولا نهاية لها فيقفَ سفر القلب عندها، بل كلَّما ازداد فيها نظرًا ازداد فيها اعتبارًا وعجزًا عن ضبط القليل منها، فيستدلّ بما عرفه علىٰ ما لم يعرفه.

والله سبحانه دعا عباده إليه من هذا الباب، حتَّىٰ إذا دخلوا منه دُعُوا **من الباب الآخر، وهو باب الأسماءِ والصفات** الذي إنَّما يدخل منه إليه خواصُّ عباده وأوليائه، وهو باب المحبّين حقًّا الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبَع من معرفته أحد منهم، بل كلَّما بدا له منه عَلَمٌ ازداد شوقًا ومحبَّةً وظمأً.

فإذا انضمَّ داعي الإحسان والإنعام إلىٰ داعي الكمال والجمال لم يتخلَّف عن محبَّة مَن هذا شأنه إلا أردأُ القلوب وأخبثُها وأشدُّها نقصًا وأبعدها من كلِّ خيرٍ. فإنَّ الله فطر القلوب علىٰ محبَّة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطَر عليها قلوبَ عباده، فمن المعلوم أنَّه لا أحد أعظم إحسانًا منه سبحانه، ولا شيء أكمل منه ولا أجمل؛ فكلّ كمال وجمال في المخلوق من آثار صُنْعه سبحانه، وهو الذي لا يُحَدُّ كمالُه، ولا يوصَف جلالُه وجمالُه، ولا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه. وإذ كان الكمال محبوبًا لذاته ونفسه وجَبَ أن يكون الله هو المحبوب لذاته وصفاته، إذ لا شيء أكمل منه.

وكلُّ اسم من أسمائه وصفة من صفاته تستدعي محبَّةً خاصَّةً، فإنَّ أسماءَه كلّها حسنىٰ، وهي مشتقَّة من صفاته، وأفعاله دالَّة عليها، فهو المحبوب المحمود لذاته ولصفاته وأفعاله وأسمائه، فهو المحبوب المحمود علىٰ كلِّ ما فعل، وعلىٰ كلِّ ما أمر؛ إذ ليس في أفعاله عبث، ولا في أوامره سَفَه. بل

أفعاله كلّها لا تخرج عن الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة، وكلُّ واحد من ذلك يستوجب الحمد والثناء والمحبَّة عليه، وأوامره كلّها مصلحة تستوجب الحمد والثناء والمحبة عليه. وكلامه كلّه صدق وعدل، وجزاؤه كلّه فضل وعدل؛ فإنَّه إن أعطىٰ فبفضله ورحمته ونعمته، وإن منع أو عاقبَ فبعدله وحكمته.

ما للعباد عليه حقٌ واجبٌ كلَّا ولا سعيٌ لديه ضائعُ
إن عُذِّبوا فبعدله، أو نُعِّموا فبفضله، وهو الكريم الواسعُ

ولا يتصوَّر بشَرٌ هذا المقامَ حقَّ تصوُّره فضلًا عن أن يوفِّيَه حقَّه. فأعرَفُ خلقِه به وأحبُّهم له يقول: «**لا أحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسك**»[1]. ولو شهد بقلبه صفة واحدة من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبَّةَ التامَّةَ عليها. وهل مع المحبّين محبة إلا من آثار صفات كماله؟ فإنَّهم لم يروه في هذه الدار، وإنَّما وصل إليهم العلم بآثار صفاته وآثار صنعه، فاستدلّوا بما علموه علىٰ ما غاب عنهم، وإلا فلو شاهدوه ورأوا جلاله وكماله وجماله سبحانه لكان لهم في حبّه شأنٌ آخر.

وإنَّما تفاوتت مراتبهم في محبّته علىٰ حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلم به، فأعرفهم له أشدُّهم حبًّا له. ولهذا كانت رسله صلوات الله وسلامه عليهم أعظمَ الناس حبًّا له، والخليلان من بينهم أعظمهم حبًّا، وأعرف الأمة به أشدّ له حبًّا من غيره.

ولهذا كان المنكرون لحبّه من أجهل الخلق به، فإنَّهم منكرون لحقيقة

---

(١) سبق تخريجه.

إلْهيَّته، ولملَّة الخليلين صلَّىٰ الله عليهما وسلَّم، ولفطرة الله التي فطر الله عبادَه عليها. ولو رجعوا إلىٰ قلوبهم لوجدوا حبَّه فيها، ووجدوا معتقدهم وبحثهم يكذِّب فِطَرهم. وإنَّما بُعثت الرسل بتكميل هذه الفطر وإعادة ما فسد منها إلىٰ الحالة الأولىٰ التي فطرت عليها، وإنَّما دعَوا إلىٰ القيام بحقوقها ومراعاتها لئلَّا تفسد وتنتقل عمَّا خُلقت له. وهل الأوامر والنواهي إلا خدَم وتوابع ومكملات ومصلحات لهذه الفطرة؟ وهل خلق سبحانه وتعالىٰ خلقَه إلا لعبادته التي هي غايةُ محبته والذلِّ له؟ وهل هُيِّئ الإنسان إلا لها؟ كما قيل:

قد هيَّؤوك لأمرٍ لو فطِنتَ له فاربأ بنفسك أن ترعَىٰ مع الهَمَلِ[1]

وهل في الوجود محبَّةٌ حقٌّ غير باطلة إلا محبته سبحانه؟ فإنَّ كلَّ محبَّةٍ متعلِّقةٍ بغيره فباطلة زائلة ببطلان متعلَّقها، وأمَّا محبته سبحانه فهو الحقُّ الذي لا تزول ولا تَبْطُل، كما لا يزول متعلَّقها ولا يفنىٰ. فكلُّ ما سوىٰ الله باطل، ومحبة الباطل كلها باطل. فسبحان الله كيف تُنكر المحبَّةُ الحقُّ التي لا محبَّة أحقّ منها، ويُعترَفُ بوجود المحبَّة الباطلة المتلاشية؟ وهل تعلَّقت المحبة بوجود محدَث إلا لكمالٍ في وجوده بالنسبة إلىٰ غيره؟ وهل ذلك الكمالُ إلا من آثار صنع الله الذي أتقن كلَّ شيء؟ وهل الكمال كلُّه إلا له؟ فكل من أحبَّ شيئًا لكمالٍ ما يدعوه إلىٰ محبته فهو دليل وعبرة علىٰ محبة الله، وأنَّه أولىٰ بكمال الحبِّ من كلِّ شيء. ولكن إذا كانت النفوس صغارًا كانت محبوباتها علىٰ قدرها، وأمَّا النفوس الكبار الشريفة فإنَّها إنَّما تبذل حبها لأجلّ الأشياء وأشرفها.

---

(١) للطغرائي في «لامية العجم». انظر: «الغيث المسجم» (٢/ ٤٣٨). والهَمَل: الإبل الضالة، ليس لها راعٍ.

والمقصود أنَّ العبد إذا اعتبر كلَّ كمال في الوجود وجده من آثار كماله سبحانه، فهو دالّ علىٰ كمال مبدعه؛ كما أنَّ كلَّ علم في الوجود فمن آثار علمه، وكلَّ قدرة فمن آثار قدرته. ونسبة الكمالات الموجودة في العالم العُلْوي والسفلي إلىٰ كماله كنسبة علوم الخلق وقُدَرهم وقواهم وحياتهم إلىٰ علمه سبحانه وقدرته وقوته وحياته. فإذن لا نسبة أصلًا بين كمالات العالم وكمال الله جلَّ جلاله، فيجب أن لا يكون بين محبته تعالىٰ ومحبة غيره من الموجودات نسبة، بل يكون حبّ العبد له أعظم من حبّه لكل شيء بما لا نسبة بينهما. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فالمؤمنون أشدُّ حبًّا لربّهم ومعبودهم تعالىٰ من كلّ محِبّ لكلِّ محبوب. هذا مقتضىٰ عقد الإيمان الذي لا يتمُّ إلا به.

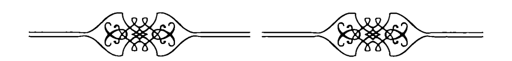
وليست هذه المسألة من المسائل التي للعبد عنها غنًىٰ أو منها بدٌّ، كدقائق العلم والمسائل التي يختصُّ بها بعض الناس دون بعض. بل هذه أفرضُ مسألةٍ علىٰ العبد، وهي أصل عقد الإيمان الذي لا يدخل فيه الداخل إلا بها، ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب الله إلا بها، فلْيشتغل بها العبد أو ليُعرض عنها.

ومن لم يتحقَّقْ بها علمًا وحالًا وعملًا لم يتحقَّق بشهادة أن لا إله إلا الله، فإنَّها سرُّها وحقيقتها ومعناها، وإن أبىٰ ذلك الجاحدون، وقصَّر عن علمه الجاهلون. فإنَّ الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهُه القلوب بحبها، وتخضع له، وتذِلّ له، وتخافه، وترجوه، وتنيب إليه في شدائدها، وتدعوه في مهمَّاتها، وتتوكَّل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه، وتطمئنُّ بذكره، وتسكن إلىٰ حبّه. وليس ذلك إلا الله وحده. ولهذا كانت[1] أصدقَ الكلام، وكان أهلُها أهلَ

(١) يعني: كلمة لا إله إلا الله.

الله وحزبَه، والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته.

فهذه المسألة قطب رحىٰ الدين الذي عليه مداره، وإذا صحَّت صحَّ بها كلُّ مسألة وحال وذوق، وإذا لم يصحّحها العبدُ فالفساد لازم له في علومه، وأعماله، وأحواله، وأقواله، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله.



٢/ ٧١١

فصل

في الشوق

اختلف النَّاس في الشوق والمحبَّة أيهما أعلىٰ؟ فقالت طائفة: المحبَّة أعلىٰ من الشوق. هذا قول ابن عطاء[١] وغيره. واحتجُّوا بأنَّ الشوق غايته أن يكون أثرًا من آثار المحبة، ويتولَّد عنها: فهي أصله، وهو فرعها. قالوا: والمحبة توجِب آثارًا كثيرةً، فمن آثارها الشوق.

وقالت طائفة منهم سَرِيٌّ السَّقَطي وغيره: الشوق أعلىٰ. قال الجنيد: سمعت السريَّ يقول: الشوق أجلّ مقامات العارف، إذا تحقَّق فيه. وإذا تحقَّق في الشوق لها عن كلِّ شيءٍ يشغله عمَّن يشتاق إليه[٢].

وإنَّما يظهر سرُّ المسألة بذكر فصلين: الفصل الأوَّل في حقيقة الشوق، والثاني في الفرق بينه وبين المحبة. ويتبع ذلك مسائل:

إحداها: هل يجوز إطلاقه علىٰ الله كما يطلق عليه أنَّه يحبُّ عبادَه أم لا؟

الثانية: هل يجوز إطلاقه علىٰ العبد، فيقال: يشتاق إلىٰ الله، كما يقال: يحبّه؟

الثالثة: أنَّه هل يقوىٰ بالوصول والقرب، أم يضعف بهما؟ فأي الشوقين أعلىٰ: شوق القريب الداني، أم شوق البعيد الطالب؟

الرابعة: ما الفرق بينه وبين الاشتياق، فهل هما بمعنىٰ واحد أم بينهما فرق؟

---

(١) انظر: «الرسالة القشيرية» (٣٣٠).

(٢) «الرسالة القشيرية» (٣٣٢).

الفصل الأوَّل

في حقيقته

الشوقُ هو سفرُ القلب في طلب محبوبه، بحيث لا يقرُّ قرارُه حتَّىٰ يظفر به ويحصل له.

وقيل: هو لهيب ينشأ بين أثناء الحشا، سببه الفرقة. فإذا وقع اللقاءُ أطفأ ذلك اللهيب[(١)].

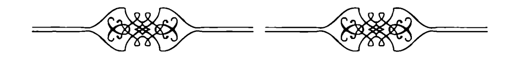
وقيل: الشوق هبوب القلب إلىٰ محبوب غائب عنه[(٢)].

وقال ابن خفيف: الشوق ارتياح القلوب بالوجد، ومحبَّة اللقاءِ بالقرب[(٣)].

وقيل: الشوق نزوع القلوب نحو المحبوب من غير منازع.

ويقال: الشوق انتظار اللقاءِ بعد البعاد.

فهذه الحدود ونحوها مشتركة في أنَّ الشوق إنَّما يكون مع الغيبة من المحبوب، وأمَّا مع حضوره ولقائه فلا شوق. وهذه حجة من جعل المحبة أعلىٰ منه، فإنَّ المحبة لا تزول باللقاءِ. وبهذا يتبين الكلام في:



(١)«الرسالة القشيرية» (٣٣٠).
(٢)«منازل السائرين» (٧٣).
(٣)«الرسالة القشيرية» (٣٣١).

﴿ الفصل الثاني ﴾

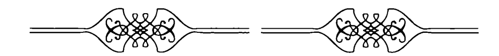
وهو الفرق بينه وبين المحبة

والفرق بينهما فرق ما بين الشيء وأثره. فإنَّ الحامل علىٰ الشوق هو المحبة، ولهذا يقال: لمحبتي له اشتقتُ إليه، وأحببتُه فاشتقتُ إلىٰ لقائه. ولا يقال: لشوقي إليه أحببتُه، ولا: اشتقتُ إلىٰ لقائه فأحببتُه. فالمحبَّة بَذْرٌ في القلب، والشوق بعض ثمرات ذلك البذر.

وكذلك من ثمراتها: حمدُ المحبوب، والرضا عنه، وشكره، وخوفه، ورجاؤه، والتنعُّم بذكره، والسكون إليه، والأنس به، والوحشَةُ بغيره. وكلّ هذه من أحكام المحبة، وثمراتها، وموجباتها.

فمنزلة الشوق من المحبة منزلة الهرب من البغضاء والكراهة. فإنَّ القلب إذا أبغض الشيءَ وكرهه جدَّ في الهرب منه، وإذا أحبَّه جدَّ في الهرب إليه وطلبه؛ فهو حركة القلب في الظفر بمحبوبه.

ولشدَّة ارتباط الشوق بالمحبَّة يقع كلُّ واحد منهما موقعَ صاحبه، ويُفهَم منه، ويُعبَّر عنه.



فصل

هل يجوز إطلاق الشوق علىٰ الله تعالىٰ؟

وأمَّا المسائل فإحداها: هل يجوز إطلاقه علىٰ الله؟

فهذا ممَّا لم يرد به القرآن ولا السنَّة بصريح لفظه. قال صاحب «منازل السائرين» وغيره: وسبب ذلك أنَّ الشوق إنَّما يكون لغائب. ومذهب هذه الطائفة إنَّما قام علىٰ المشاهدة، ولهذا السبب عندهم لم يجئ في حقِّ الله ولا في حقِّ العبد[1].

وجوَّزت طائفةٌ إطلاقَه كما يطلَق عليه سبحانه المحبَّة، ورووا في أثر أنَّه تعالىٰ يقول: «طال شوق الأبرار إلىٰ لقائي، وأنا إلىٰ لقائهم أشوَق»[2].

وفي أثر آخر: أنَّ الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داود عليه السلام: قل لشبَّان بني إسرائيل: لِمَ تشغلوا أنفسكم بغيري، وأنا مشتاق إليكم؟ ما هذا الجفاء؟[3].

وفي أثر آخر: أوحىٰ الله إلىٰ داود عليه السلام: لو يعلم المُدْبِرون عنِّي كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم، وشوقي إلىٰ ترك معاصيهم؛ لماتوا شوقًا إليَّ، وانقطعَتْ أوصالُهم من محبَّتي. يا داود، هذه إرادتي في المدبرين عنِّي، فكيف إرادتي في المقبلين عليَّ؟[4].

قالوا: وهذا الذي تقتضيه الحقيقة، وإن لم يَرِد به لفظ صريح، فالمعنىٰ

---

(١) «منازل السائرين» (٧٣).
(٢) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (٨٠٦٧) عن أبي الدرداء رضي الله عنه.
(٣) «الرسالة القشيرية» (٣٣٢).
(٤) «الرسالة القشيرية» (٣٣٢).

حقّ، فإنَّ كلَّ محبٍّ فهو مشتاق إلىٰ لقاءِ محبوبه.

قالوا: وأمَّا قولكم إنَّ الشوق إنَّما يكون إلىٰ غائب، وهو سبحانه لا يغيب عن عبده، ولا يغيب العبد عنه؛ فهذا حضور العلم. وأمَّا اللقاء والقرب فأمرٌ آخر. فالشوق يقع بالاعتبار الثاني، وهو قرب الحبيب ولقاؤه والدنو منه، وهذا له أجلٌ مضروب لا يُنال قبله. قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]. قال أبو عثمان الحِيْري: هذا تعزية للمشتاقين، معناه: إنِّي أعلم أنَّ اشتياقكم إليَّ غالب، وأنا أجَّلتُ للقائكم أجلًا، وعن قريب يكون وصولكم إلىٰ من تشتاقون إليه[1].

والصواب أن يقال: إطلاق اللفظ متوقِّف علىٰ السمع، ولم يَرِدْ به، فلا ينبغي إطلاقه. وهذا كلفظ «العشق» أيضًا، فإنَّه لمَّا لم يرِدْ به سمعٌ فإنَّه يمتنع إطلاقُه عليه سبحانه. واللفظ الذي أطلقه سبحانه علىٰ نفسه وأخبر به عنها أتمُّ من هذا وأجلُّ شأنًا، هو لفظ «المحبة». فإنَّه سبحانه يوصف من كلِّ صفةِ كمالٍ بأكملِها وأجلِّها وأعلاها، فيوصف من الإرادة بأكملها، وهو الحكمة وحصول كلّ ما يريد بإرادته كما قال تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] وبإرادة اليسر لا العسر، كما قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وبإرادة الإحسان وإتمام النعمة علىٰ عباده، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]، فإرادة التوبة له، وإرادة الميل لمتَّبعي الشهوات. وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

---

(١) «الرسالة القشيرية» (٣٣٢).

وكذلك الكلام، يصف نفسه منه بأعلىٰ أنواعه، كالصدق والعدل والحقّ. وكذلك الفعل، يصف نفسه منه بأكمله وهو العدل والحكمة والمصلحة والنعمة.

وهكذا المحبة، وصف نفسه منها بأعلاها وأشرفها، فقال تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، و ﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. ولم يصِفْ نفسه بغيرها من العلاقة والميل والصبابة والعشق والغرام ونحوها، فإنَّ مسمَّىٰ المحبَّة أشرفُ وأكملُ من هذه المسمَّيات، فجاءَ في حقِّه إطلاقُه دونها، وهذه المسمَّيات لا تنفكُّ عن لوازم ومعانٍ تنزَّه تعالىٰ عن الاتّصاف بها.

وهكذا جميع ما أطلقه علىٰ نفسه من صفاته العلىٰ أكمل معنًىٰ ولفظًا ممَّا لم يطلقه. فالعليم الخبير أكمل من الفقيه والعارف، والكريم الجواد أكمل من السخيّ، والخالق البارئ المصوِّر أكملُ من الصانع الفاعل، ولهذا لم تجئ هذه في أسمائه الحسنىٰ. والرحيم والرؤوف أكمل من الشفيق والمشفق. فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه علىٰ نفسه من الأسماء والصفات والوقوف معها، وعدم إطلاق ما لم يطلقه علىٰ نفسه ما لم يكن مطابقًا لمعنىٰ أسمائه وصفاته؛ وحينئذٍ فيطلق المعنىٰ لمطابقته لها دون اللفظ، ولا سيَّما إذا كان مجملًا أو منقسمًا إلىٰ ما يمدح به وغيره، فإنَّه لا يجوز إطلاقه إلا مقيَّدًا.

وهذا كلفظ الفاعل والصانع، فإنَّه لا يطلق عليه في أسمائه الحسنىٰ إلا إطلاقًا مقيَّدًا، كما أطلقه علىٰ نفسه، كقوله تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، فإنَّ اسم الفاعل والصانع منقسم المعنىٰ إلىٰ ما يمدح عليه ويذَمّ.

ولهذا المعنىٰ -والله أعلم- لم يجئ في الأسماء الحسنىٰ «المريد»، كما جاء فيها «السميع البصير»، ولا «المتكلم» ولا «الآمر الناهي»، لانقسام مسمَّىٰ هذه الأسماء؛ بل وصَفَ نفسه بكمالاتها وأشرف أنواعها.

ومن هنا يُعلَم غلطُ بعض المتأخرين وزَلَقُه الفاحش في اشتقاقه له سبحانه من كلِّ فعلٍ أخبر به عن نفسه اسمًا مطلقًا، وأدخله في أسمائه الحسنىٰ! فاشتقَّ له اسم الماكر، والخادع، والفاتن، والمضلّ، والكاتب، ونحوها من قوله: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ومن قوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ومن قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] ومن قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة: ٢١]. وهذا خطأ من وجوه:

أحدها: أنَّه سبحانه لم يطلق علىٰ نفسه هذه الأسماء، فإطلاقها عليه لا يجوز.

الثاني: أنَّه سبحانه إنَّما أخبر عن نفسه بأفعال مختصَّة مقيَّدة، فلا يجوز أن ينسب إليه مسمَّىٰ الاسم عند الإطلاق.

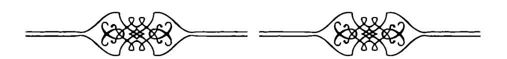
الثالث: أنَّ مسمَّىٰ هذه الأسماء منقسم إلىٰ ما يمدَح عليه المسمَّىٰ به، وإلىٰ ما يذَمّ. فيحسن في موضع، ويقبح في موضع. فيمتنع إطلاقه عليه سبحانه من غير تفصيل.

الرابع: أنَّ هذه ليست من الأسماء الحسنىٰ التي تَسمَّىٰ بها سبحانه، فلا يجوز أن يسمَّىٰ بها، فإنَّ أسماء الربّ تعالىٰ كلَّها حسنىٰ. كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وهي التي يُحَبُّ سبحانه ويُثنىٰ عليه ويحمَد ويمجَّد بها دون غيرها.

الخامس: أنَّ هذا القائل لو سُمِّي بهذه الأسماء، وقيل له: هذه مِدْحَتُك

وثناءٌ عليك، فأنتَ الماكر الفاتن المخادع المضلّ اللاعن الفاعل الصانع ونحوها، أكان يرضىٰ بإطلاق هذه الأسماء عليه ويعدُّها مدحةً؟ ولله المثل الأعلىٰ سبحانه وتعالىٰ عمَّا يقول الجاهلون به علوًّا كبيرًا.

السادس: أنَّ هذا القائل يلزمه أن يجعل من أسمائه: اللاعن، والجائي، والآتي، والذاهب، والتارك، والمقاتل، والصارف، والمنزل، والنازل، والمُدَمْدِم، والمدمِّر، وأضعاف أضعاف ذلك؛ فيشتقَّ له اسمًا من كلِّ فعل أخبر به عن نفسه، وإلا تناقَضَ تناقضًا بيِّنًا، ولا يمكنه ولا أحدًا من العقلاء طردُ ذلك. فعُلِمَ بطلان قوله، والحمد لله ربِّ العالمين.



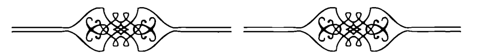
فصل

هل يطلق علىٰ العبد أنه يشتاق إلىٰ الله وإلىٰ لقائه؟

وأمَّا المسألة الثانية وهي: هل يطلق علىٰ العبد أنَّه يشتاق إلىٰ الله وإلىٰ لقائه؟

فهذا غير ممتنع، فقد روىٰ الإمام أحمد في «مسنده» والنسائي وغيرهما[(١)] من حديث حمَّاد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن أبيه قال: صلَّىٰ بنا عمَّار بن ياسر رضي الله عنه صلاةً فأوجز فيها، فقلتُ: خفَّفتَ يا أبا اليقظان، فقال: وما عليَّ من ذلك، ولقد دعوتُ الله بدعواتٍ سمعتُها من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلمَّا قام تبعه رجل من القوم فسأله عن الدعوات، فقال: «**اللّهم بعلمك الغيبَ وقدرتِك علىٰ الخلق أحْيِنِي ما علمتَ الحياةَ خيرًا لي، وتوفَّني إذا علمتَ الوفاةَ خيرًا لي. اللّهم إنِّي أسألك خشيتَك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحقّ في الغضب والرضا، وأسألك القصدَ في الغنىٰ والفقر، وأسألك نعيمًا لا يَنْفَد، وقرَّةَ عينٍ لا تنقطع. وأسألك الرضا بعد القضاء، وبردَ العيشِ بعد الموت. وأسألك لذَّةَ النظر إلىٰ وجهك، والشوقَ إلىٰ لقائك، في غير ضرَّاءَ مُضِرَّةٍ ولا فتنة مضلَّة. اللهم زيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هُداةً مهتدين**».

فهذا فيه إثباتُ لذَّة النظر إلىٰ وجهه الكريم، وشوق أحبابه إليه وإلىٰ لقائه، فإنَّ حقيقة الشوق إليه هو الشوق إلىٰ لقائه.



(١) أخرجه النسائي (١٣٠٥) من هذا الطريق، وصححه ابن حبان (١٩٧١)، والحاكم (١/ ٥٢٤). وأخرجه أحمد (١٨٣٢٥) من طريق آخر.

فصل

هل يزول الشوق باللقاء أم يقوىٰ؟

وأمَّا المسألة الثالثة وهي: هل يزول الشوق باللقاء أم يقوىٰ؟

فقالت طائفة: الشوق يزول باللقاء، لأنَّه طلب، فإذا حصل المطلوب زال الطلب؛ لأنَّ تحصيل الحاصل محال، ولا معنىٰ للشوق إلىٰ شيء حاصل، وإنَّما يكون الشوق إلىٰ شيءٍ مرادِ الحصول محبوب الإدراك.

وقالت طائفة أخرىٰ: ليس كذلك، بل الشوق يزيد بالوصول واللقاء، ويتضاعف بالدنوّ. ولهذا قال القائل:

وأعظمُ ما يكون الشوقُ يومًا ... إذ دنت الدِّيارُ من الدِّيارِ[١]

ولهذا قال بعضهم: شوق أهل القرب أتمُّ من شوق المحبوبين. واحتجَّت هذه الطائفة بأنَّ الشوق من آثار الحبِّ ولوازمه، وكما أنَّ الحبَّ لا يزول باللقاءِ، فهكذا الشوق الذي لا يفارقه. قالوا: ولهذا لا يزول الرضا والحمد والإجلال والمهابة التي هي من آثار المحبَّة باللقاء، فهكذا الشوق يتضاعف ولا يزول. والقولان حقّ.

وفصل الخطاب في المسألة أنَّ المحبَّ إذا اشتاق إلىٰ لقاء محبوبه، فإذا حصل له اللقاءُ زال ذلك الشوق الذي كان متعلِّقًا بلقائه، وخلَفَه شوق آخر أعظم منه وأبلغ إلىٰ ما يزيد قربَه والحظوةَ عنده. وأمَّا إذا قدر أنه لقيه ثمَّ احتجب عنه ازداد شوقُه إلىٰ لقاءٍ آخر، ولا يزال يحصل له الشوق كلَّما

(١) أنشده أبو إسحاق الموصلي. انظر: «الرسالة القشيرية» (٣٣٢).

حُجِب عنه، فهذا لا ينقطع شوقه أبدًا، فهو إذا رآه بلّ شوقَه برؤيته، وإذا زال عنه الطرفُ عاوده الشوق، كما قيل:

ما يرجع الطَّرْف عنه عند رؤيته حتَّىٰ يعود إليه الطرفُ مشتاقا(١)

وإنَّما الشأن في دوام الشوق حالَ الوصول واللقاء. فاعلم أنَّ الشوق نوعان: شوق إلىٰ اللقاء، فهذا يزول باللقاء. وشوق في حال اللقاء، وهو تعلّق الروح بالمحبوب تعلُّقًا لا ينقطع أبدًا، فلا تزال الروح مشتاقةً إلىٰ مزيد هذا التعلّق وقوَّته اشتياقًا لا يهدأ. وقد أفصح بعد المحبِّين للمخلوق عن هذا المعنىٰ بقوله:

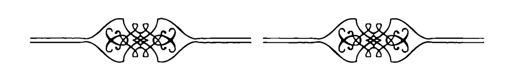
أعانقُها والنفسُ بعدُ مَشُوقةٌ إليها وهل بعد العِناق تداني؟
وألثمُ فاها كي تزول صَبابتي فيشتدُّ ما ألقَىٰ من الهَيَمانِ(٢)

فالشوق في حال الوصل والقرب إلىٰ مزيد النعيم واللذة لا ينقطع، والشوق في حال السير إلىٰ اللقاءِ ينقطع. ونستغفر الله من الكلام فيما لسنا بأهل له:

فالخوف أولىٰ بالمسي ءِ إذا تألَّهَ والحَزَنْ
والحبُّ يجمُل بالتقي وبالنقيّ من الدَّرَن
لكن إذا ما لم يُحِبّـ ـكم المسيءُ إذن فَمَن
وإذا تخوَّن فعلُنا فعل المحبّة مؤتَمَنْ

(١) لإبراهيم بن العباس الصولي في «ديوانه» (١٤٧).
(٢) لابن الرومي في «ديوانه» (٢٤٧٥).

أيحبُّ شيئًا غيرَكم وحياتِكم كلّا ولَنْ
أيحِبُّ من تأتي محبَّـ ـتُه بأنواع المِحَنْ
والسَّعْدُ فيها ذابحٌ والقلبُ فيها ممتحَنْ
دونَ الذي في حبّه نيلُ السعادة والمِنَنْ
ومحلُّ بدرِ كمالِها سعدُ السعود هو الوطن
والقلبُ حين يحُلُّ في تلك المنازل والدِّمَنْ
يمسي ويصبح مِن رضا ه ومن مُناه في وطَنْ
أيحبُّهم قلبٌ ويخـ ـشىٰ أن يُضامَ؟ فلا إذَنْ[1]



(١) ورد البيتان الأولان في «الرسالة القشيرية» (٣٢٧) لذي النون.

فصل

الفرق بين الشوق والاشتياق

وأمَّا المسألة الرابعة وهي: الفرق بين الشوق والاشتياق. فقال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعتُ النصراباذيّ يقول: للخلق كلّهم مقام الشوق، وليس لهم مقام الاشتياق. ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه حتّىٰ لا يرىٰ له أثر ولا قرار. وهذا يدلّ علىٰ أنّ الاشتياق عنده غير الشوق.

ولا ريب أنّ «الاشتياق» مصدر اشتاق يشتاق اشتياقًا، كما أنَّ «التشوُّق» مصدر تشوَّقَ تشوُّقًا. و«الشوق» في الأصل مصدر شاقَه يَشُوقه شَوقًا -مثل ساقه سوقًا- إذا دعاه إلىٰ الاشتياق. فالاشتياق مطاوع شاقَه، يقال: شاقني فاشتقتُ إليه. ثمَّ صار الشوق اسمَ مصدر الاشتياق وغلب عليه، حتَّىٰ لا يفهم منه عند الإطلاق إلّا الاشتياق القائم بالمشوق. والمَشُوق هو الصبُّ المشتاق، والشائق هو الذي قام به داعي الشوق.

فهاهنا ألفاظ: الشوق، والاشتياق، والتشوُّق، والشائق، والمشوق، والشيِّق. فهذه ستة ألفاظ:

أحدها: «الشوق»، وهو في الأصل مصدر الفعل المتعدِّي شاقه يشوقه، ثمَّ صار اسم مصدر الاشتياق.

اللفظ الثاني: «الاشتياق»، وهو مصدر اشتاق اشتياقًا. والفرق بينه وبين الشوق هو الفرق بين المصدر واسم المصدر.

اللفظ الثالث: «التشوُّق»، وهو مصدر تشوَّقَ، إذا اشتاق مرَّةً بعد مرَّةٍ، كما

يقال: تجرَّع، وتعلَّم، وتفهَّم. وهذا البناءُ يُشعِر بالتكلُّف وتناول الشيء علىٰ مهلة.

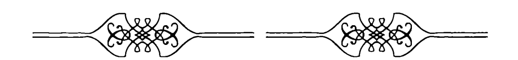
اللفظ الرابع: «الشائق»، وهو الداعي للمشوق إلىٰ الاشتياق.

واللفظ الخامس: «المشُوق»، وهو المشتاق الذي قد حصل له الشوق.

اللفظ السادس: «الشيِّق»، وهو فَيْعِل بمنزلة هيِّن وليِّن، وهو المشتاق.

فهذه فروق ما بين هذه الألفاظ.

وأمّا كون الاشتياق أبلغ من الشوق، فهذا قد يقال فيه إنّه الأصل، وهو أكثر حروفًا من الشوق، وهو يدل علىٰ المصدر والفاعل. وأمَّا «الشوق» ففرع عليه، لأنّه اسم مصدر، وأقلُّ حروفًا، وهو إنّما يدلّ علىٰ المصدر المجرّد، فهذه ثلاثة فروق بينهما. والله أعلم.



فصل

٢/ ٧٦١

في مراتب المكلَّفين في الدار الآخرة وطبقاتهم فيها.

وهم ثمانِ عشرةَ طبقةً

الطبقة الأولىٰ وهي العُليا على الإطلاق: مرتبة الرسالة، فأكرمُ الخلق على الله وأخصُّهم بالزلفىٰ لديه رسلُه، وهم المصطفون من عباده الذين سلَّم عليهم في العالمين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١]. وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، وقال تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٩-١١٠]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]، وكلمة «السلام» هنا تحتمل أن تكون داخلةً في حيِّز القول، فتكون معطوفة علىٰ الجملة الخبرية وهي «الحمد لله»، ويكون الأمر بالقول متناولًا للجملتين معًا، وعلىٰ هذا فيكون الوقف علىٰ الجملة الأخيرة، ويكون محلّها النصب محكيَّةً بالقول.

ويحتمل أن تكون جملةً مستأنفةً مستقِلَّةً معطوفةً علىٰ جملة الطلب. وعلىٰ هذا فلا محلَّ لها من الإعراب. وهذا التقدير أرجح، وعليه يكون السلام من الله عليهم، وهو المطابق لما تقدَّم من سلامه سبحانه علىٰ رسله.

وعلىٰ التقدير الأوَّل يكون أمرًا بالسلام عليهم، ولكن يقال علىٰ هذا: كيف يُعطَف الخبرُ علىٰ الطلب مع تنافر ما بينهما؟ فلا يحسن أن يقال: «قُمْ وذهَبَ زيد»، ولا: «اخرُجْ وقعدَ وعمرو»، ويجاب عن هذا بأنَّ جملة الطلب

قد حكيت بجملة خبرية، ومثل هذا لا يمتنع العطف فيه بالخبر علىٰ الجملة الطلبية لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه.

ونظير هذا قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. فقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ﴾ ليس معطوفًا علىٰ المحكي بالقول وهو «انظروا» بل معطوف علىٰ الجملة الكبرىٰ.

علىٰ أنَّ عطف الخبر علىٰ الطلب كثير، كقوله تعالىٰ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

والمقصود أنَّه علىٰ هذا القول يكون الله سبحانه قد سلَّم علىٰ المصطَفَين من عباده، والرسل أفضلهم. وقد أخبر سبحانه أنَّه أخلَصَهم بخالصةٍ ذكرىٰ الدار، وأنَّهم عنده من المصطفَين الأخيار. ويكفي في فضلهم وشرفهم أنَّ الله سبحانه اختصَّهم بوحيه، وجعلهم أُمَناءَ علىٰ رسالته، ووسائط بينه وبين عباده، وخصَّهم بأنواع كرامته: فمنهم من اتَّخذه خليلًا، ومنهم من كلَّمه تكليمًا، ومنهم من رفعه علىٰ سائرهم درجات. ولم يجعل لعباده وصولًا إليه إلا من طريقهم، ولا دخولًا إلىٰ جنته إلا من خلفهم، ولم يكرم أحدًا منهم بكرامة إلا علىٰ أيديهم؛ فهم أقرب الخلق إليه وسيلةً، وأرفعهم عنده درجةً، وأحبهم إليه وأكرمهم عليه.

وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إنَّما ناله العبادُ علىٰ أيديهم. وبهم عُرِفَ اللهُ، وبهم عُبِدَ وأُطيع، وبهم حصلت محابُّه تعالىٰ في الأرض، وأعلاهم منزلةً أولو العزم منهم المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ

نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق، وعليهم تدور الشفاعة حتىٰ يردّوها إلىٰ خاتمهم وأفضلهم ﷺ.

الطبقة الثانية: مَن عداهم من الرسل علىٰ مراتبهم من تفضيلهم بعضهم علىٰ بعض.

الطبقة الثالثة: الأنبياء الذين لم يُرسَلوا إلىٰ أُممهم، وإنَّما كانت لهم النبوة دون الرسالة، فاختُصُّوا عن الأمة بإيحاءِ الله إليهم، وإرساله ملائكته إليهم، واختصَّت الرسلُ عنهم بإرسالهم إلىٰ الأمة يدعونهم إلىٰ الله بشريعته وأمره، واشتركوا في الوحي ونزول الملائكة عليهم.

الطبقة الرابعة: ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم، وهم القائمون بما بُعثوا به علمًا وعملًا ودعوةً للخلق إلىٰ الله علىٰ طرقهم ومنهاجهم. وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة وهي مرتبة الصدِّيقية.

ولهذا قرنهم الله تعالىٰ في كتابه بالأنبياء فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، فجعل درجةَ الصدّيقية تلي درجةَ النبوة. وهؤلاء هم الربَّانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول ﷺ وأمته. فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبُه وخاصَّتُه وحَمَلةُ دينه، وهم المضمون لهم أنَّهم لا يزالون علىٰ الحقِّ، لا يضرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتَّىٰ يأتي أمر الله وهم علىٰ ذلك.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ [الحديد: ١٩]. وقد قيل: إنَّ الوقف علىٰ قوله: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ ثمَّ يبتدئ ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، فيكون الكلام جملتين: أخبر في إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنَّهم هم الصدِّيقون، والإيمان التامّ يستلزم العلمَ والعملَ والدعوةَ إلىٰ الله سبحانه بالتعليم والصبرَ عليه، وأخبر في الثانية أنّ الشهداءَ عند ربّهم لهم أجرهم ونورهم.

ومرتبة الصدّيقين فوق مرتبة الشهداءِ، ولهذا قدَّمهم عليهم في الآيتين: هنا وفي سورة النساءِ. وهكذا جاءَ ذكرُهم مقدَّمًا علىٰ الشهداءِ في كلام النبيّ ﷺ في قوله: «**اثبُتْ أُحدُ، فإنّما عليك نبيّ وصدِّيق وشهيدان**»[(١)]. ولهذا كان نعت الصدّيقية وصفًا لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، وهو أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه. ولو كان بعد النبوة درجةٌ أفضلُ من الصدّيقية لكانت لقبًا له رضي الله عنه.

وقيل: إنَّ الكلام كلَّه جملة واحدة، وأخبر عن المؤمنين بأنَّهم هم الصدّيقون والشهداءُ عند ربّهم، وعلىٰ هذا فالشهداءُ هم الذين يستشهدهم الله علىٰ الناس يوم القيامة، وهو قوله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهم المؤمنون. فوصَفَهم بأنَّهم صدِّيقون في الدنيا شهداءُ علىٰ الناس يوم القيامة، ويكون الشهداءُ وصفًا لجملة المؤمنين الصدِّيقين.

وقيل: الشهداءُ هم الذين قُتِلوا في سبيل الله. وعلىٰ هذا القول يترجَّح أن يكون الكلام جملتين، ويكون قولُه: «والشهداء» مبتدأً خبره ما بعده؛ لأنَّه ليس كلُّ مؤمن صدِّيقٍ شهيدًا في سبيل الله.

ويرجِّحه أيضًا أنَّه لو كان «الشهداء» داخلًا في جملة الخبر عن المؤمنين

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٥).

لكان قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩] داخلًا أيضًا في جملة الخبر عنهم، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء: أحدها: أنَّهم هم الصدِّيقون، والثاني: أنَّهم الشهداء، والثالث: أنَّهم لهم أجرهم ونورهم. وذلك يتضمَّن عطفَ الخبر الثاني على الأوَّل، ثمَّ ذِكْرَ الخبر الثالث مجرَّدًا عن العطف. وهذا كما تقول: «زيد كريم وعالم له مال». والأحسن في هذا تناسبُ الأخبار بأنَّ تُجرِّدها كلَّها من العطف، أو تعطفها جميعًا، فتقول: «زيد كريم عالم له مال»، أو «كريم وعالم وله مال». فتأمَّله.

ويرجِّحه أيضًا أنَّ الكلام يصير جملًا مستقلَّةً قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء، وهم: الصدِّيقون، والشهداءُ، والصالحون وهم المذكورون في أوَّل الآية، وهم المتصدِّقون الذين أقرضوا الله قرضًا حسنًا؛ فهؤلاء ثلاثة أصناف. ثمَّ ذكَرَ الرسُلَ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة في سورة النساء، فهؤلاء هم السعداء. ثمَّ ذكر الأشقياء وهم نوعان: كفار، ومنافقون، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩]. وذكَر المنافقون في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا﴾ [الحديد: ١٣].

فهؤلاء أصناف العالم كلّهم. وترك سبحانه ذكرَ المخلّط صاحب الشائبتين على طريقة القرآن في ذكر السعداء والأشقياء دون المخلِّطين غالبًا لسرٍّ اقتضَتْه حكمتُه سبحانه وتعالى. فليحذَرْ صاحب التخليط، فإنَّه لا ضمان له على الله، ولا هو من أهل وعده المطلق. ولا ييأس من رَوح الله، فإنَّه ليس من الكفار الذين قطع لهم بالعذاب. ولكنَّه بين الجنَّة والنَّار، واقف بين الوعد والوعيد، كلٌّ منهما يدعوه إلى موجَبه لأنَّه أتى بسببه. وهذا هو الذي لحظه القائلون

بالمنزلة بين المنزلتين، ولكن غلطوا في تخليده في النار. ولو نزَّلوه منزلةً بين المنزلتين، ووكلوه إلىٰ المشيئة، وقالوا بأنَّه يخرج من النار بتوحيده وإيمانه، لأصابوا. ولكن «منزلةٌ بين منزلتين وصاحبُها مخلَّدٌ في النَّار» ممَّا لا يقتضيه عقل ولا سمع، بل النصوص الصريحة المعلومة الصحَّة تشهد ببطلان قولهم، والله أعلم.

وأيضًا فصاحب الشائبتين يُعلَم حكمُه من نصوص الوعد والوعيد، فإنَّ الله سبحانه رتَّب علىٰ كلِّ عملٍ جزاءً في الخير والشرِّ، فإذا أتىٰ العبد بهما كان فيه سبب الجزائين، والله لا يضيِّع مثقال ذرَّة. فإن كان عملُ الشرِّ ممَّا يوجب سقوط أثر الحسنة كالكفر كان التأثير له، وإن لم يُسقطه كالمعصية ترتَّب في حقه الأثران، ما لم يسقط أحدُهما بسبب من الأسباب التي سنذكرها إن شاء الله فيما بعد.

والمقصود أنَّ درجة الصدِّيقية والرَّبانية، ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأُمة. ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلَّا أنَّ كلَّ مَن علم بتعليمهم وإرشادهم أو علَّم غيرَه شيئًا من ذلك كان لهم مثلَ أجره ما دام ذلك جاريًا في الأُمة علىٰ آباد الدهور. وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال لعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «**واللهِ لأن يَهدي اللهُ بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمْر النَّعم**»[1].

وصحّ عنه ﷺ أنَّه قال: «**من سنَّ في الإسلام سنّةً حسنةً فعُمِل بها بعدَه كان له مثلُ أجر مَن عمل بها، لا ينقص من أجورهم شيئًا**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧).

وصحَّ عنه ﷺ أنّه قال: «إذا مات العبد انقطع عملُه إلّا من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفَع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»(١).

وصحَّ عنه ﷺ أنَّه قال: «مَن يُردِ اللهُ به خيرًا يُفقِّهْه في الدِّين»(٢).

وفي «السنن»(٣) عنه ﷺ أنَّه قال: «إنَّ العالم يَسْتغفِر له مَن في السماوات ومَن في الأرض حتَّىٰ النملة في جُحرِها».

وعنه ﷺ أنَّه قال: «إنَّ الله وملائكته يصلّون علىٰ معلِّم الناسِ الخيرَ»(٤).

وعنه ﷺ أنَّه قال: «إنَّ العلماء وَرَثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنَّما ورَّثوا العلمَ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر»(٥).

وعنه ﷺ: «العالم والمتعلِّم شريكان في الأجر، ولا خيرَ في سائر الناس بعدُ»(٦).

وعنه ﷺ أنَّه قال: «نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فأدَّاها كما سمعها»(٧).

والأحاديث في هذا كثيرة جدًّا. وقد ذكرنا مائتي دليل علىٰ فضل العلم

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه ابن حبان (٨٨)، من حديث أبي الدرداء. ولفظه: «...حتىٰ الحيتان في الماء». وإنما ذُكرت النملة في الحديث الآتي.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) بنحوه.

(٥) جزء من حديث أبي الدرداء الذي سبق آنفًا.

(٦) أخرجه ابن ماجه (٢٢٨)، وسنده ضعيف.

(٧) أخرجه أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٠٨، ٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٢)، وصححه الترمذي.

وأهله في كتاب مفرد[(١)]. فيا لها من مرتبةٍ ما أعلاها، ومنقبةٍ ما أجلّها وأسناها: أن يكون المرءُ في حياته مشغولًا ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاءً متمزِّقة وأوصالًا متفرِّقة، وصحفُ حسناته متزايدةٌ تملىٰ فيها الحسنات كلَّ وقت، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب. تلك -والله- المكارم والغنائم! وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وعليه يحسد الحاسدون! وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وحقيق بمرتبةٍ هذا شأنُها أن تُنفَق نفائس الأنفاس عليها، ويستبق السابقون إليها، وتوفَّر عليها الأوقات، وتتوجَّه نحوها الطَّلِبات. فنسأل الله الذي بيده مفاتيح كلّ خير أن يفتح علينا خزائن رحمته، ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنِّه وكرمه.

وأصحاب هذه المرتبة يُدعَون عظماء في ملكوت السماءِ، كما قال بعض السلف: «مَن عَلِم وعمِل وعلَّم، فذلك يُدعىٰ عظيمًا في ملكوت السماء»[(٢)]. وهؤلاء هم العدول حقًّا بتعديل رسول الله ﷺ لهم، إذ يقول فيما رُوِي عنه من وجوه يُسنِد بعضها بعضًا: «**يحمل هذا العلمَ من كلِّ خلَفٍ عُدُوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[(٣)].

وما أحسن ما قال فيهم الإمام أحمد في خطبة كتابه في «الردّ علىٰ الجهمية»[(٤)]: «الحمد لله الذي جعل في كلِّ زمانِ فترةٍ من الرسل بقايا من أهل

---

(١) وقد ذكر المؤلف في «مفتاح دار السعادة» أكثر من مائةٍ وخمسين وجهًا في فضل العلم.

(٢) حكاه ثور بن يزيد وبشر الحافي من كلام المسيح ﷺ. انظر: «حلية الأولياء» (٦/ ٦٧، ٨/ ٣٨٠).

(٣) أخرجه ابن عدي «الكامل» (١/ ١١٨، ١٤٥- ١٤٧، ٣/ ٣١) من طرق، ولا يثبت منها شيء.

(٤) (ص٨٥).

العلم يدعون من ضلَّ إلىٰ الهدىٰ، ويصبرون منهم علىٰ الأذىٰ، ويبصّرون بنور الله أهلَ العمىٰ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيَوه، ومن ضالٍّ جاهلٍ قد هدَوه. فما أحسن أثرهم علىٰ النَّاس، وأقبح أثر الناس عليهم! ينفُون عن كتاب الله تأويل الجاهلين، وتحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطِلين».

وذكر ابن وضَّاح هذا الكلام عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1].

الطبقة الخامسة: أئمة العدل وولاته الذين تأمَنُ بهم السبُل، ويستقيم بهم العالم، ويستنصر بهم الضعيف، ويذِلّ بهم الظالم، ويأمن بهم الخائف، وتُقام بهم الحدود، ويُدفع بهم الفساد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويُقام بهم حكمُ الكتاب والسنَّة، وتُطفأ بهم نيران البدع والضلالة.

وهؤلاء الذين تُنصَب لهم المنابر من النور عن يمين الرحمن عز وجل يوم القيامة فيكونون عليها. والولاةُ الظلَمة قد صهرهم حرُّ الشمس، وقد بلغ منهم العرَقُ مبلغه، وهم يحملون أثقال مظالمهم العظيمة علىٰ ظهورهم الضعيفة في يوم كان مقدارُه خمسين ألف سنةٍ، ثمَّ يُرىٰ سبيل أحدهم إمَّا إلىٰ الجنَّة وإمَّا إلىٰ النَّار.

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: «**المقسطون عند الله علىٰ منابرَ مِن نور يوم القيامة عن يمين الرحمن تبارك وتعالىٰ، وكلتا يديه يمين، الذي يعدلون في حكمهم وأهلم وما وَلُوا**»[2].

وعنه صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ أحبَّ الخلق إلىٰ الله وأقربَهم منزلةً منه يوم القيامة إمامٌ**

(١) «البدع والنهي عنها» (٣).
(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

عادل، وإنَّ أبغض الخلق إلىٰ الله وأبعدَهم منه منزلةً يوم القيامة إمامٌ جائر»[١] أو كما قال.

وهم أحد السبعة الأصناف الذين يظلّهم الله في ظلِّ عرشه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه[٢]. وكما كان الناس في ظلِّ عدلهم في الدنيا، كانوا هم في ظلِّ عرش الرحمن يوم القيامة ظلًّا بظلٍّ جزاءً وِفاقًا.

ولو لم يكن من فضلهم وشرفهم إلا أنَّ أهل السماوات والأرض والطيرَ في الهواءِ يُصلّون عليهم ويستغفرون لهم ويدعون لهم، وولاة الظلم يلعنهم مَن بين السماوات والأرض حتَّىٰ الدوابّ والطير. كما أنَّ معلِّم الناسِ الخيرَ يصلّي عليه الله وملائكته، وكاتمُ العلم والهدىٰ الذي أنزله الله وحاملُ أهله علىٰ كتمانه يلعنه الله وملائكته ويلعنه اللاعنون.

فيا لَها من منقبة ومرتبة ما أجلَّها وأشرفَها: أن يكون الوالي والإمام علىٰ فراشه وغيرُه يعمل بالخير، وتُكتَب الحسناتُ في صحائفه! فهي متزايدة ما دام يُعمَل بعدله، ولَساعةٌ واحدة منه خير من عبادة أعوام من غيره! فأين هذا من صفة الغاشِّ لرعيته، الظالمِ لهم، الذي حرَّم الله عليه الجنَّة وأوجب له النار[٣]!

ويكفي في فضله وشرفه أنَّه يكفُّ عن الله دعوةَ المظلوم، كما في الآثار: «أيها الملِك المسلَّط المغرور، إنِّي لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها علىٰ بعض، ولكن بعثتك لتكفَّ عنِّي دعوةَ المظلوم، فإنِّي لا أحجبُها ولو كانت من كافر»[٤]. فأين

---

(١) أخرجه الترمذي (١٣٢٩) وحسنه.
(٢) كما عند البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).
(٣) كما عند البخاري (٧١٥١)، ومسلم (١٤٢).
(٤) أخرجه ابن حبان (٣٦١) مرفوعًا، وسنده ضعيف جدًّا.

من هو نائم، وأعينُ العباد ساهرةٌ تدعو الله له؛ وآخرُ أعينُهم ساهرةٌ تدعو عليه؟

الطبقة السادسة: المجاهدون في سبيل الله، وهم جند الله الذين يقيم بهم دينَه، ويدفع بهم بأس أعدائه، ويحفظ بهم بيضةَ الإسلام، ويحمي بهم حوزة الدين. وهم الذين يقاتلون أعداءَ الله ليكون الدين كلُّه لله، وتكون كلمةُ الله هي العليا، قد بذلوا أنفسهم في محبَّةِ الله ونصرِ دينه وإعلاء كلمته ودفعِ أعدائه. وهم شركاءُ لكلِّ من يحمونه بسيوفهم، في أعمالهم التي يعملونها، وإن تناءتْ ديارهم، ولهم مثلُ أجور مَن عَبَد الله بسبب جهادهم وفتوحهم، فإنَّهم كانوا هم السبب فيه. والشارع قد نزَّل المتسبِّبَ منزلةَ الفاعل التامّ في الأجر والوزر، ولهذا كان الداعي إلىٰ الهدىٰ والداعي إلىٰ الضلال لكلّ منهما بتسبّبه مثلُ أجر من اتَّبعه.

وقد تظاهرت آيات الكتاب وتواترت نصوص السنَّة علىٰ الترغيب في الجهاد، والحضِّ عليه، ومدحِ أهله، والإخبار عمَّا لهم عند ربِّهم من أنواع الكرامات والعطايا الجزيلات. ويكفي في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فتشوَّفت النفوسُ إلىٰ هذه التجارة الرابحة التي الدالُّ عليها ربُّ العالمين العليم الحكيم، فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، فكأنَّ النفوس ضنَّت بحياتها وبقائها، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أنَّ الجهاد خير لكم من قعودكم طلبًا للحياة والسلامة، فكأنَّها قالت: فما لنا في هذا الجهاد من الحظّ؟ فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ﴾ مع المغفرة ﴿يُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، فكأنَّها قالت: هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا؟ فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

فلله ما أحلىٰ هذه الألفاظَ وما ألصقَها بالقلوب وما أعظمَها جذبًا لها وتسييرًا إلىٰ ربِّها، وما ألطفَ موقعَها من قلب كلّ محبّ! وما أعظم غنىٰ القلب وأطيب عيشَه حين تباشره معانيها! فنسأل الله من فضله إنَّه جوادٌ كريم.

ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ١٩- ٢٢]. فأخبر سبحانه أنَّه لا يستوىٰ عنده عُمَّار المسجد الحرام -وهم عُمَّاره بالاعتكاف والطواف والصلاة، هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن- وأهلُ سقاية الحاج، لا يستوون هم وأهلُ الجهاد في سبيله، وأخبر أنَّ المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وأنَّهم هم الفائزون، وأنَّهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنَّات. فنفىٰ التسوية بين المجاهدين وعمَّار المسجد الحرام بأنواع العبادة، مع ثنائه علىٰ عُمَّاره بقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]، فهؤلاء هم عمَّار المساجد، ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجةً عند الله منهم.

وقال تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥- ٩٦]. فنفىٰ سبحانه التسويةَ بين المؤمنين القاعدين

عن الجهاد وبين المجاهدين، ثمَّ أخبر عن تفضيل المجاهدين علىٰ القاعدين درجةً، ثم أخبر عن تفضيلهم عليهم درجات.

والمقصود الكلام علىٰ طبقات الناس في الآخرة. وأمَّا النصوص والأدلَّة الدالَّة علىٰ فضل الجهاد وأهله، فأكثر من أن تُذكرَ هنا. ولعلَّها أن تفرد في كتاب علىٰ هذا النمط إن شاء الله.

فهذه الدرجات الثلاث هي درجات السبق، أعنىٰ درجة العلم والعدل والجهاد. وبها سبق الصحابة ﷺ، وأدركوا مَن قبلهم، وفاتوا مَن بعدهم، واستولوا علىٰ الأمد البعيد، وحازوا قصَبات العلىٰ. وهم كانوا السبب في بلوغ الإسلام إلينا وفي تعليم كلّ خيرٍ وهدًىٰ وسببٍ تُنال به السعادة والنجاة. وهم أعدل الأمّة فيما وَلُوه، وأعظمُها جهادًا في سبيل الله. والأمة في آثار علمهم وعدلهم وجهادهم إلىٰ يوم القيامة، فلا ينال أحد منهم مسألةَ علمٍ نافعٍ إلا علىٰ أيديهم ومن طريقهم ينالها، ولا يسكن بقعةً من الأرضِ آمنًا إلا بسبب جهادهم وفتوحهم، ولا يحكم إمام ولا حاكم بعدل وهدًىٰ إلا كانوا هم السبب في وصوله إليه. فهم الذين فتحوا البلاد بالسيف، والقلوب بالإيمان، وعمروا البلاد بالعدل، والقلوب بالعلم والهدىٰ؛ فلهم من الأجر بقدر أجور الأمة إلىٰ يوم القيامة مضافًا إلىٰ أجر أعمالهم التي اختصُّوا بها، فسبحان من يختص بفضله ورحمته من يشاء. وإنَّما نالوا هذا بالعلم، والجهاد، والحكم بالعدل؛ وهذه مراتب السبق التي يهبها الله لمن يشاء من عباده.

الطبقة السابعة: أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلىٰ النَّاس بأموالهم علىٰ اختلاف حاجاتهم ومصالحهم، من تفريج كرباتهم، ودفع ضروراتهم،

وكفايتهم في مهمَّاتهم. وهم أحد الصنفين اللذين قال النبيُّ ﷺ فيهم: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها الناس، ورجلٌ آتاهُ الله مالًا وسلَّطه علىٰ هَلَكتِه في الحقِّ**»(١). يعني: أنَّه لا ينبغي لأحدٍ أن يغبط أحدًا علىٰ نعمة ويتمنَّىٰ مثلها، إلا أحد هذين. وذلك لِما فيهما من النفع العام والإحسان المتعدِّي إلىٰ الخلق: فهذا ينفعهم بعلمه، وهذا ينفعهم بماله. «والخلق كلُّهم عيال الله، وأحبُّهم إليه أنفعهم لعياله»(٢)، ولا ريبَ أنَّ هذين الصنفين من أنفع النَّاس لعيال الله، ولا يقوم أمر النَّاسِ إلا بهذين الصنفين، ولا يعمر العالم إلا بهما.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨].

وقال تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

فصدَّر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمّن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦).

(٢) حديث ضعيف. انظر: «المقاصد الحسنة» (٢٠٠- ٢٠١).

لمعنىٰ الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر. والمعنىٰ: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن، فيجازىٰ عليه أضعافًا مضاعفَة؟

وسمَّىٰ ذلك الإنفاقَ قرضًا حثًّا للنفوس وبعثًا لها علىٰ البذل، لأنَّ الباذل متىٰ علم أنَّ عين ماله يعود إليه ولا بدَّ، طوَّعت له نفسُه بذلَه، وسهُل عليه إخراجُه. فإن علم أنَّ المستقرض مليٌّ وفيٌّ محسنٌ كان أبلغَ في طيب قلبه وسماحة نفسه. فإن علم أنَّ المستقرض يتَّجر له بما أقرضه، ويُنمِّيه له، ويثمِّره حتىٰ يصير أضعافَ ما بذله، كان بالقرض أسمحَ وأسمحَ. فإن علم أنَّه مع ذلك كلّه يزيده من فضله وعطائه أجرًا آخرَ من غير جنس القرض، وأنَّ ذلك الأجر حظٌّ عظيم وعطاءٌ كريم، فإنَّه لا يتخلَّف عن قرضه إلا لآفةٍ في نفسه من البخل والشحّ أو عدم الثقة بالضمان، وذلك من ضعف إيمانه؛ ولهذا كانت الصدقة برهانًا لصاحبها.

وهذه الأمور كلّها تحت هذه الألفاظ التي تضمَّنَتْها الآية، فإنَّه سبحانه سمَّاه قرضًا، وأخبر أنَّه هو المقترض لا قرضَ حاجةٍ ولكن قرضَ إحسانٍ إلىٰ المقرض، واستدعاءً لمعاملته ليعرف مقدار الربح، فهو الذي أعطاه ماله، واستدعىٰ منه معاملته به. ثمَّ أخبر عمَّا يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة. ثمَّ أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة، وهو الأجر الكريم.

وحيث جاءَ هذا الإقراض في القرآن قيَّده بكونه حسنًا، وذلك يجمع أمورًا ثلاثة: أحدها: أن يكون من طيِّب ماله، لا من رديئه وخبيثه. الثاني: أن يخرجه طيبةً به نفسُه، ثابتةً عند بذله، ابتغاءَ مرضاة الله. الثالث: أن لا يمنّ به ولا يؤذي. فالأوَّل يتعلَّق بالمال، والثاني يتعلَّق بالمنفِق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الآخذ.

وقال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهذه الآية كأنَّها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرِض، ومثَّله سبحانه بهذا المثل إحضارًا لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبّة التي غُيِّبت في الأرض، فأنبتت سبع سنابل، في كلِّ سنبلة مائة حبة، حتَّىٰ كأنَّ القلب ينظر إلىٰ هذا التضعيف ببصيرته، كما تنظر العين إلىٰ هذه السنابل التي من الحبّة الواحدة. فينضاف الشاهد العِياني إلىٰ الشاهد الإيماني القرآني، فيقوىٰ إيمانُ المنفِق، وتسخو نفسه بالإنفاق.

وتأمَّلْ كيف جمع السنبلة في هذه الآية علىٰ سنابل، وهي من مجموع الكثرة، إذ المقام مقام تكثير وتضعيف؛ وجمعها علىٰ سنبلات في قوله تعالىٰ: ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف: ٤٣] فجاءَ بها علىٰ جمع القلَّة، لأنَّ السبعة قليلة، ولا مقتضىٰ للتكثير.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾. قيل: المعنىٰ والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، لا لكلّ منفق، بل يختص برحمته من يشاء. وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه، وفي صفات المنفِق وأحواله، وفي شدَّة الحاجة وعظيم النفع وحسن الموقع. وقيل: والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك، فلا يقتصر به علىٰ السبعمائة، بل يجاوز في المضاعفة هذا المقدار إلىٰ أضعاف كثيرة.

واختلف في تقدير الآية فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبَّة. وقيل: مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبَّة، ليطابق الممثَّلُ

الممثَّلَ بـه. فههنـا أربعـة أمور: منفِـق، ونفقة، وبـاذر، وبَذْر، فذكر سبحانه من كلِّ شقٍّ أهـمَّ قِسْمَيه، فذكـر من شـقّ الممثّل المنفِق، إذ المقصـود ذكر حاله وشأنه؛ وسكت عـن ذكـر النفقـة لدلالـة اللفـظ عليهـا. وذكـر من شـقّ الممثَّل بـه البَذْرَ إذ هـو المحـلّ الـذي حصلت فيه المضاعفـة، وترك ذكر البـاذر لأنَّ الغرض لا يتعلّق بذكـره. فتأمَّل هـذه البلاغـة والفصاحـة والإيجاز المتضمّـن لغايـة البيـان. وهـذا كثيـر في أمثـال القـرآن، بـل عامتهـا تـرد علىٰ هـذا النمط.

ثمَّ ختم الآية باسـمين من أسـمائه الحسـنىٰ مطابقَين لسـياقها، وهما «الواسع العليـم»، فلا يستبعدْ العبد هـذه المضاعفة، ولا يضِق عنهـا عَطَنُه، فإنَّ المضاعِف سبحانه واسـع العطـاء، واسـع الغنىٰ، واسـع الفضل. ومـع ذلك فلا يظنَّ أنَّ سـعة عطائه تقتضي حصولهـا لـكلِّ منفِـق، فإنَّـه عليـم بمـن تصلـح لـه هـذه المضاعفـة وهـو أهـل لهـا، ومـن لا يستحقّها ولا هـو أهل لهـا؛ فإنَّ كرمه -سبحانه- وفضله لا ينـاقـض حكمتَـه، بـل يضـع فضلـه مواضعـه بسعته ورحمتـه، ويمنعـه مـن ليس من أهلـه بحكمتـه وعلمه.

ثـمَّ قـال تعالـىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًىۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقـرة: ٢٦٢].

هـذا بيـان للقـرض الحسـن مـا هو؟ وهـو أن يكـون في سبيله، أي: في مرضاته والطريـق الموصلـة إليـه، ومـن أهمِّهـا سـبيل الجهـاد. فـ«سـبيل الله» خـاصّ وعامّ، والخـاصّ جـزءٌ مـن السـبيل العـامّ. وأن لا يتبـع صدقتَـه بمـنٍّ ولا أذىٰ، فالمـنُّ نوعان:

أحدهمـا: مَـنٌّ بقلبـه من غير أن يصرّح به بلسـانه. وهـذا وإن لـم يُبطل الصدقة

فهو يمنعه شهودَ منَّة الله عليه في إعطائه المال وحرمان غيره، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه؛ فللَّه المنَّة عليه من كلِّ وجه، فكيف يشهد قلبُه منَّةً لغيره؟

والنوع الثاني: أن يمنَّ عليه بلسانه، فيتعدَّ علىٰ من أحسن إليه بإحسانه، ويُريَه أنَّه اصطنعه وأنَّه أوجب عليه حقًّا، وطوَّقه منَّةً في عنقه، ويقول: أما أعطيتُك كذا وكذا؟ ويعدُّ أياديه عنده. قال سفيان: يقول أعطيتك وأعطيتك فما شكرتَ![1] وقال عبد الرحمن بن زيد: كان أبي يقول: إذا أعطيتَ رجلاً شيئًا، ورأيت أنَّ سلامك يَثْقُل عليه، فكُفَّ سلامَك عنه. وكانوا يقولون: إذا صنعتم صنيعةً فانْسَوها، وإذا أُسدِي إليكم صنيعةٌ فلا تنسَوها. وفي ذلك قيل:

وإنَّ امرأً أسدَىٰ إليَّ صنيعةً ... وذَكَّرنيها مرَّةً لَبخيلُ[2]

وقيل: «صنوانِ: مَن مَنَح سائلَه ومَنَّ، ومن منع نائلَه وضَنَّ»[3].

وحظر الله سبحانه علىٰ عباده المنّ بالصنيعة واختصَّ به صفة لنفسه؛ لأنَّ منَّ العباد تكدير وتعيير، ومنَّ الله سبحانه إفضال وتذكير.

وأيضًا: فإنَّه هو المنعِم في نفس الأمر، والعباد وسائط، فهو المنعِم علىٰ عبده في الحقيقة.

وأيضًا: فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن تَمُنَّ عليه، ولا تصلح العبودية والذلّ إلا لله.

وأيضًا: فالمنَّة أن يشهد المعطي أنَّه هو ربّ الفضل والإنعام، وأنَّه وليّ النعمة ومُسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا الله.

---

(١) «تفسير البغوي» (١/ ٣٢٦).

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٣١٠) بدون عزو.

(٣) «الكشاف» (١/ ٣١١).

وأيضًا: فالمانُّ بعطائه يشهد نفسه مترفِّعًا علىٰ الآخذ، مستعليًا عليه، غنيًّا عنه، عزيزًا؛ ويشهد ذلَّة الآخذ وحاجته إليه وفاقته، ولا ينبغي ذلك للعبد.

وأيضًا: فإنَّ المعطي قد تولَّىٰ اللهُ ثوابَه، وردَّ عليه أضعافَ ما أعطىٰ، فبقي عوضُ ما أعطىٰ عند الله، فأيّ حقٍّ بقيَ له قِبَلَ الآخذ؟ فإذا امتنَّ عليه فقد ظلمه ظلمًا بيِّنًا، وادَّعىٰ أنَّ حقَّه في قِبَلِه. ومن هنا -والله أعلم- بطلت صدقته بالمنّ، فإنَّه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله، وعوضُ تلك الصدقة عنده، فلم يرضَ به، ولاحظ العوضَ من الآخذ والمعاملة عنده، فمنَّ عليه بما أعطاه= أبطل معاوضته مع الله ومعاملته له.

فتأمَّلْ هذه النصائح من الله لعباده، ودلالتها علىٰ ربوبيته وإلهيَّته وحده، وأنَّه يُبطل عمل من نازعه في شيء من ربوبيته وإلهيَّته، لا إله غيره ولا ربَّ سواه.

ونبَّه بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢] علىٰ أنَّ المنَّ والأذىٰ -ولو تراخىٰ عن الصدقة، وطال زمنه- ضرَّ بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق. ولو أتىٰ بالواو وقال: ولا يُتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذًىٰ، لأوهمت تقييد ذلك بالحال. وإذا كان المنُّ والأذىٰ المتراخي مبطلًا لأثر الإنفاق مانعًا من الثواب، فالمقارن أولىٰ وأحرىٰ.

وتأمَّل كيف جرَّد الخبرَ هنا عن الفاءِ فقال: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، وقرنه بالفاءِ في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]. فإنَّ الفاءَ الداخلة علىٰ خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تُفهِم معنىٰ الشرط والجزاءِ

وأنَّ الخبر مستحَقّ بما تضمَّنه المبتدأ من الصلة أو الصفة. فلمَّا كان المقام هنا يقتضي بيان حصر المستحِقّ للجزاءِ دون غيره جرَّد الخبرَ عن الفاءِ، فإنَّ المعنىٰ أنَّ الذي ينفق ماله لله ولا يمنُّ ولا يؤذي، هو الذي يستحقّ الأجر المذكور، لا الذي ينفق لغير الله، ولا من يمنُّ ويؤذي بنفقته. فليس المقام مقامَ شرط وجزاءٍ، بل مقام بيان للمستحِقّ من غيره.

وفي الآية الأخرىٰ ذكر الإنفاق بالليل والنهار سرًّا وعلانيةً، فذكر عمومَ الأوقات وعموم الأحوال، فأتىٰ بالفاءِ في الخبر ليدلّ علىٰ أنَّ الإنفاق في أيّ وقت وُجِدَ من ليل أو نهار، وعلىٰ أيّ حالةٍ وُجِد من سرّ وعلانية، فإنَّه سبب للجزاءِ علىٰ كلِّ حال. فلْيبادر إليه العبدُ، ولا ينتظر به غيرَ وقته وحاله، فلا يؤخّر نفقة الليل إذا حضر إلىٰ النهار، ولا نفقة النهار إلىٰ الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقتَ السرّ، ولا بنفقة السرّ وقت العلانية؛ فإنَّ نفقته في أيّ وقت وعلىٰ أيّ حال وُجِدتْ سببٌ لأجره وثوابه.

فتدبَّر هذه الأسرار في القرآن، فلعلَّك لا تظفر بها فيما يمر بك في التفاسير. والمنَّة والفضل لله وحده لا شريك له.

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

فأخبر سبحانه أنَّ القولَ المعروفَ -وهو الذي تعرفه القلوب ولا تنكره- والمغفرة -وهي العفو عمَّن أساءَ إليك- خيرٌ من الصدقة المقرونة بالأذىٰ. فالقول المعروف إحسان وصدقة بالقول، والمغفرة إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة؛ فهما نوعان من أنواع الإحسان، والصدقة المقرونة بالأذىٰ حسنة

مقرونة بما يبطلها، ولا ريب أنّ حسنتين خير من حسنة باطلة.

ويدخل في هذا القول المعروف الردُّ الجميلُ علىٰ السائل، والعِدة الحسنة، والدعاءُ الصالح له. ويدخل في المغفرة مغفرته للسائل إذا وجد منه بعضَ الجفوة والأذىٰ بسبب ردّه، فيكون عفوه عنه خيرًا من أن يتصدّق عليه ويؤذيه.

هذا علىٰ المشهور من القولين في الآية. والقول الثاني: أنَّ المغفرة من الله، أي: مغفرةٌ لكم من الله بسبب القول المعروف والردّ الجميل خيرٌ من صدقة يتبعها أذىٰ. وفيها قول ثالث. أي: مغفرةٌ وعفوٌ من السائل إذا رُدَّ وتعذَّر المسؤول خيرٌ من أن ينال منه صدقةً يتبعها أذىٰ.

وأصح الأقوال هو الأوَّل، ويليه الثاني. والثالث ضعيف جدًّا، لأنَّ الخطاب إنَّما هو للمنفِق المسؤول، لا للسائل الآخذ. والمعنىٰ أنَّ قول المعروف له والتجاوز والعفو خيرٌ لك من أن تَصَدَّقَ عليه وتؤذيَه.

ثمَّ ختمَ الآية بصفتين مناسبتين لما تضمّنته، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وفيه معنيان: أحدهما: أنَّ الله غنيٌّ عنكم، لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنَّما الحظّ الأوفر لكم في الصدقة، فنفعُها عائدٌ إليكم، لا إليه سبحانه. فكيف بمنفقٍ يمنُّ بنفقته ويؤذي بها مع غنىٰ الله التام عنها وعن كلِّ ما سواه؟ ومع هذا فهو حليمٌ، إذ لم يعاجل المانَّ المؤذيَ بالعقوبة. وفي ضمن هذا الوعيدُ له والتحذيرُ.

والمعنىٰ الثاني: أنَّه سبحانه مع غناه التامّ من كلِّ وجه، فهو الموصوف

بالحلم والتجاوز والصفح، مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة؛ فكيف يؤذي أحدكم بمنّه وأذاه، مع قلَّة ما يعطي ونزارته وفقره؟

ثم قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فتضمَّنت هذه الآية الإخبار بأنَّ المنَّ والأذىٰ يُحبط الصدقة، وهذا دليل علىٰ أنَّ الحسنة قد تُحبَط بالسيِّئة، مع قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

وقد يقال: إنَّ المنَّ والأذىٰ المقارِن للصدقة هو الذي يبطلها دون ما يلحقها بعدها، إلا أنَّه ليس في اللفظ ما يدلّ علىٰ هذا التقييد، والسياقُ يدلّ علىٰ إبطالها به مطلقًا. وقد يقال: تمثيله بالمرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر يدلّ علىٰ أنَّ المنَّ والأذىٰ المبطِل هو المقارِن كالرياءِ وعدم الإيمان، فإنَّ الرياءَ لو تأخَّر عن العمل لم يُبطله.

ويجابُ عن هذا بجوابين: أحدهما: أنَّ التشبيه وقع في الحال التي يُحبَط بها العمل، وهي حال المرائي والمانّ المؤذي في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُحبِط العمل. الثاني: أنَّ الرِّياء لا يكون إلا مقارنًا للعمل؛ لأنَّه «فِعال» من الرؤية. أي: صاحبُه يعمل ليرىٰ النَّاسُ عملَه فلا يكون متراخيًا. وهذا بخلاف المنّ والأذىٰ فإنَّه يكون مقارنًا ومتراخيًا، وتراخيه أكثر من مقارنته.

وقوله: ﴿كَالَّذِى يُنفِقُ﴾ إمَّا أن يكون المعنىٰ: كإبطال الذي ينفق، فيكون شبَّه الإبطال بالإبطال؛ أو المعنىٰ: لا تكونوا كالذي ينفق ماله رئاءَ النَّاس، فيكون تشبيهًا للمنفِق بالمنفِق.

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي: مثل هذا المنفق الذي قد بطل ثوابُ نفقته ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس. وفيه قولان: أحدهما: أنَّه واحد، والثاني: جمع صفوانة. ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ وهو الأملس الذي لا شيءَ عليه من نبات ولا غيره.

وهذا من أبلغ الأمثال وأحسنها، فإنَّه تضمَّن تشبيه قلب هذا المنفِق للرياء الذي لم يصدُر إنفاقُه عن إيمانٍ بالله واليوم الآخر بالحجر لشدَّته وصلابته وعدم الانتفاع به. وتضمَّن تشبيهَ ما عَلِق به من أثر الصدقة بالغبار الذي عَلِق بذلك الحجر، والوابل الذي أزال ذلك الترابَ عن الحجر وأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقَة هذا وأزالها، كما يُذهب الوابلُ الترابَ الذي علىٰ الحجر فيتركه صلدًا؛ فلا يقدر المنفق علىٰ شيءٍ من ثوابه لبطلانه وزواله.

وفيه معنىٰ آخر، وهو أنَّ المنفِق لغير الله هو في الظاهر عامل عملًا يترتَّب عليه الأجر، ويزكو له كما تزكو الحبَّة التي إذا بُذرت في التراب الطيِّب أنبتت سبع سنابل، في كلِّ سنبلة مائة حبَّة. ولكن وراء هذا الإنفاق مانع يمنع من نموّه وزكائه، كما أنَّ تحت التراب حجرًا يمنع من نبات ما يبذَر من الحبّ فيه، فلا يُنبت ولا يُخرج شيئًا.

ثم قال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وهـذا مثل الـذي مصـدر نفقته عـن الإخلاص والصـدق، فإنَّ ابتغـاء مرضاته هـو غايـة الإخـلاص، والتثبيـت مـن النفس هـو الصِّـدْقُ في البـذل. فـإنَّ المنفِـق تعترضـه عنـد إنفاقـه آفتـان إن نجـا منهمـا كان مَثَلُـه مـا ذكـر في هـذه الآيـة:

إحداهمـا: طلبُـه بنفقتـه مَحْمَـدةً أو ثنـاءً أو غرضًـا من أغراضـه الدنيوية، وهذا حـال أكثر مـن المنفقين.

والآفة الثانية: ضعفُ نفسه بالبذل وتقاعسها وتردّدها: هل تفعل أم لا؟

فالآفـة الأولىٰ تـزول بابتغـاء مرضـاة الله، والآفـة الثانيـة تـزول بالتثبيـت، فإنَّ تثبيتَ النفس: تشـجيعُها وتقويتهـا والإقـدام بهـا علىٰ البـذل، وهـذا هـو صِدْقهـا. وطلـب مرضـاة الله: إرادة وجهـه وحـده، وهـذا إخلاصهـا.

فـإذا كان مصـدر الإنفـاق عـن ذلـك كان مثلـه كجنَّـة، وهـي: البسـتان الكثير الأشـجار، فهـو مجتـنٌّ بهـا أي: مسـتتر، ليـس قاعًـا فارغًـا. والجنَّـة بربـوة -وهـو المـكان المرتفـع- لأنَّهـا أكمـل مـن الجنَّـة المستفلة التي بالوِهـاد والحضيـض، لأنَّهـا إذا ارتفعـت كانـت بمدرجـة الأهويـة والريـاح، وكانـت ضاحيـةً للشـمس وقـت طلوعهـا واسـتوائها وغروبهـا، فكانـت أنضجَ ثمـرًا وأطيبه وأحسـنه وأكثره. فـإنَّ الثمـار تـزداد طيبًـا وزكاءً بالريـاح والشـمس، بخـلاف الثمـار التـي تنشـأ في الظـلال. وإذا كانـت الجنَّـة بمـكان مرتفـع لـم يُخـشَ عليهـا إلا مـن قلَّـة الشُّـرب، فقـال تعالـىٰ: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وهـو المطـر الشـديد العظيـم القطـر، فـأدَّت ثمرتهـا، وأعطـت بركتهـا، فأخرجـت ضعفَـي مـا يُثمـر غيرُهـا، أو ضعفَي مـا كانـت تثمـر، بسـبب ذلـك الوابـل. فهـذا حـال السـابقين المقرَّبيـن.

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وهـو دون الوابـل، فإنَّـه يكفيهـا

لكرم منبتها وطيب مغرسها؛ تكتفي في إخراج بركتها بالطلّ. وهذا حال الأبرار المقتصدين في النفقة، وهم درجات عند الله.

فأصحاب الوابل أعلاهم درجة، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية، ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. وأصحاب الطلّ مقتصدوهم. فمثَّل حال القسمين وأعمالهم بالجنَّة علىٰ الربوة، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطلّ. وكما أنَّ كلّ واحد من المطرين يوجب زكاءَ أُكُل الجنَّة ونموَّه بالأضعاف، فكذلك نفقتهم -كثيرة أو قليلة- بعد أن صدرت عن ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفوسهم، فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة.

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قال الحسن: «هذا مثلٌ قلَّ -والله- من يعقله من الناس. شيخ كبير ضعُفَ جسمه، وكثُر صبيانُه، أفقرُ ما كان إلىٰ جنَّته، وإنَّ أحدكم -والله- أفقرُ ما يكون إلىٰ عمله إذا انقطعت عنه الدنيا»[1].

وفي «صحيح البخاري»[2] عن عبيد بن عمير قال: سأل عمر رضي الله عنه يومًا أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم: «فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٦]؟» قالوا: الله أعلم. فغضب عمر، فقال: «قولوا: نعلم

(١) «الكشاف» (١/ ٣١٤).
(٢) برقم (٤٥٣٨).

أو لا نعلم»، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين»، قال عمر: «قل يا ابن أخي ولا تَحْقِرْ بنفسِك». قال ابن عباس: «ضُرِبت مثلًا لعمل». قال عمر: «أيّ عمل؟» قال ابن عباس: «لعمل». قال عمر: «لرجل عمل بطاعة الله، ثمَّ بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتَّىٰ أغرق أعماله».

فقوله تعالىٰ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ أخرجه مخرج الاستفهام الإنكاري، وهو أبلغ من النفي والنهي، وألطف موقعًا؛ كما ترىٰ غيرك يفعل فعلًا قبيحًا فتقول: أيفعل هذا عاقل؟ أيفعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة؟

وقال: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ بلفظ الواحد لتضمُّنه معنىٰ الإنكار العامّ، كما تقول: أيفعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ في الإنكار من أن يقال: أتودُّون. وقوله: ﴿أَيَوَدُّ﴾ أبلغ في هذا الإنكار من لو قيل: أيريد، لأنَّ محبَّة هذا الحال المذكورة وتمنِّيها أقبح وأنكر من مجرَّد إرادتها.

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾. هذا إشارة إلىٰ شدَّة حاجته إلىٰ جنَّته، وتعلُّق قلبه بها من وجوه، أحدها: أنَّه قد كَبِرت سنُّه عن الكسب والتجارة ونحوها، الثاني: أنَّ ابن آدم عند كبره يشتدُّ حرصه. الثالث: أنّ له ذريةً، فهو حريص علىٰ بقاء جنّته لحاجته وحاجة ذرِّيته. الرابع: أنَّهم ضعفاء، فهم كَلٌّ عليه، لا ينفعونه بقوتهم وتصرُّفهم. الخامس: أنَّ نفقتهم عليه، لضعفهم وعجزهم. وهذا نهاية ما يكون من تعلّق القلب بهذه الجنَّة: لخطرها في نفسها، وشدَّة حاجته وحاجة ذريته إليها.

فإذا تصوّرت هذه الحال وهذه الحاجة، فكيف تكون مصيبة هذا الرجل إذا أصاب جنَّتَه إعصار، وهي الريح التي تستدير في الأرض، ثمَّ ترتفع في

طبقات الجوِّ كالعمود، وفيها نارٌ مرَّت بتلك الجنَّة، فأحرقتها وصيرتها رمادًا؟ فصدق والله الحسن: «هذا مثلٌ قلَّ من يعقله من الناس».

ولهذا نبَّه سبحانه علىٰ عظم هذا المثل، وحدا القلوب إلىٰ التفكر فيه لشدَّة حاجتها إليه فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]. فلو فكر العاقل في هذا المثل وجعله قبلةَ قلبِه لكفاه وشفاه. فهكذا العبد إذا عمل طاعةً لله، ثمَّ أتبعها بما يبطلها ويُفرِّقها من معاصي الله، كانت كالإعصار ذي النَّار المحرق للجنة التي غرسها بطاعته وعمله الصالح.

ولولا أنَّ هذه المواضع أهمُّ ممَّا كلامنا بصدده -مِن ذكر مجرَّد الطبقات- لم نذكرها، ولكنَّها من أهمّ المهمّ، والله المستعان الموفق لمرضاته.

فلو تصوَّر العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنىٰ حقَّ تصوره، وتأمَّله كما ينبغي، لما سوَّلت له نفسُه -واللهِ- إحراقَ أعماله الصالحة وإضاعتها. ولكن لا بدَّ أن يغيب عنه علمُه بذلك عند المعصية، ولهذا يستحقّ اسمَ الجهل، فكلّ من عصىٰ الله فهو جاهل.

وتأمَّل كيف ضرب سبحانه المثل للمنفق المرائي -الذي لم يصدر إنفاقه عن الإيمان- بالصفوان الذي عليه التراب، فإنَّه لم يُنبت شيئًا أصلًا، بل ذهب بذره ضائعًا، لعدم إيمانه وإخلاصه. ثمَّ ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصًا نيَّتَه لله، ثمَّ عرض له ما أبطل ثوابه، بالجنَّة التي هي من أحسن الجنان وأطيبها وأزهاها، ثمَّ سُلِّط عليها الإعصار النَّاريُّ فأحرقها. فإنَّ هذا نبت له شيء وأثمر له عمله ثمَّ احترق، والأوَّل لم يحصل له شيء يدركه الحريق. فتبارك من جعل كلامه حياةً للقلوب وشفاءً للصدور وهدًىٰ ورحمةً.

والمقصود: الكلام علىٰ طبقات الخلائق في الدر الآخرة. ولنعُدْ إلىٰ المقصود، فإنَّ هذا من سعي القلم، ولعلَّه أهمّ ممَّا نحن بصدده.

فهذه الطبقات الأربعة من طبقات الأمة هم أهل الإحسان والنفع المتعدِّي وهم العلماءُ، وأئمة العدل، وأهل الجهاد، وأهل الصدقة وبذل الأموال في مرضاة الله. فهؤلاء ملوك الآخرة، وصحائف حسناتهم متزايدة، تملىٰ فيها الحسنات وهم في بطون الأرض، ما دامت آثارهم في الدنيا. فيا لها من نعمةٍ ما أجلَّها، وكرامةٍ ما أعظمَها! يختصُّ الله بها من يشاء من عباده.

الطبقة الثامنة: طبقة من فتح الله له بابًا من أبواب الخير القاصر علىٰ نفسه كالصلاة، والحجّ، والعمرة، وقراءة القرآن، والصوم، والاعتكاف، والذكر ونحوها، مضافًا إلىٰ أداء فرائض الله عليه. فهو جاهدٌ في تكثير حسناته، وملء صحيفته بها، وإذا عمل خطيئته تاب إلىٰ الله منها. فهذا علىٰ خير عظيم، وله ثواب أمثاله من عُمَّال الآخرة. ولكن ليس له إلا عمله، فإذا مات طويت صحيفته بموته. فهذه طبقة أهل الربح والحظوة أيضًا عند الله.

الطبقة التاسعة: طبقة أهل النجاة. وهي طبقة من يؤدِّي فرائض الله، ويترك محارمه، مقتصرًا علىٰ ذلك، لا يزيد عليه ولا ينقص منه. فلا يتعدَّىٰ إلىٰ ما حرَّم الله عليه، ولا يزيد علىٰ ما فرَضَ عليه. وهذا من المفلحين بضمان رسول الله ﷺ لمن أخبره بشرائع الإسلام، فقال: والله لا أزيد علىٰ هذا ولا أنقص منه. فقال: «**أفلح إن صدق**»[1].

وأصحاب هذه الطبقة مضمون لهم علىٰ الله تكفيرُ سيئاتهم، إذا أدَّوا فرائضه واجتنبوا كبائر ما نهاهم عنه. قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١).

عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١]. وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «**الصلواتُ الخمسُ ورمضان إلىٰ رمضانَ والجمعةُ إلىٰ الجمعةِ مكفراتٌ لما بينهنَّ ما لم تُغْشَ كبيرةٌ**»[1].

فإن غشي أهلُ هذه الطبقة كبيرةً، وتابوا منها توبةً نصوحًا، لم يخرجوا من طبقتهم، وكانوا بمنزلة من لا ذنب له. فتكفير الصغائر يقع بشيئين: أحدهما: الحسنات الماحية، والثاني: اجتناب الكبائر. وقد نصَّ عليهما سبحانه في كتابه، فقال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤]. وقال: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١].

الطبقة العاشرة: طبقة قوم أسرفوا علىٰ أنفسهم، وغَشُوا كبائرَ ما نهىٰ الله عنه، لكن رُزِقُوا التوبة النصوحَ قبل الموت، فماتوا علىٰ توبة صحيحة. فهؤلاء ناجون من عذاب الله إمَّا قطعًا عند قوم، وإمَّا ظنًّا ورجاءً عند آخرين. وهم موكولون إلىٰ المشيئة، ولكن نصوص القرآن والسنَّة تدلُّ علىٰ نجاتهم وقبول توبتهم، وهو وعدٌ وعدهم الله إيَّاه، والله لا يخلف الميعاد.

فإن قيل: فما الفرقُ بين أهل هذه الطبقة والتي قبلها؟ فإنَّ الله إذا كفَّر عنهم سيِّئاتهم، وأثبت لهم بكلِّ سيئة حسنةً، كانوا كمن قبلهم أو أرجح.

قيل: قد تقدَّم الكلام علىٰ هذه المسألة بما فيه كفاية، فعليك بمعاودته هناك. وكيف يستوي عند الله من أنفق عمره في طاعته ولم يغشَ كبيرةً، ومن لم يدَعْ كبيرةً إلا ارتكبها، وفرَّط في أوامره، ثمَّ تاب؟ فهذا غايته أن تُمْحَىٰ سيئاتُه،

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣).

ويكون لا له ولا عليه. وأمَّا أن يكون هو ومَن قبله سواءً أو أرجح منه فكلّا!

الطبقة الحادية عشرة: طبقة أقوام خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيِّئًا، فعملوا حسناتٍ وكبائرَ، ولقوا الله مُصرِّين عليها غير تائبين منها، لكن حسناتهم أغلب من سيِّئاتهم، فإذا وُزِنتْ بها رجَحتْ كِفَّةُ الحسنات، فهؤلاء أيضًا ناجون فائزون، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨- ٩].

قال حذيفة وعبد الله بن مسعود وغيرهما من الصحابة: يُحشَر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: فمن رجحت حسناته علىٰ سيئاته بواحدةٍ دخل الجنَّة، ومن رجحت سيئاته علىٰ حسناته بواحدة دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف[(١)].

وهذه الموازنة تكون بعد القصاص، واستيفاء المظلومين حقوقهم من حسناته. فإذا بقي له شيء منها وُزِن هو وسيئاته.

ولكن هنا مسألة، وهي: إذا وزنت السيئات بالحسنات فرجحت الحسنات، هل يُلغَىٰ المرجوحُ جملةً، ويصير الأثر للراجح، فيثاب علىٰ حسناته كلّها؛ أو يسقَط من الحسنات ما قابلها من السيئات المرجوحة، ويبقىٰ التأثير للرجحان، فيثاب عليه وحده؟ فيه قولان. هذا عند من يقول بالموازنة والحكمة، وأمَّا من ينفي ذلك فلا عبرة عنده بهذا، وإنَّما هو موكول إلىٰ محض المشيئة. وعلىٰ القول الأوَّل فيذهب أثر السيئات جملةً بالحسنات الرَّاجحة. وعلىٰ القول الثاني يكون تأثيرها في نقصان ثوابه، لا في حصول العقاب له.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٥٣).

ويترجَّح هذا القول الثاني بأنَّ السيئات لو لم تحبط ما قبلها من الحسنات، وكان العمل والتأثير للحسنات كلّها، لم يكن فرقٌ بين وجودها وعدمها، ولكان لا فرق بين المحسن الذي تمحّضَ عملُه حسناتٍ، وبين من خلط عملًا صالحًا وآخر سيِّئًا.

وقد يُجاب عن هذا بأنَّها أثَّرت في نقصان ثوابه ولا بدَّ، فإنَّه لو اشتغل في زمن إيقاعها بالحسنات لكان أرفع لدرجته وأعظم لثوابه.

وإذا كان كذلك فقد ترجَّح القول الأوَّل بأنَّ الحسنات لمَّا غلبت السيئات ضعف تأثير المغلوب المرجوح، وصار الحكم للغالب دونه، لاستهلاكه في جنبه؛ كما يُستهلك يسيرُ النجاسة في الماءِ الكثير، والماءُ إذا بلغ قُلَّتين لم يحمِل الخَبَث. والله أعلم.

الطبقة الثانية عشر: قومٌ تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فتقابل أثراهما فتقاوما، فمنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النَّار، وسيئاتهم المساوية من دخول الجنَّة. فهؤلاء هم أهل الأعراف، لم يفضُلْ لأحدهم حسنةٌ يستحقّ بها الرحمة من ربّه، ولم يفضل عليه سيئة يستحقّ بها العذاب.

وقد وصف الله سبحانه أهل هذه الطبقة في سورة الأعراف -بعد أن ذكر دخولَ أهل النار النارَ، وتلاعنَهم فيها، ومخاطبةَ أتباعهم لرؤسائهم، وردَّهم عليهم؛ ثمَّ مناداةَ أهل الجنَّة أهلَ النار- فقال تعالىٰ: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٦ - ٤٧].

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ أي: بين أهل الجنَّة والنار حجاب. قيل: هو

السور الذي ضُرِب بينهم، له باب باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قِبَله العذاب. باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره الذي يلي الكفار من جهته العذاب. و«الأعراف» جمع عُرْف، وهو المكان المرتفع، وهي سور عال بين الجنَّة والنار. قيل: هو هذا السور الذي يضرب بينهم.

وقيل: جبال بين الجنَّة والنَّار عليها أهلُ الأعراف. قال حذيفة وعبد الله بن عباس: هم قومٌ استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصُرَتْ بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتُهم عن النار. فوقفوا هناك حتىٰ يقضي الله فيهم ما يشاء، ثمَّ يدخلهم الجنَّة بفضل رحمته[(١)].

وقيل: هم قوم خرجوا في الغزو بغير إذن آبائهم، فقُتِلوا، فأعتقوا من النار لقتلهم في سبيل الله، وحبسوا عن الجنَّة لمعصية آبائهم. وهذا من جنس القول الأوَّل.

وقيل: هم قوم رضي عنهم أحدُ الأبوين دون الآخر؛ يُحبَسُون علىٰ الأعراف حتىٰ يقضي الله بين الناس، ثمَّ يدخلهم الجنة. وهو من جنس ما قبله فلا تناقض بينهما.

وقيل: هم أصحاب الفترة وأطفال المشركين.

وقيل: هم أولو الفضل من المؤمنين علَوا علىٰ الأعراف، فيطَّلعون علىٰ أهل النار وأهل الجنَّة جميعًا.

وقيل: هم الملائكة لا من بني آدم[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ٢١٢-٢١٧) وابن أبي حاتم (٨٤٩٩، ٨٥٠١) عنهما.
(٢) انظر للأقوال السابقة: «تفسير الطبري» (١٠/ ٢١٨-٢٢٠) والبغوي (٣/ ٢٣٢-٢٣٣).

والثابت عن الصحابة هو القول الأوَّل. وقد رويت فيه آثار كثيرة مرفوعة لا تكاد تثبت أسانيدها. وآثار الصحابة في ذلك المعتمدة. وقد اختلف في تفسير الصحابي هل له حكم المرفوع أو الموقوف، علىٰ قولين. الأوَّل اختيار أبي عبد الله الحاكم،(١) والثاني هو الصواب ولا نقوِّل رسول الله ﷺ ما لم نعلم أنَّه قاله.

فهؤلاء الطبقات هم أهل الجنَّة الذين لم تمسّهم النار.

الطبقة الثالثة عشرة: طبقة أهل المحنة والبلية، نعوذ بالله، وإن كانت آخرتهم إلىٰ عفو وخير. وهم قوم مسلمون خفَّت موازينهم، ورجحت سيئاتهم علىٰ حسناتهم، فغلبتها السيئات. فهذه الطبقة هي التي اختلفت فيها أقاويل الناس، وكثُر فيها خوضهم، وتشعَّبت مذاهبهم، وتشتّتت آراؤهم. وقول الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، وهو الذي ذكرناه عن ابن عباس وحذيفة وابن مسعود ﷺ: أن من ترجَّحت سيئاته بواحدةٍ دخل النار.

وهؤلاء هم القسم الذين جاءت فيهم الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ بأنَّهم يدخلون النَّار، فيكونون فيها علىٰ مقدار أعمالهم: فمنهم من تأخذه النار إلىٰ كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلىٰ أنصاف ساقيه، ومنهم من تأخذه النار إلىٰ ركبتيه. ويلبثون فيها علىٰ قدر أعمالهم، ثمَّ يخرجون منها، فينبتون علىٰ أنهار الجنَّة، فيُفيض عليهم أهل الجنَّة من الماءِ حتَّىٰ تنبت أجسادهم، ثمَّ يدخلون الجنة. وهم الطبقة الذين يخرجون من النَّار بشفاعة الشافعين، وهم الذين يأمر الله تعالىٰ سيِّد الشفعاء مرارًا أن يخرجهم من النار بما معهم من الإيمان.

---

(١) انظر: «المستدرك» (١/ ٧٢٦، ٢/ ٢٨٣).

وإخبار النبيّ ﷺ أنَّهم يكونون فيها علىٰ قدر أعمالهم، مع قوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤] و﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠] وقوله: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١] وأضعاف ذلك من نصوص القرآن والسنَّة يدلّ علىٰ ما قاله أفضلُ الأمة وأعلمُها بالله وكتابه وأحكام الدارين أصحابُ محمد ﷺ. والعقل والفطرة تشهد له، وهو مقتضىٰ حكمة العزيز الحكيم الذي بهرت حِكَمه العقول. فليس الأمر مسبَّبًا خارجًا عن الضبط والحكمة، بل مربوط بالأسباب، والحكمُ مرتَّب عليها أكملَ ترتيب، جارٍ علىٰ نظام اقتضاه السبب واستدعته الحكمة.

الطبقة الرَّابعة عشرة: قوم لا طاعة لهم ولا معصية، ولا كفر ولا إيمان، وهؤلاء أصناف: منهم من لم تبلغه الدعوة بحال ولا سمع لها بخبر. ومنهم المجنون الذي لا يعقل شيئًا ولا يميِّز. ومنهم الأصمُّ الذي لا يسمع شيئًا أبدًا. ومنهم أطفال المشركين الذين ماتوا قبل أن يميّزوا شيئًا، فاختلفت الأمة في حكم هذه الطبقة اختلافًا كثيرًا. والمسألة التي وسَّعوا فيها الكلام هي مسألة أطفال المشركين.

وأمَّا أطفال المسلمين، فقال الإمام أحمد: لا يختلف فيهم أحد. يعني أنَّهم في الجنَّة.

وحكىٰ ابن عبد البرّ[1] عن جماعة أنَّهم توقَّفوا فيهم، وأنَّ جميع الولدان تحت المشيئة. قال: وذهب إلىٰ هذا القول جماعةٌ كثيرة من أهل الفقه والحديث منهم حمَّاد بن زيد، وحمَّاد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم. قال: وهو يشبه ما رسم مالك في «موطّئه» في أبواب القدر وما

(١) في «التمهيد» (١٨/ ١١٢).

أورده من الأحاديث في ذلك، وعلىٰ ذلك أكثر أصحابه. وليس عن مالك فيه شيء منصوص إلا أنَّ المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلىٰ أنَّ أطفال المسلمين في الجنَّة، وأطفال المشركين خاصَّة في المشيئة.

وأمَّا أطفال المشركين فللنَّاس فيهم ثمانية مذاهب:

أحدها: الوقف فيهم، وترك الشهادة بأنَّهم في الجنَّة أو في النار، بل يوكل علمهم إلىٰ الله تعالىٰ، ويقال: الله أعلم ما كانوا عاملين.

المذهب الثاني: أنَّهم في النَّار. وهذا قول جماعة من المتكلّمين وأهل التفسير، وأحد الوجهين لأصحاب أحمد، وحكاه القاضي نصًّا عن أحمد.

المذهب الثالث: أنَّهم في الجنَّة، وهذا قول طائفة من المفسِّرين والمتكلمين وغيرهم.

المذهب الرابع: أنَّهم في منزلة بين المنزلتين بين الجنَّة والنَّار، فإنَّهم ليس لهم إيمان يدخلون به الجنَّة، ولا لآبائهم فوز يلحق بهم أطفالهم تكميلًا لثوابهم وزيادةً في نعيمهم، وليس لهم من الأعمال ما يستحقون به دخول النار.

وهذا قول طائفة من المفسّرين. قالوا: وهم أهل الأعراف.

المذهب الخامس: أنَّهم تحت مشيئة الله تعالىٰ، يجوز أن يَعُمَّهم بعذابه، وأن يعمَّهم برحمته، وأن يرحم بعضًا ويعذِّب بعضًا، بمحض الإرادة والمشيئة. ولا سبيل إلىٰ إثبات شيء من هذه الأقسام إلا بخبر يجب المصير إليه، ولا حكم فيهم إلا بمحض المشيئة.

وهذا قول الجبرية نفاة الحكمة والتعليل، وقول كثير من مثبتي القدر غيرهم.

المذهب السادس: أنَّهم خدم أهل الجنَّة ومماليكهم، وهم معهم بمنزلة أرقَّائهم ومماليكهم في الدنيا.

المذهب السابع: أنَّ حكمهم حكم آبائهم في الدنيا والآخرة، فلا يُفْرَدُون عنهم بحكم في الدارين. فكما هم منهم في الدنيا، فهم منهم في الآخرة.

والفرق بين هذا المذهب ومن مذهب من يقول: هم في النَّار، أنَّ صاحب هذا المذهب يجعلهم معهم تبعًا لهم، حتَّىٰ لو أسلم الأبوان بعد موت أطفالهما لم يحكم لأفراطهما بالنَّار. وصاحب القول الآخر يقول: هم في النَّار لكونهم ليسوا بمسلمين، ولم يدخلوها تبعًا.

المذهب الثامن: أنَّهم يمتحنون في عرصات القيامة، ويرسل إليهم هناك رسول، وإلىٰ كلّ من لم تبلغه الدعوة، فمن أطاع الرسول دخل الجنَّة، ومن عصاه أدخله النَّار. وعلىٰ هذا فيكون بعضهم في الجنَّة وبعضهم في النَّار. وبهذا يتألَّف شملُ الأدلّة كلّها، وتتوافق الأحاديث، ويكون معلومُ الله ﷻ الذي أحال عليه النبيّ ﷺ حيث يقول: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»[(١)] يظهر حينئذٍ، ويقع الثواب والعقاب عليه حال كونه معلومًا خارجيًّا لا علمًا مجرَّدًا، ويكون النبيُّ ﷺ قد ردَّ جوابهم إلىٰ علم الله فيهم، والله تعالىٰ يردُّ ثوابهم وعقابهم إلىٰ معلومه منهم. فالخبُر عنهم مردودٌ إلىٰ علمه، ومصيرُهم مردودٌ إلىٰ معلومه.

وقد جاءت بذلك آثار كثيرة يؤيد بعضها بعضًا.

الطبقة الخامسة عشرة: طبقة الزنادقة. وهم قومٌ أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله. وهؤلاء هم المنافقون، وهم في

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٨).

الدرك الأسفل من النَّار. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]. فالكفَّار المجاهرون بكفرهم أخفّ، وهم فوقهم في دركات النَّار؛ لأنَّ الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزادت المنافقون عليهم بالكذب والنفاق.

وبليّة المسلمين بهم أعظم من بليَّتهم بالكفَّار المجاهرين، ولهذا قال تعالىٰ في حقّهم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]. ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي: لا عدوّ إلا هم. ولكن لم يُرَد هاهنا حصرُ العداوة فيهم وأنَّهم لا عدوَّ للمسلمين سواهم، بل هذا من باب إثبات الأولوية والأحقّيَّة لهم في هذا الوصف، وأنَّه لا يتوهَّم بانتسابهم إلىٰ المسلمين ظاهرًا وموالاتهم لهم ومخالطتهم إيَّاهم أنَّهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحقّ بالعدواة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها. فإنَّ ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم -وهم في الباطن علىٰ خلاف دينهم- أشدُّ عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزَمُ وأدوَم، لأنَّ الحرب مع أولئك ساعة أو أيامًا ثمَّ ينقضي، ويعقبه النصر والظفر؛ وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحًا ومساءً، يدلُّون العدوَّ علىٰ عوراتهم، ويتربَّصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم. فهم أحقُّ بالعداوة من المُبايِن المجاهر، فلهذا قيل: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ لا علىٰ معنىٰ أنَّه لا عدوّ لكم سواهم، بل علىٰ معنىٰ أنَّهم أحقّ بأن يكونوا لكم عدوًّا من الكفَّار المجاهرين.

ونظير ذلك قول النبيِّ ﷺ: «**ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذي تردُّه اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين: الذي لا يسأل النَّاس ولا يُفطَنُ له**

فيُتصدَّق عليه»[(١)]. فليس هذا نفيًا لاسم المسكين عن الطوَّاف، بل إخبارٌ بأن هذا القانع الذي لا يسمُّونه مسكينًا أحقّ بهذا الاسم من الطوَّاف الذي يسمّونه مسكينًا.

ونظيره قوله ﷺ: «**ليس الشديد بالصُّرَعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب**»[(٢)]. ليس نفيًا للاسم عن الصُّرَعة، ولكن إخبار بأنَّ من يملك نفسه عند الغضب أحقّ منه بهذا الاسم.

ونظيره قوله ﷺ: «**ما تعدُّون المفلسَ فيكم؟**» قالوا: من لا درهم له ولا متاع. قال: «**المفلس من يأتي يوم القيامة بحسناتٍ أمثال الجبال، ويأتي قد لطَمَ هذا، وضرب هذا، وأخذ مال هذا؛ فيقتصُّ هذا من حسناته، وهذا من حسناته. فإن فنيَتْ حسناتُه قبل أن يقضي ما عليه أُخِذَ من سيئاتهم ثم طُرِحَ عليه فأُلقيَ في النار**»[(٣)].

ونظيره قوله ﷺ: «**ما تعدُّون الرَّقوب فيكم؟**» قالوا: من لا يولد له. قال: «**الرَّقُوب من لم يقدِّم من ولده شيئًا**»[(٤)].

ومنه عندي قوله ﷺ: «**الربا في النسيئة**»، وفي لفظ: «**إنَّما الربا في النسيئة**»[(٥)]. هو إثبات لأنَّ هذا النوع هو أحقّ باسم الربا من ربا الفضل، وليس فيه نفي اسم الربا عن ربا الفضل. فتأمله.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩). «الصُّرَعة» علىٰ زنة «هُمَزة»: كثير الصَّرْع لأقرانه، يَصرَعُ كلَّ مَن صارعه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٠٨).

(٥) أخرجه مسلم (١٥٩٦) باللفظين المذكورين. وأخرجه البخاري (٢١٧٩) بلفظ: «لا ربا إلا في النسيئة».

والمقصود أنَّ هذه الطبقة أشقىٰ الأشقياء، ولهذا يُستهزأ بهم في الآخرة، ويُعطَون نورًا يتوسَّطون به علىٰ الصراط، ثمَّ يُطفئ اللهُ نورَهم، ويقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]. ويضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣- ١٤]. وهذا أشدُّ ما يكون من الحسرة والبلاءِ أن يُفتَح للعبد طريق النجاة والفلاح، حتىٰ إذا ظنَّ أنَّه ناجٍ ورأىٰ منازل السعداء اُقتطِع عنهم وضُربت عليه الشقوة. ونعوذ بالله من غضبه وعقابه.

وإنَّما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغِلَظ كفرهم، فإنَّهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداءُ، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلىٰ المنابذين بالعداوة؛ فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرًا، وأخبث قلوبًا، وأشدَّ عداوةً لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن كان البعداء متصدِّين لحرب المسلمين. ولهذا قال تعالىٰ في المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣] وقال فيهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]. وقال في الكفار: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. فالكافر لم يعقل، والمنافق أبصر ثمَّ عمي، وعرف ثمَّ تجاهل، وأقرَّ ثمَّ أنكر، وآمن ثمَّ كفر. ومن كان هكذا فهو أشدّ كفرًا وأخبث قلبًا، وأعتىٰ علىٰ الله ورسله؛ فاستحقَّ الدرك الأسفل.

وفيه معنىٰ آخر أيضًا. وهو أنَّ الحامل لهم علىٰ النفاق طلب العزّ والجاه بين الطائفتين. فيُرضون المؤمنين ليُعِزّوهم، ويُرضون الكفار ليُعِزّوهم أيضًا.

ومن هاهنا دخل عليهم البلاءُ، فإنَّهم أرادوا العزَّ بين الطائفتين، ولم يكن لهم غرض في الإيمان ولا إسلام ولا طاعةٍ لله ورسوله، بل كان ميلهم وصَغوهم وجهتهم إلىٰ الكفَّار. فقوبلوا علىٰ ذلك بأعظم الذلّ، وهو أن جُعِل مستقرُّهم في أسفل سافلين تحت الكفار.

فما اتصف به المنافقون من مخادعةِ الله ورسوله والذين آمنوا، والاستهزاء بأهل الإيمان، والكذبِ، والتلاعب بالدين، وإظهار أنَّهم من المؤمنين، وانطواءِ قلوبهم علىٰ الكفر والشرك، وعداوة الله ورسوله= أمرٌ اختصُّوا به عن الكفار، فتغلَّظ كفرُهم به، فاستحقُّوا الدرك الأسفل من النار.

ولهذا لمَّا ذكر تعالىٰ أقسام الخلق في أوَّل سورة البقرة، فقسمهم إلىٰ مؤمنٍ ظاهرًا وباطنًا، وكافرٍ ظاهرًا وباطنًا، ومؤمن في الظاهر كافرٍ في الباطن وهم المنافقون= ذكر في حقِّ المؤمنين ثلاث آيات، وفي حقِّ الكفار آيتين. فلما انتهىٰ إلىٰ ذكر المنافقين ذكر فيهم بضع عشرة آية. ذمَّهم فيها غاية الذمّ، وكشَفَ عوراتِهم، وفضحهم، وأخبر بأنَّهم هم السفهاء المفسدون في الأرض، المخادعون المستهزئون، المغبونون في اشترائهم الضلالة بالهدىٰ؛ وأنَّهم صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون، وأنَّهم مرضىٰ القلوب وأنَّ الله يزيدهم مرضًا إلىٰ مرضهم؛ فلم يدع ذمًّا ولا عيبًا إلّا ذمَّهم به. وهذا يدلُّ علىٰ شدّة مقته سبحانه لهم، وبغضه إيَّاهم، وعداوته لهم، وأنّهم أبغض أعدائه إليه. فظهرت حكمتُه الباهرةُ في تخصيص هذه الطبقة بالدرك الأسفل من النار. نعوذ بالله من مثل حالهم، ونسأله معافاته ورحمته.

ومن تأمّل ما وصف الله به المنافقين في القرآن من صفات الذمّ، علم أنّهم أحقُّ بالدرك الأسفل.

وبحَسَب إيمان العبد ومعرفته، يكون خوفه أن يكون من أهل هذه الطبقة. ولهذا اشتدَّ خوف سادة الأمة وسابقيها علىٰ أنفسهم أن يكونوا منهم، فكان عمر بن الخطاب ﵁ يقول: يا حذيفة، نشدتك اللهَ، هل سمَّاني رسول الله ﷺ مع القوم؟ فيقول: لا، ولا أزكِّي بعدك أحدًا.[1] يعني لا أفتح عليَّ هذا الباب في تزكية الناس. ليس معناه أنَّه لم يبرأ من النفاق غيرك.

وقال ابن أبي مليكة: أدركتُ ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلّهم يخاف النفاق علىٰ نفسه، ما منهم أحد يقول: إنَّه علىٰ إيمان جبرائيل وميكائيل[2].

الطبقة السادسة عشرة: طبقة رؤساءِ الكفر وأئمته ودعاته الذين كفروا وصدُّوا عباد الله عن الإيمان وعن الدخول في دينه رغبةً ورهبةً. فهؤلاء عذابهم مضاعَف، ولهم عذابان: عذاب الكفر، وعذابٌ بصدِّ النَّاس عن الدخول في الإيمان. قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]. فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخر بصدّهم عن سبيل الله.

وقد استقرَّت حكمة الله وعدله أن يجعل علىٰ الداعي إلىٰ الضلال مثلَ آثام من اتبعه واستجاب له. ولا ريبَ أنَّ عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتَّبعه وضلَّ به. وهذا النوع في الأشقياء مقابل دُعاةِ الهدىٰ في السعداء، فأولئك يتضاعف ثوابهم وتعلو درجاتُهم بحسب من اتَّبعهم واهتدىٰ بهم، وهؤلاء عكسهم.

ولهذا كان فرعون وقومه في أشدِّ العذاب، قال تعالىٰ في حقّهم: ﴿ٱلنَّارُ

(١) سبق تخريجه.

(٢) علقه البخاري في كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]. وهذا تنبيه علىٰ أنَّ فرعون نفسه في الأشدِّ من ذلك؛ لأنَّهم إنَّما دخلوا أشدَّ العذاب تبعًا له، فإنَّه هو الذي استخفَّهم فأطاعوه، وغرَّهم فاتَّبعوه. ولهذا يكون يوم القيامة إمامهم وفرَطهم في هذا الوِرد. قال تعالىٰ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

والمقصود: أنَّهم إنَّما استحقُّوا أشدَّ العذاب لتغلُّظ كفرهم، وصدِّهم عن سبيل الله وعقوبتِهم من آمن بالله. فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم. ولهذا كان في كتاب النبيِّ ﷺ لهرقل: «**فإن تولَّيتَ فإنَّ عليك إثمَ الأرِيسِيِّين**»[1]. والصحيح في اللفظة أنَّهم الأتباع. ولهذا كان عدو الله إبليس أشدَّ أهل النار عذابًا، وهو أوَّل من يُكسىٰ حُلَّةً من النَّار؛ لأنَّه إمام كلِّ كفر وشركٍ وشرّ. فما عُصي الله إلا علىٰ يديه وبسببه، ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ من نوَّابه في الأرض ودعاته.

ولا ريب أنَّ الكفر يتفاوت، فكفرٌ أغلظ من كفر. كما أنَّ الإيمان يتفاوت فإيمانٌ أفضل من إيمان. فكما أنَّ المؤمنين ليسوا في درجة واحدة بل هم درجات عند الله، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودَرْكٍ واحد، بل النار دركات كما أنَّ الجنة درجات. ولا يظلم الله من خلقه أحدًا، وهو الغني الحميد.

الطبقة السابعة عشرة: طبقة المقلِّدين. وهم جهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبع، يقولون: إنَّا وجدنا آباءَنا علىٰ أُمَّة، ولنا أُسوة بهم. ومع هذا فهم متاركون لأهل الإسلام غيرُ محاربين لهم، كنساءِ

---

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

المحاربين وخدَمهم وتُبَّاعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب له أولئك أنفسهم من السعي في إطفاءِ نور الله وهدم دينه وإخماد كلماته، بل هم معهم بمنزلة الدوابّ.

وقد اتفقت الأُمة علىٰ أنّ هذه الطبقة كفّار وإن كانوا جهَّالًا مقلّدين لرؤسائهم وأئمتهم، إلّا ما يحكىٰ عن بعض أهل البدع أنّه لم يحكم لهؤلاءِ بالنار وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة. وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة المسلمين لا الصحابة ولا التابعين ولا مَن بعدهم، وإنّما يعرف عن بعض أهل الكلام المحدَث في الإسلام.

وقد صحَّ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**ما من مولود إلّا وهو يولد علىٰ الفطرة فأبواه يُهوِّدانه ويُنصِّرانه ويُمجِّسانه**»[(١)]. فأخبر أنّ أبويه ينقلانه عن الفطرة إلىٰ اليهودية والنصرانية والمجوسية، ولم يعتبر في ذلك غير المربىٰ والمنشأ علىٰ ما عليه الأبوان. وصحَّ عنه أنّه قال ﷺ: «**إنَّ الجنّة لا يدخلها إلّا نفس مسلمة**»[(٢)].

وهذا المقلّد ليس بمسلم، وهو عاقل مكلّف، والعاقل المكلَّف لا يخرج عن الإسلام أو الكفر. وأمَّا من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلّف في تلك الحال، وهو بمنزلة الأطفال والمجانين، وقد تقدَّم الكلام عليهم. والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله واتّباعه فيما جاءَ به. فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرًا معاندًا، فهو كافر جاهل.

فغاية هذه الطبقة أنَّهم كفَّار جهَّال غير معاندين، وعدم عنادهم لا يخرجهم

(١) أخرجه البخاري (٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨).
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١).

عن كونهم كفّارًا. فإنّ الكافر من جحد توحيدَ الله وكذّب رسولَه إمَّا عنادًا وإمَّا جهلًا وتقليدًا لأهل العناد. فهذا وإن كان غايته أنّه غير معاند، فهو متّبع لأهل العناد.

وقد أخبر الله تعالىٰ في القرآن في غير موضع بعذاب المقلّدين لأسلافهم من الكفار، وأنّ الأتباع مع متبوعهم، وأنّهم يتحاجّون في النار، وأنّ الأتباع يقولون: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣١- ٣٣].

فهذا إخبار من الله وتحذير بأنّ المتبوعين والتابعين اشتركوا في العذاب ولم يُغنِ عنهم تقليدُهم شيئًا. وأصرح من هذا قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وصحّ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**من دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ أوزار مَن اتّبعه، لا ينقص من أوزارهم شيئًا**»[(١)]. وهذا يدلّ علىٰ أنّ كفر من اتبعهم إنّما هو بمجرَّد اتباعهم وتقليدهم.

نعم، لا بدّ في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلِّدٍ تمكَّن من العلم ومعرفة الحقّ فأعرض عنه، ومقلِّدٍ لم يتمكَّن من ذلك بوجه، والقسمان واقعان في الوجود. فالمتمكّن المعرض مفرِّطٌ تارك للواجب عليه، لا عذرَ له عند الله. وأمَّا العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكّن من العلم بوجه، فهم قسمان أيضًا:

أحدهما: مريد للهدىٰ مؤثِر له محبٌّ له، غيرُ قادرٍ عليه ولا علىٰ طلبه لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة.

الثاني: مُعرِض لا إرادة له، ولا يحدِّث نفسه بغير ما هو عليه.

فالأول يقول: يا ربّ لو أعلم لك دينًا خيرًا مما أنا عليه لَدِنْتُ به وتركت ما أنا عليه، ولكن لا أعرف غير ما أنا عليه ولا أقدر علىٰ غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي. والثاني: راضٍ بما هو عليه، لا يؤثر غيره عليه، ولا تطلب نفسه سواه؛ ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز. وهذا لا يجب أن يلحق بالأول لِما بينهما من الفرق. فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به، فعدل عنه بعد استفراغه الوسعَ في طلبه عجزًا وجهلًا. والثاني كمن لم يطلبه، بل مات علىٰ شركه، وإن كان لو طلبه لَعَجز عنه. ففرق بين عجز الطالب وعجز المُعرِض. فتأمّل هذا الموضع.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذِّب إلَّا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق. وأمَّا كون زيدٍ بعينه وعمرٍو بعينه قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه. بل الواجب على العبد أن يعتقد أنّ كلّ من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأنّ الله سبحانه لا يعذّب أحدًا إلّا بعد قيام الحجة عليه بالرسول. هذا في الجملة، والتعيين موكول إلىٰ علم الله عزّ وجلّ وحكمه.

هذا في أحكام الثواب والعقاب. وأما في أحكام الدنيا فهي جارية علىٰ ظاهر الأمر. فأطفال الكفّار ومجانينهم كفّار في أحكام الدنيا، لهم حكم أوليائهم.

وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة.

الطبقة الثامنة عشرة: طبقة الجنّ. وقد اتفق المسلمون علىٰ أنَّ منهم المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر. قال تعالىٰ إخبارًا عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١]. قال مجاهد: يَعْنُون مسلمين وكافرين. وقال الحسن والسدّي: أمثالكم، فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة. وقال سعيد بن جبير: ألوانًا شتَّىٰ. وقال ابن كيسان: شَيِعًا وفِرَقًا[١]. ومعنىٰ الكلام: أصنافًا مختلفةً ومذاهب متفرِّقةً.

وقال تعالىٰ إخبارًا عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤]. فالمسلمون: الذين آمنوا بالله ورسوله منهم. والقاسطون الجائرون العادلون عن الحقِّ، قال ابن عباس ﵄: هم الذين جعلوا لله أندادًا[٢]. يقال:

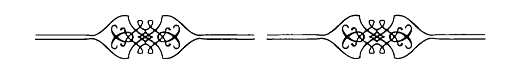
(١) ينظر لهذه الأقوال: «تفسير الطبري» (٢٩/ ١١٢)، «معالم التنزيل» (٨/ ٢٤٠).
(٢) «معالم التنزيل» (٨/ ٢٤١).

«أقسط الرجل» إذا عدل، فهو مقسط. ومنه: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. «قَسَط» إذا جار فهو قاسط ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن: ١٥].

وقد تضمَّنت هذه الآيات انقسامهم إلىٰ ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفَّار. وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني دم فإنَّها ثلاثة: أبرار، ومقتصدون، وكفار. فالصالحون بإزاء الأبرار، ومن دونهم بإزاء المقتصدين، والقاسطون بإزاء الكفار.

وهذا كما قسم سبحانه بني إسرائيل إلىٰ هذه الأقسام الثلاثة في قوله: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، فهؤلاء الناجون منهم. ثمّ ذكر الظالمين، وهم خَلْف السوء الذين خَلَفُوا بعدهم.

ولمَّا كان الإنس أكمل من الجنّ وأتمّ عقولًا ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف أُخَر ليس شيء منها للجنِّ، وهم: الرسل، والأنبياء، والمقرَّبون. فليس في الجنّ صنف من هؤلاء، بل غايتهم الصلاح.



فصل

كفار الجن في النار

وقد اتفق المسلمون على أنَّ كفَّار الجنّ في النَّار. وقد دلَّ على ذلك القرآن في غير موضع كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الآية [ص: ٨٥]، فملؤها منه: به وبكفار ذريته. وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

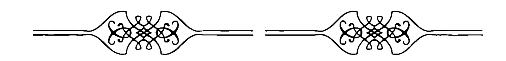
وقال تعالى في حكاية عن مؤمنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤-١٥]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤- ٩٥]. وجنوده إن لم يختصّ بالشياطين فهم داخلون في عمومه.

وبالجملة فهذا أمرٌ معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وهو يستلزم تكليف الجنّ بشرائع الأنبياء ووجوب اتباعهم لهم. فأمَّا شريعتنا فأجمع المسلمون على أنَّ محمدًا ﷺ بعث إلى الجنّ والإنس، وأنَّه يجب على الجنّ طاعته، كما تجب على الإنس. وأمَّا قبل نبينا ﷺ، فقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] يدلّ على أنَّ الأمم الخالية من كفَّار الجنّ في النَّار، وذلك إنَّما يكون بعد إقامة الحجَّة عليهم بالرسالة.

وقد دلَّت سورة الرحمن على تكليفهم بالشرائع كما كلّف الإنس، ولهذا

يقول في إثر كلِّ آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن: ١٣]، فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ السورة خطاب للثقلين معًا. ولهذا قرأها رسول الله ﷺ علىٰ الجنّ قراءةَ تبليغ، وأخبر أصحابه أنَّهم كانوا أحسن ردًّا منهم، فإنَّهم جعلوا يقولون كلَّما قرأ عليهم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: لا نكذِّب بشيءٍ من آلائك ربَّنا فلك الحمد[1].

ولمَّا كان أبوهم هو أوَّل من دعا إلىٰ معصية الله، وعلىٰ يده حصل كلّ كفر وفسوق وعصيان، فهو الداعي إلىٰ النَّار= كان أول من يُكسىٰ حُلَّةً من النَّار يوم القيامة، يسحبها وينادي: «واثبوراه!». وأتباعه من أولاده وغيرهم خلفه ينادون: «واثبوراهم»، حتَّىٰ قيل: إنَّ كلَّ عذاب يُقسَم علىٰ أهل النَّار يُبدأ به فيه، ثمَّ يصير إليهم.



(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩١) وضعفه، وصححه الحاكم (٢/ ٤٧٣).

فصل

مؤمنو الجن مصيرهم إلىٰ الجنة

وأمَّا حكم مؤمنيهم في الدَّار الآخرة، فجمهور السلف والخلف علىٰ أنَّهم في الجنَّة. وترجم علىٰ ذلك البخاري في «صحيحه»(١) فقال: «باب ثواب الجنّ وعقابهم لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ [الأنعام: ١٣٠]. ﴿بَخۡسٗا﴾ [الجن: ١٣]: نقصانًا. قال مجاهد: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗا﴾ قال كفار قريش: الملائكة بنات الله، وأمهاتهم بنات سَرَوات الجنّ، قال الله: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨] ستُحضَر للحساب».

ثمَّ ذكر حديث أبي سعيد رضي الله عنه(٢): «**إذا كنتَ في غنمك وباديتك، فأذَّنتَ بالصلاة، فارفع صوتَك بالنِّداءِ، فإنَّه لا يسمع مدىٰ صوت المؤذِّن جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلا شهد له يوم القيامة**»، سمعتُه من رسول الله ﷺ. هذا ما ذكره في الباب.

وأمَّا أحكامهم في الدنيا، فالصواب الذي عليه جمهور أهل الإسلام أنَّهم مأمورون منهيُّون مكلَّفون بالشريعة الإسلامية. وأدلَّة القرآن والسنَّة علىٰ ذلك أكثر من أن تحصر.

وإذا ثبت تكليفُهم وانقسامهم إلىٰ المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك، فهم في الموازنة علىٰ نحو طبقات الإنس المتقدِّمة، إلا أنَّهم ليس فيهم

(١) في كتاب بدء الخلق، الباب (١٢).
(٢) برقم (٣٢٩٦).

فهرس الموضوعات

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة	الأصل
ضُرب للنفس الإنسانية وما فيها من الخير والشرّ مثَلُ بدولاب أو طاحونٍ شديدِ الدوران	١٠٦	١/ ٢٢٤- ٢٢٥
إذا اقترنت المعصية بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع، فقد ترتَّب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ما هو نعمة أيضًا، وإن كان سببُها مسخوطًا مبغوضًا للربِّ تعالىٰ	١١٨	١/ ٢٥١- ٢٥٣
الحوادث نعمة في حق المؤمن	١٢٠	١/ ٢٥٣- ٢٥٤
لولا خلقُ الأضداد، وتسليط أعدائه،	١٢١	١/ ٢٥٥
تنوعُ أفعالِه ومفعولاته من أعظم الأدلة	١٢٢	١/ ٢٥٧
تنويع المخلوقات واختلافها من لوازم	١٢٣	١/ ٢٥٨- ٢٥٩
الله جميلٌ يحب الجمال، طيِّبٌ يحب	١٣٤	١/ ٢٧٣- ٢٧٤
لمحبة الله لأسمائه وصفاته أمر عباده	١٣٤	١/ ٢٧٤- ٢٧٥
نبَّه سبحانه علىٰ شمول حمده لخلقِه	١٣٦	١/ ٢٧٦- ٢٧٧
نوعا الحمد: حمد الصفات والأسماء.	١٣٨	١/ ٢٧٩- ٢٨٠
ما تضمنه الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِأَدَمَ	١٤١	١/ ٢٨٣

الفائدة	الصفحة	الأصل
علىٰ من لم يباشر قلبَه حلاوةُ هذا الخطاب	١٤٣	١/ ٢٨٥-٢٨٦
إذا واقعوا معصيةً صغيرةً أو كبيرةً عاد ذلك	١٤٦	١/ ٢٩٠-٢٩١
نار الدنيا تذكرةً تُذَكِّر بها الآخرة	١٥٣	١/ ٢٩٩
تسبيحُه تعالىٰ من تمام حمده، وحمدُه............	١٥٨	١/ ٣٠٧
لولا معرفةُ الأسباب التي يسبّح وينزّه	١٥٩	١/ ٣٠٧-٣٠٨
من فرَّ من إثبات السمعِ والبصرِ والكلام والحياة له لئلا يشبهه، فقد شبَّهه بالأحجارِ التي لَا تسمع ولا تبصر ولا تتكلَّم. ومن عطَّله عن صفة الكلام لما يلزم من تشبيه بزعمه، فقد شبَّهه بأصحاب الخرَس والآفات الممتنع منهم الكلام	-	١/ ٣٤٥
الشدّة بَتْراءُ لا دوام لها وإن طالت،	١٦٢	١/ ٣٤٨
مشهد عظيم المنفعة جليل الفائدة	١٦٦	١/ ٣٦٠
دوام الفقر إلىٰ اللهِ مع التخليط خير من الصفاءِ مع العجب	-	١/ ٣٦٦
شهود ذنبه وخطيئته يُوجِب له أن لا يرىٰ له علىٰ أحد فضلًا، ولا له علىٰ أحدٍ حقًّا؛ فإنَّه إذا يشهد عيبَ نفسه وخطأها وذنوبها فلا يظن أنَّه خير من مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر	-	١/ ٣٦٩

الفائدة	الصفحة	الأصل
أين هذا ممَّن لا يزال عاتبًا علىٰ الخلق، شاكيًا ترك قيامهم بحقِّه، ساخطًا عليهم، وهم عليه أسخط؟ فسبحان ذي الحكمة الباهرة التي بهرت عقولَ العالمين	-	١/ ٣٧٠
منهم المنيب إليه بالدخول	١٧٠	١/ ٣٧٣- ٣٧٤
أعلىٰ أنواع الإنابات إنابة الروح	١٧١	١/ ٣٧٥
إنابةُ العبد -ولو ساعةً- من عمره هذه............	١٧٢	١/ ٣٧٦
لا ريبَ أنَّ دفعَ الخواطر أيسرُ من دفع الإرادات والعزائم	١٧٣	١/ ٣٧٧
من الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي	١٧٧	١/ ٣٨٦- ٣٨٩
من انحطَّ بسبب إعراضه عن إلهه الحقّ	١٨٠	١/ ٣٩١
السائر إلىٰ الله تعالىٰ والدار الآخرة، بل	١٨٣	١/ ٣٩٧
من النَّاسِ من تكون له القوة العلمية الكاشفة............	١٨٤	١/ ٤٠٠
كون العبد مصطفىً لله وليًّا له محبوبًا له	١٩١	١/ ٤٣٢
الاصطفاء والولاية والصديقيّة وكون	١٩٢	١/ ٤٣٤
فذكر هنا الأساور من الفضّة والأكواب من الفضّة في جزاءِ الأبرار، وذكر في سورة الملائكة الأساور من الذهبِ في جزاءِ السابقين بالخيرات، فعُلِمَ جزاءُ المقتصدين من سورة الإنسان، وعلِمَ جزاءُ السابقين من سورة الملائكة، فانتظمت السورتان جزاءَ المقرَّبين علىٰ أتمّ الوجوه. والله أعلم بأسرار كلامه وحكمه	-	١/ ٤٣٦

الفائدة	الصفحة	الأصل
الصبر علىٰ الطاعة العظيمة الكبيرة أفضل	٢٥٥	٢/ ٥٩٩-٦٠٠
الحزنُ علىٰ قطع الوقت بالتفرقة المضعِفة	٢٦١	٢/ ٦٠٩
أمره سبحانه بالخوف منه في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾	٢٦٣	٢/ ٦١٤
كلَّما كان العبد بالله أعلَم كان له أخوف،	٢٦٤	٢/ ٦١٥
من كان مستقيمًا مع الله فخوفه يكون مع جرَيان الأنفاس	٢٦٥	٢/ ٦١٦-٦١٧
الوحشة إنَّما تنشأ من عدم الخوف. وأمَّا الخوف فإنَّه يوجب هروبًا إلىٰ الله، وجمعيّةً عليه، وسكونًا إليه؛ فهي مخافة مقرونة بحلاوة وطمأنينة وسكينة ومحبَّة، بخلاف خوف المسيء الهارب من الله، فإنَّه خوف مقرون بوحشة ونفرة	-	٢/ ٦١٨
الخوف يتعلَّق بالأفعال، وأمَّا الحبّ فإنَّه يتعلَّق بالذات والصفات. ولهذا يزول الخوف في الجنَّة، وأمَّا الحبّ فيزداد	-	٢/ ٦١٩
ولكن قد ابتلي كثير من أهل الإرادة بالشطح،............	-	٢/ ٦٣١
والوسيلة تزول عند حصول الغاية، ولكنَّ زوالَ الوسيلة عند حصول الغاية لا يدلّ علىٰ أنَّها ناقصة. وإذا كانت تلك الغايةُ لا كمال للعبد بدونها، فالوسيلة إليها كذلك	-	٢/ ٦٣٦
المحبَّة الخاصَّة التي لا تصلح إلا لله	٢٧٤	٢/ ٦٤٢

الفائدة	الصفحة	الأصل
الإيثار في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]	٢٧٩	٢/ ٦٤٨- ٦٤٩
لا توصف المحبة ولا تحدّ بحدّ أوضح من المحبة، ولا أقرب إلىٰ الفهم من لفظها. وأمّا ذكر الحدود والتعريفات، فإنَّما يكون عند حصول الإشكال والاستعجام علىٰ الفهم، فإذا زال الإشكال وعُدِمَ الاستعجام فلا حاجة إلىٰ ذكر الحدود والتعريفات، كما قال بعض العارفين: إنَّ كلَّ لفظ يعبّر به عن الشيء فلا بدَّ أن يكون ألطفَ وأرقَّ منه. والمحبَّة ألطف وأرقّ من كلِّ ما يعبّر به عنها	-	٢/ ٦٧٤
كلّ معنىٰ فله صيغة يعبّر به عنه، ولا سيّما إذا كان من المعاني المعروفة للخاصّ والعامّ. ولكنَّ العبارة قد تكون كاشفةً للمعنىٰ مطابقةً له، كلفظ الدراهم والخبز والماء واللبن ونحوها، وهي أكثر الألفاظ. وقد يكون المعنىٰ فوق ما يشير إليه اللفظ ويعبّر عنه، وهو أجلّ من أن يدلّ لفظه علىٰ كمال ماهيته. وهذا كأسماءِ الربِّ تعالىٰ وأسماءِ كتابه. وكذلك اسم الحبّ، فإنَّه لا يكشف اسمه مسمَّاه، بل مسمَّاه فوق لفظه، وكذلك اسم الشوق والعشق والموت والبلاء ونحوها. وقد يكون المعنىٰ دون اللفظ بكثير، واللفظ أجلّ منه وأعظم. وهذا كلفظ «الجوهر الفرد» الذي هو عبارة عن أقلّ شيءٍ وأصغره وأدقّه وأحقره، فليس معناه علىٰ قدر لفظه	-	٢/ ٦٧٦
المحبّ يتلذّذ بخدمة محبوبه وتصرّفه في طاعته، وكلّما كانت المحبة أقوىٰ كانت لذّة الطاعة والخدمة أكمل. فليزنْ العبد إيمانه ومحبّته لله بهذا الميزان، ولينظرْ هل هو ملتذّ بخدمته كالتذاذ المحبّ بخدمة محبوبه، أو متكرّه لها يأتي بها علىٰ السآمة والملل والكراهة؟ فهذا محكّ إيمان العبد ومحبته لله	-	٢/ ٦٩٧

الفائدة	الصفحة	الأصل
المعطي قد تولَّىٰ اللهُ ثوابَه، وردَّ عليه	٣٢٩	٢/ ٧٩٦
واختلف في الضعفين، فقيل: ضعفا الشيء مثلاه زائدًا عليه، وضعفه مثله. وقيل: ضعفه مثلاه، وضعفاه ثلاثة أمثاله، وثلاثة أضعافه أربعة أمثاله، كلَّما زاد ضعفًا زاد مثلًا	-	٢/ ٨٠٥
وقد اختلف في الأنفع والأفضل منهما فرجَّحت طائفة النخيلَ، ورجَّحت طائفة العنبَ. وذكرت كلُّ طائفة حججًا لقولها، قد ذكرناها في غير هذا الموضع. وفصل الخطاب أنَّ هذا يختلف باختلاف البلاد، فإنَّ الله سبحانه أجرىٰ العادة بأنَّ سلطان أحدهما لا يحُلُّ حيث سلطانُ الآخر	-	٢/ ٨٠٨
فإذا صوَّر له هذه الصورة أمره بالفحشاء، وهي البخل الذي هو من أقبح الفواحش. وهذا إجماع من المفسِّرين أنَّ الفحشاء هنا البخل	-	٢/ ٨١٥
وتأمَّل تقييده تعالىٰ الإخفاءَ بإيتاء الفقراء خاصَّة. ولم يقل: وإن تخفوها فهو خير لكم، فإنَّ من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤها، كتجهيز جيش وبناءِ قنطرة وإجراء نهر أو غير ذلك. وأمَّا إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد: الستر عليه، وعدم تخجيله بين الناس وإقامته مقام الفضيحة، وأن يرىٰ الناس أنَّ يده هي اليد السفلىٰ، وأنَّه فقير لا شيء له، فيزهدون في معاملته ومعاوضته. وهذا قدرٌ زائد من الإحسان إليه بمجرَّد الصدقة، مع تضمّنه الإخلاصَ وعدمَ المراياة وطلب المحمدة من الناس. فكان إخفاؤها للفقير خيرًا من إظهارها بين الناس	-	٢/ ٨١٨-٨١٩

الفائدة	الصفحة	الأصل
وفيه كالتنبيه علىٰ أنّ المذموم من السؤال هو سؤال الإلحاف، فأمّا السؤال بقدر الضرورة من غير إلحاف، فالأفضل تركُه، ولا يحرم	-	٢/ ٨٢١-٨٢٢
قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف:١٠٩] فهذا يدلّ علىٰ أنّه لم يرسل جنيًّا ولا امرأةً ولا بدويًّا	-	٢/ ٩٠٨
قوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ﴾ [الأنعام: ١٣٠] يدلّ علىٰ أنَّ الجنّ كانوا متعبّدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ، والآيات المتقدِّمة تدلّ علىٰ ذلك أيضًا. وعلىٰ هذا فيكون اختصاص النبي ﷺ بالبعثة إلىٰ الثقلين هو اختصاصه بالبعثة إلىٰ جميعهم لا إلىٰ بعضهم، ومن قبله كان يبعث إلىٰ طائفة مخصوصة	-	٢/ ٩١٨
وقد اختلف في إضافة المقام إلىٰ الربّ: هل هي من إضافة المصدر إلىٰ فاعله، أو إلىٰ مفعوله؟ علىٰ قولين: أحدهما: أنَّ المعنىٰ: ولمن خاف مقامه بين يدي ربه. فعلىٰ هذا هو من إضافة المصدر إلىٰ المفعول، والثاني: أنَّ المعنىٰ: ولمن خاف مقام ربه عليه واطلاعه عليه. فهو من باب إضافة المصدر إلىٰ فاعله. وكذلك القولان في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، ونظيره قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]، فهذه ثلاثة مواضع. وقد يقال: الراجح هو الأوَّل، وأنَّ المعنىٰ: خاف مقامه بين يدي ربّه	-	٢/ ٩٢٥-٩٢٦